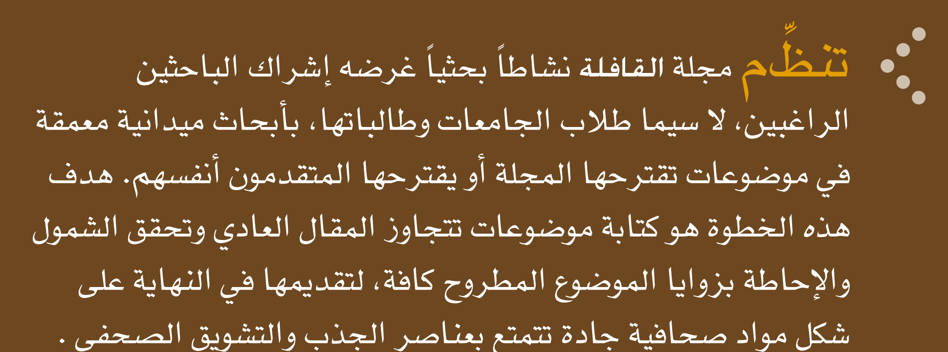

القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
يناير - فبراير 2010
قصة قرص الأسبيرين
أسماء الأحجار الكريمة..
العيش الكريم والإبداع الثقافي..
ملف العدد
القفل والمفتاح
العدد 1
المجلد 59
القافلة يناير - فبراير 2010
1

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة القافلة نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف

القفل والمفتاح ثنائي عمره من عمر الحضارة الإنسانية، ورمز للملكية الخاصة والحرص عليها، وهو موضوع ملف هذا العدد.

فيصل المالكي

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
خالد عبدالله البريك

مدير عام الشؤون العامة
عصام زين العابدين توفيق

رئيس التحرير
صالح محمد السبتي

نائب رئيس التحرير
محمد الدميني

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

المكاتب:
الرياض، **دينا الشهوان**
بيروت، **رولان قطان**
القاهرة، **ليلى أمل**
أمريكا الشمالية، **أشرف إحسان فقيه**

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
أحمد المنعي

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يناير - فبراير 2010
محرم - صفر 1431

توزع مجاناً للمشتركين

- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

- **الهواتف:** فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

يحظى الشأن البيئي بأهمية استثنائية في هذ العدد، فإضافة إلى تناوله في مناخ البيئة والعلوم كما جرت العادة، تخصِّص «القافلة» باب القضايا لما آلت إليه المساعي العالمية في مواجهة الاحتباس الحراري، كما تجلَّت في قمة كوبنهاغن التي عُقدت في التاسع عشر من ديسمبر الماضي وسط صخب إعلامي كبير، فتتناول هذه المسألة المثيرة للقلق فعلاً، من جوانب قلَّما تحظى بالأضواء الإعلامية التي تستحقها، بعيداً عن المقاييس السياسية والاقتصادية.





وينتقل باب «قول في مقال» بالقارئ إلى مناخ مختلف تماماً. فيتناول الرواية كلون أدبي فريد من نوعه ودورها في إضاءة الواقع، واستطلاع القارئ لهذا الواقع من خلال قراءتها.



2 طاقة واقتصاد

وفي مناخ الاقتصاد موضوع إداري يعرض للتحولات التي طرأت على مهنة السكرتارية في ظل التطور التكنولوجي الذي تراوحت التوقعات بشأن دوره بين زعزعة أسس هذه المهنة، أو تسهيلها، أو حتى إلغائها. والواقع أن تأثير التكنولوجيا لم يطل حتى الآن سوى وسائل الأداء في هذا الجزء الحيوي من كل عمل إداري.





3 علوم وبيئة

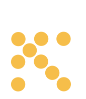
أما صفحات مناخ العلوم والبيئة فيتقاسمها موضوعان: أولهما حول قرص «الأسبيرين»، هذا الدواء الذي أبصر النور قبل أكثر من قرن، ومازال الطب يكتشف المزيد من قدراته العلاجية. وثانيهما هو عرض للمحيط البيئي الذي لايزال الأبعد عن متناول الإنسان وعلمه، ألا وهو عالم أعماق المحيطات الذي يعج بالحياة حيث لا يصل أي ضوء (ولا إنسان) انطلاقاً من الاكتشافات المهمة في هذا المجال التي سجِّلت خلال العام الماضي 2009م.

الفاصل المصور

ويضم الفاصل المصور لهذا العدد عيِّنة من أعمال المصوِّر السعودي فيصل المالكي، هي بعض ما عاد به من رحلة قام بها مؤخراً إلى لندن. والمالكي من المصوِّرين الذين انتزعوا اعترافاً عالمياً بموهبتهم، تدل على ذلك الجوائز التي حصدها، والمنابر التي تنشر أعماله.







4 الحياة اليومية

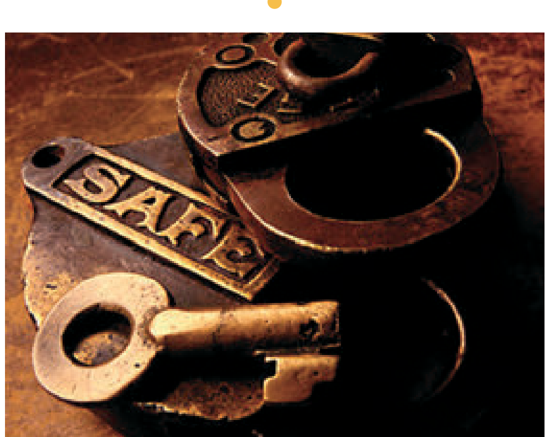
وبعد الفاصل المصور، يطالع القارئ موضوعاً تتشابك في حياكته الثقافة وعلوم المعادن والتجارة، ويتعلَّق بأسماء الأحجار الكريمة واللبس الذي يمكن أن تتسبب به في سوق المجوهرات المرصَّعة بهذه الجواهر المجهولة الهوية، خاصة مع تنامي هذا السوق على المستوى المحلي والخليجي والعربي عموماً.

5 الثقافة والأدب

أما المناخ الثقافي فيتناول قضية تمس جوهر العمل الإبداعي، وكل من يتطلع إلى احترافه، من خلال طرح السؤال حول إمكانية الاكتفاء بهذا العمل للعيش الكريم، ومقارنة الحال عربياً مع ما هو عليه في الغرب. أما الموضوع الثاني، فهو كما صار معروفاً مخصص للرواية. وفي هذا العدد قراءة لرواية «حضرة المحترم» التي صدرت قبل بضع سنوات، ولكن غوص مؤلفها الأستاذ نجيب محفوظ في حياة الموظف وعالم الوظيفة يبقيها مثيرة للاهتمام اليوم، وربما أكثر من أي وقت مضى.







6 ملف العدد

وختام رحلة «القافلة» في هذا العدد مع القفل والمفتاح. هذا الثنائي الذي ظهر منذ أن ظهرت الملكية والخصوصية، ومازال يتطور ويتطور حفاظاً على كل ما هو خاص وحميم في حياة كل منا، حتى أصبح رمزاً وعنواناً لما هو أكثر من ذلك.

الرحلة معاً

بيئة العمل تلهث خلف تقنية المعلومات

تأثير التقنية في حياتنا أمرٌ ظاهر ولا يحتاج إلى شرح. ولعل من أهم آثارها تلك التغيرات التي تطرأ على المهن فمنها ما يندثر ومنها ما يولد ومنها ما يتغير. والأمثلة على ذلك كثيرة فتجارة اللؤلؤ اندثرت تقريباً لأن التقنية طوَّرت اللؤلؤ الصناعي، وكثير من التخصصات في مجال تقنية المعلومات ولِدت وأصبحت من ضروريات العصر.

ولعل من أهم الحِرفْ أو الوظائف التقليدية التي بدأت تتأثر بتقنية المعلومات هي وظيفة السكرتير أو السكرتيرة. فإذا كانت أهم المبررات لوجود هذه الوظيفة هي كثرة الأعمال وتطلبات العمل الإداري فإن تقنية المعلومات جعلت تنظيم تلك الأعمال أكثر سهولة. وهذا لا يعني أن هذه الوظيفة في طريقها للاندثار ولكنه يعني بدون شك أنها تحتاج لأن تتطور وتبرِّر وجودها في عصر تقنية المعلومات في القرن الحادي والعشرين (انظر موضوع: مهنة نخبوية تاريخياً.. السكرتارية.. البقاء للأصلح تكنولوجياً).

وإذا كانت الصورة تبدو كئيبة، وتعبِّر لأول وهلة عن اندثار وظائف وحِرفْ فإنه ليس من الضروري أن تكون كذلك. فكما أن التقنية تقدِّم الكثير من الحلول التي تلغي الحاجة لبعض الحِرفْ فإن التقنية والتقدم بكل أبعاده الاجتماعية والعلمية والعمرانية والحضرية يخلق أيضاً كثيراً من المشكلات التي تحتاج إلى حلول. وبمعنى آخر تخلق التقنية الكثير من الفرص الجديدة للاستثمار وفرص العمل وغير ذلك. فالمشكلات والاختناقات في مستوى من مستويات التحليل عبارة عن فرص للإبداع والاستثمار والتطوير وخلق فرص العمل.

ولنأخذ على سبيل المثال الازدحام السكاني ونشوء المدن الكبيرة التي يُعد سكانها بالملايين. لقد بدأت هذه الظاهرة مع ظهور العصر الصناعي، رغم أن أعداد السكان لم تصل إلى تلك الأعداد الهائلة إلا في القرن العشرين.

فتكدس الملايين من البشر، وظهور وسائل المواصلات الحديثة، والسيارات الصغيرة، خلق مشكلة الازدحام في المدن، تلك المشكلة التي تولَّد عنها الكثير من المشكلات، مثل التلوث في المدن الكبرى، وحوادث السير، وصعوبة الحركة في أوقات الذروة، وصعوبة التعامل مع الحوادث والطوارئ، مثل إطفاء الحرائق وغيرها. كل ذلك بسبب كثرة البشر وزحمة الشوارع وبطء حركة السير.



ولكن هل استفاد العالم من التقنية الحديثة للتعامل مع هذه المشكلة، التي يكفي لحلها، إلى درجة كبيرة، أن نقلّل بشكل كبير عدد البشر الذين يضطرون لمغادرة منازلهم كل يوم في نفس الوقت لأداء أعمالهم؟ فلا شك أن استخدام التقنية الحديثة للتعامل مع مشكلات العصر الناشئة عن التقدم بكل أبعاده هي أحد أهم أسباب حلها.

ولنأخذ على سبيل المثال التقدُّم في تقنية المعلومات وزيادة انتشار واستخدام شبكات الإنترنت والإنترانت، فهذه التقنيات جعلتنا قادرين على أن نؤدي الكثير من الأعمال من منازلنا، مما يجعل من الممكن أن نحقق الكثير من المكاسب، ومنها:

- خفض درجة الازدحام في الطرق، وتوفير الوقت الذي يقضيه الجميع في الشوارع والطرق السريعة.
- تقليل عدد الحوادث المرورية والإصابات والوفيات.
- زيادة الكفاءة في التعامل مع الحالات الطارئة مثل حوادث السير والحرائق وحالات الإسعاف.
- إتاحة الفرصة لربات البيوت المتزوجات والمرضعات أن يحصلن على عمل دون أن يتخلين عن وظائف عائلية رئيسة أو يوكلنها لغيرهن.
- رفع مستوى نظافة البيئة لانخفاض عدد السيارات التي تجوب الطرق.
- رفع المستوى الصحي في المجتمع، فلا شك أن الازدحام المروري يرفع درجة الضغط والسكر وغيرهما من المؤشرات الصحية.

ولكن إذا كانت هذه المكاسب حقيقية فما الذي يمنعنا من الاستفادة منها؟ هذا الموضوع يحتاج إلى بحث ودراسة، ولكن يبدو أن الأسباب الرئيسة تشمل الآتي:

- البشر لايتبنون الابتكارات الجديدة بسرعة، وقد درس المتخصصون في العلوم الاجتماعية هذا الموضوع باسترسال، وقسَّموا الناس إلى فئات بناء على سرعة تبنيهم للمبتكرات، وخرجوا باستراتيجيات وتوصيات لتسريع تبني المبتكرات المفيدة.
- صعوبة تغيير مؤشر الأداء الوظيفي التقليدي (الحضور والانصراف) رغم وضوح قصور هذا المؤشر، فالموظف الذي يحضر ويغادر في الوقت الصحيح بدون إنتاج لا ينفع مؤسسته ولا يستحق راتبه. والمؤشرات الحديثة للأداء الوظيفي تدور حول الإنجاز، وهذا يمكن قياسه سواء عمل الموظف من بيته أو مقر مؤسسته.

وإلى جانب ما ذُكر، هناك قضاياً أخرى تتعلق بهذ الموضوع يجب التعامل معها أيضاً، ومن هذه القضايا:

- أسلوب العمل من البيت عبر شبكات المعلومات الحديثة لا يلغي حضور الاجتماعات فهي ضرورية لأن بعض القضايا تحتاج أن يتعامل معها فريق، كما أن الاجتماعات تسهم في خلق ثقافة المؤسسة والمحافظة عليها، رغم أن بعض الاجتماعات يمكن أن تكون أيضاً بواسطة الاتصال التلفوني أو التلفزيوني.
- أسلوب العمل عن طريق الإنترنت والإنترانت لا يمنع من بناء أرشيف المؤسسة والمحافظة عليه، فنظام الأرشفة الإلكترونية قادر على أداء الدور، وهو الأسلوب المتبع حتى في كثير من المؤسسات التي تعمل بشكل تقليدي. وهذا لا يعني أنه لن يكون من الضروري الحفاظ على بعض الوثائق بنسخها الورقية الأصلية، إذا كان ذلك ضرورياً.

وقبل الختام تجدر الإشارة إلى أن العمل من المنزل، ومن خلال شبكات المعلومات الإلكترونية، لا يناسب كل حِرْفة. فهناك الكثير من المهن التي تتطب تواجداً فعلياً ليسير العمل بشكل صحيح. أما فيما عدا ذلك فإنه من غير المعقول أن تقدِّم لنا التقنية، التي ابتكرها البشر، الحلول وأن نتجاهلها لعقود. إن تأخر تبني مثل هذه الحلول يعود إلى بطء تبني الأفكار الجديدة التي تتطلب إحداث تغييرات تشريعية، وتنظيمية، وإدارية، قبل أن تكون قابلة للتطبيق بفعالية.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

حديقة القافلة

يسعدني دوماً أن أتواصل مع مجلة العرب «القافلة». فمنذ فترة طويلة وأنا أتفاعل مع هذه الحديقة الغنَّاء بما تحويه من أشجار السنديان وارفة الظلال، وأزهار السوسن الصغيرة التي تحتضنها هذه المجلة، وتربِّيها نبتة صغيرة لتشق طريقها وتكبر وتصل إلى عنان السماء.
فالقافلة في كل عدد تحتفي بكاتب جديد من الأدباء الشبان من خلال قافلة الأبحاث. وأنا منذ فترة زمنية طويلة أتسلم محبوبتي القافلة ولا أستطيع أن أصف مدى فرحتي بكل عدد جديد يصدر منها وأتلقفه من موزع البريد.
فهنيئاً لكم بحب الملايين من عشاق هذه المجلة الرصينة وكان الله في عونكم وعون العاملين عليها، للجهود الجباره التي تبذلونها بحب وتفان لتخرج المجلة في حلة جديدة مع كل عدد جًديد.

أشرف سعد
سوهاج، مصر

حول العدد الخاص

أنا من قرَّاء مجلة القافلة منذ مدة طويلة، ولا أدَّعي أنني كنت أقرأ كل موضوعاتها، إلا ما كان مني مع العدد الخاص من هذه المجلة الذي صدر لمناسبة مرور 75 عاماً على تأسيس أرامكو، بعنوان 75 عاماً للوطن طاقات. فقد حفَّزني هذا العنوان على قراءتها من الغلاف إلى الغلاف.
طالعت فيه قصة تستحق أن تروى، وملحمة تسطِّر مسيرة مشروع اقتصادي حضاري لعب دوراً حيوياً في ازدهار دولة من أهم دول العرب والمسلمين، كما عمل على نهضة شعبها، وزرع حب العمل وقيمه في النفوس.
فقد روت لنا القافلة في هذا العدد فصول القصة كاملة، بدءاً بطموح الملك المؤسس عبد العزيز، يرحمه الله، إلى توفير مصدر للعيش الرغيد لشعبه، بعد أن وفقه الله في توحيد بلادنا، وصولاً إلى صورة أرامكو السعودية في المستقبل. ولم يقتصر تناول المجلة لتاريخ أرامكو السعودية على الأرقام والإحصاءات، بل نقلنا في صفحات كثيرة إلى مساحات إنسانية وأدبية وثقافية من خلال الموضوعات التي تناولت الأجيال المتعاقبة على العمل في الشركة، وتاريخ مجلتها «قافلة الزيت» قبل أن يختصر ويصبح القافلة فقط. لقد شكَّل هذا العدد سيرة حياة شركة عملاقة، ودوَّن تاريخها، فقرأناه كما نقرأ سيرة إنسان عظيم ترك أثراً كبيراً على هذا العالم.

علي أحمد صبيحة
أمين مكتبة «كلية الباحث الأهلية للعلوم»، الباحة

فهرس القافلة

سرني الاطلاع على أحد أعداد القافلة. ولمست فيها بوضوح الجهود الكبيرة المبذولة في تحريرها وطباعتها بهذا الشكل الأنيق. واستمتعت فعلاً بقراءة مقالات عديدة في العدد الذي اطلعت عليه. ولهذا سأكون لكم من الشاكرين إذا وضعتم اسمي على قائمة المشتركين كي تصلني مجلتكم بانتظام. وسأكون لكم من الشاكرين إذا زودتموني بفهرس الأعداد السابقة.

عبدالملك الصالح
الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض

القافلة: نرحب بك مشتركاً جديداً. أما فهرس الأعداد السابقة فيمكنك الاطلاع عليه من خلال الموقع الإلكتروني للمجلة: www.qafilah.com

قضية «إيباي» العربي

عندما قرأت استطلاع القافلة عن موقع التجارة الإلكترونية العالمي «إيباي» (في عدد مايو-يونيو 2009م)، شعرت برغبة في الدخول إلى هذا الموقع واستكشافه.
غير أني لاحظت في الصفحة الرئيسة أسماء بلدان عديدة، تضم إضافة إلى الدول الكبرى عدداً من الدول الصغيرة التي لم نسمع كثيراً بمكانتها على صعيد التجارة العالمية مثل فيتنام وبولندا والسويد وغيرها. واكتشفت أمراً لم يشر إليه الاستطلاع، وهو وجود «فروع» على هذا الموقع العام، تسمح للمتصفح بالتعامل معه بلغة هذا البلد. (ومن المرجح أيضاً وجود ترويج أكبر للسلع المنتجة في هذا البلد، ولا أستطيع الجزم بذلك). ولكن من ضمن هذه الدول التي يصل عددها إلى الثلاثين، ليس هناك دولة عربية واحدة، ولغة الضاد غير واردة على الإطلاق.
وخلال مناقشة القضية مع صديق، قال لي إن حجم التجارة الإلكترونية في البلاد

العربية مازال ضعيفاً جداً، بسبب ضعف استخدام الإنترنت والكمبيوتر عموماً. ولكن، مهما كان تعاملنا مع الإنترنت ضعيفاً، فمن المؤكد أن البلدان العربية التي تضم نحو 400 مليون مستهلك هي أكبر من سوق فيتنام أو بولندا. كما أن عدد مستخدمي الإنترنت مهما قلّت نسبتهم المئوية يبقى كبيراً بشكل لا بد وأن يثير اهتمام الباعة. هذا إذا سلّمنا جدلاً أننا سنشتري فقط. الأمر الذي يقودنا إلى السؤال: أليس عندنا باعة في السوق الإلكترونية بعدد يكفي لحمل مثل هذا الموقع العالمي على تخصيص صفحة أو فرع باللغة العربية؟

لا نعرف الجواب. وربما يكون الجواب الصحيح هو في القليل من كل ما تقدَّم مرة واحدة.

سليم يونس
لبنان

الأزمة المالية العالمية

طالعتنا القافلة في العدد الخامس من المجلد 58، بتحليل شيِّق بعنوان «الأزمة المالية العالمية، ماذا علَّمتنا؟». وقد جاء العرض والتحليل غنيان بالمعلومات الدقيقة التي تسلِّط الضوء على جوانب عديدة من هذه الأزمة العالمية. غير أن المقال خلا من الإشارة إلى واحد من أهم دروس هذه الأزمة، ألا وهو تشديد الرقابة القانونية على المصارف كما تجلَّى في بلدان عديدة. وهذا موضوع يمكن التوسع فيه إلى حد لا يتسع له المجال.

ما أود أن ألفت نظركم إليه، هو أن وصف الأزمة العالمية الحاصلة حالياً بأنها «أزمة مالية» لم يعد دقيقاً. فقد بدأت الأزمة مالية، نعم. ولكنها بسرعة وخلال أشهر معدودة تحولت إلى أزمة اقتصادية عالمية. فتراجع حجم التجارة مثلاً هو في جزء من الأزمة الاقتصادية الناجمة عن الأزمة المالية، وتفشي البطالة أيضاً، وتراجع حركة السياحة، وارتفاع أسعار بعض السلع، وانهيار أسعار بعضها الآخر.. وقد أشار إلى ذلك الدكتور ناصر السعيدي، الاقتصادي العربي المعروف في حديث تلفزيوني، وضرب مثلاً حول ذلك بالإشارة إلى بلدين لم يواجها الأزمة المالية (كندا ولبنان)، ولكنهما لم يسلما من آثار الأزمة الاقتصادية الناجمة عنها.

سعدون سراج الدين
الكويت

ابتكار ومبتكر

أنا من قرَّاء القافلة الغرَّاء. ومن أبرز أبوابها التي أقرأها بسرعة زاد العلوم وقصة ابتكار ومبتكر. وأرغب في المساهمة بهذه الأبواب. فما هي الشروط؟

سلمان ناصر بو سلمان
جدة

القافلة: لا شروط غير وجوب انسجام الموضوع مع شخصية الباب ومحتواه، وأن يكون ما تكتبه جديداً لم يسبق نشره أو تم تناوله في أعداد سابقة.

احتضار

خذ من الآلام
أشعاري
وهات الابتكارْ
فأنا الواقف
بين النجم والشمس
وحيدا
قد دخلت الاحتضار
ساعة الصبر
تعدت
كوكب الوقت
وعادت
لغة الشموع والورود
تحسب نهارا!
وأنا: آه
على خط
تماس
النار
والثْلج
حبيسٌ
بين جمر الاحتقار
انظر الأرض
تصلي (الخوف)
في (بيت)
سلام
من كلام

عبد المحسن المطوع
الأحساء

المشتركون الجدد

الأخوة: زكريا علي الرضا، الدمام - علي العيلوي، الدمام - زهير أحمد السباعي، جدة - فيصل رشيد الكايد، الأردن - عبدالله بريك البركاتي، مكة المكرمة - علي بن راشد المطاعني، سلطنة عُمان - غازي رشاد الكثيري، اليمن - فتحي الرميح، سيهات - إبراهيم بن حمدان الشريفي، الجبيل - محمد زكريا الوباري، الأحساء - أحمد بن جمعة السليمي، سلطنة عُمان - محمد فوراني، سوريا - د. ناصر عبدالمحسن الفرج، القطيف - علي محسن الصيقل، تاروت - محمد المزيد، الأحساء.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

رسائل الجوال

أنهت القافلة ملفها الممتع عن البريد بسؤال حول إمكانية مزاحمة الرسائل القصيرة عبر الهاتف الجوال للبطاقات البريدية. والحقيقة أنني توقعت أن يتناول الملف هذا النوع من الرسائل بمزيد من التفصيل. فالجوال أصبح اليوم وسيلة الاتصال الأولى من دون منازع. ولم يكتف بكونه وسيلة اتصال فحسب، بل أصبح -أيضاً- وسيلة تعليم وترفيه وتنظيم. فعن طريقه يمكن تصفح الإنترنت، وقراءة الكتب، وجدولة المهام، والتذكير بالمواعيد، وتصوير المشاهد، وتسجيل المحاضرات، والتنبيه للاستيقاظ ...إلخ. وتطالعنا شركات الاتصالات كل يوم بإضافات جديدة، تجعلنا نتوقع أن يكون الجوال قريباً هو الجهاز الأوحد الذي يُغني حامله عن كل ما عداه!

وتأتي الرسائل النصية واحدة من الخصائص التي يتيحها الاتصال عبر الجوال. وإذا أضفت إليها رسائل الصور ورسائل الوسائط والرسائل الصوتية والرسائل التبادلية، فإنك تخرج بمنظومة بريدية كاملة قد لا تحتاج معها إلى مراجعة مكتب البريد.

من ميزات الرسائل النصية الوصول السريع والمضمون إلى المرسل إليه، وفوريتها في إيصال الطلب المراد، وسهولة الرد عليها والتفاعل معها. وقد أصبحت الرسائل النصية اليوم مجالاً واسعاً للتواصل بين الناس، فلا يحصي الواحد منا الرسائل التي تصله في مناسبات الأعياد، والتي يتفنن مرسلوها في جعلها فريدة ومميزة وشخصية الطابع، وربما وصلت إلى البعض رسائل للعزاء، وأخرى للغزل، وثالثة للترفيه والإضحاك. ولا أنسى رسائل المواقع الإخبارية التي تواصلك بالأخبار العاجلة بعد لحظات من إعلانها.

ومن الأغراض التي تستخدم فيها الرسائل النصية زيادة الحصيلة الثقافية. وأنا أحكي لكم عن تجربة شخصية لي مع مجموعة من الأصدقاء بدأت قبل سنوات سبع من اليوم ولا تزال متواصلة. هذه المجموعة متنوعة الخلفيات العلمية والثقافية، فمنهم الأكاديمي الذي يدرِّس في الجامعة، ومنهم المثقف والأديب والمتخصص في العلوم الشرعية، كما أن فيهم المهنيون من صيادلة وأطباء ومبرمجين ومهندسين وغيرهم.

وقد أثار هذه الفكرة وطبقها بتميز شخص كبير يصدق عليه وصف العالم والمثقف والأكاديمي. فهو قارئ نهم وأستاذ جامعي درس ثلاثة تخصصات متنوعة هي الإدارة وعلم الاجتماع والسياسة الشرعية. فأرسلت إليه يوماً ببيتين أثني فيهما على صنيعه، وأبدي إعجابي بما يرسله:

أضحت رسائلكم في حسن جوهرها
زاداً لعلم وتثقيف وآداب
قد بيَّنت في جلاء عقل مرسلها
وأوقدت من سناها فكر أصحاب

وقد تحمست لهذه الفكرة كثيراً، وانضممت للكوكبة التي ترسل هذه الرسائل وتتلقاها. وأصبحت كلما وقعت على شيء يستحق أن أرسله: بيت شعري، أو نكتة علمية، أو فائدة، أو طرفة، أو مقولة، أو حكمة؛ أرسلته، وأشركت عدداً من أصدقائي في هذه الرسائل. وكنت طوال هذه السنوات أكتب ما أرسل وما يصلني.

واجتمع لدي رصيد كبير من هذه الرسائل التي وجدت فيها فوائد متنوعة. ورأيت أنها تجربة جديدة تستحق أن تنشر إحياءً لأدب الرسائل والمختارات الذي عرفناه في كتب الأدب العربي. وتوثيقاً لهذه الحكاية التي تعاقبت فصولها على مدى سنوات سبع، ولا تزال متصلة، فقررت أن أنشر هذا العام كتاباً يجمع هذه الرسائل، بعد أن استبعدت منها الإخوانيات وترجمت ما كان منها في الأصل باللغة الإنجليزية، وسميته: «رسائل الأمير».

خالد حمزة المدني

الرياض

تعقيباً على ملف «البريد»، «القافلة» عدد يوليو-أغسطس 2009



حول

ماذا سنأكل غداً

قرأت باهتمام المقال المنشور في باب البيئة والعلوم في العدد 4 من المجلد 58 (يوليو/أغسطس 2009م) بعنوان «ماذا سنأكل غداً؟ طعام المستقبل في مختبرات اليوم» والذي تناول ما تشهده الزراعة وصناعة الغذاء في هذا العصر الذي نعيشه، وما نتوقعه مستقبلاً من تطورات وتقنيات علمية لتوفير مصادر الغذاء لمواجهة الطلب المتزايد من أمم الأرض، والتي يتضاعف سكانها عاماً بعد عام مما يتسبب بطلب على الأغذية قد تعجز الأراضي الزراعية والمزارع التقليدية عن تلبيته.

لقد تطرَّق الكاتب لجوانب متعددة، منها ما لا يزال فكرة بعيدة عن التطبيق العملي، ومنها ما هو حاصل على أرض الواقع، بل ويشهد تطوراً وتقدماً كما نرى الآن، مثل ثورة التقنية الحيوية واستخدام الهندسة الوراثية لتحسين إنتاج المحاصيل الزراعية الاقتصادية، وإكسابها مقاومة للأمراض والآفات والحشائش التي تصيبها، مما يرفع إنتاجها ويخفض الاعتماد على استخدام المبيدات الزراعية سواء الحشرية أو مبيدات الأعشاب وهذا ما يؤدي بدوره للحد من المخاطر الصحية والبيئية.

ولكني أود أن أشير في هذا الصدد إلى أن الكاتب عرض وجهة نظر مغايرة لما يحدث الآن، حيث قال إن عدداً من خبراء الزراعة والبيئة والتغذية يرون أن المحاصيل الغذائية المعدلة وراثياً قد خيَّبت الآمال والتوقعات في أسواق الدول المتقدِّمة لدرجة أن مستقبلها أصبح غير واضح بل وتواجه بمعارضة أوروبية صلدة، وحتى في الولايات المتحدة. ولم يشر المقال إلى أرقام أو إحصاءات أو جهات علمية أو اقتصادية يمكن الاعتماد عليها للأخذ بوجهة النظر هذه!.

إن ما نراه اليوم هو عكس ذلك تماماً، سواء في التوسع الهائل سنوياً في زراعة هذه المحاصيل المعدلة، أو بمعنى أدق المحورة وراثياً، ودخول دول جديدة على زراعتها وإنتاجها، حتى في أوروبا. وقد كانت بريطانيا وبعض الدول الأوروبية ذات مواقف متشددة بشأنها، إلا أننا نرى الآن مرونة في قوانينها بهذا الخصوص. أما في الولايات المتحدة وهي أكبر منتج لهذه المحاصيل المحورة وراثياً، فهناك ثلاث هيئات فيدرالية تنظم وتسمح أو تعارض المحاصيل المحورة وراثياً للغذاء والأعلاف والبيئة، وهي هيئة الغذاء والدواء (FDA) التي لا ترى أن هناك فرقاً بين المحاصيل المحورة والتقليدية وتسمح باستهلاكها، ووكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA)، ووزارة الزراعة الأمريكية (USDA).

وللدلالة على التوسع الهائل لهذه المحاصيل عالمياً يمكننا إلقاء نظرة على الإحصاءات الموثقة المعتمدة بشأنها من قبل مركز المعلومات الدولي المختص بتطبيقات التقنية الحيوية المعروف بـ (ISAAA)، وهو مركز عالمي



Corbis

غير هادف للربح، يشير إلى أن المساحة المزروعة عالمياً من المحاصيل المحورة وراثياً وصلت إلى 125 مليون هكتار في عام 2008م. بينما كانت في العام الذي قبله 114,3 مليون هكتار، أي بزيادة 10,7 مليون هكتار في عام واحد فقط، وبزيادة 74 ضعفاً عما كانت عليه في عام 1996م، وهو العام الذي شهد زراعة المحاصيل المحورة وراثياً على نطاق تجاري لأول مرة.

أما عدد الدول التي تزرع وتنتج المحاصيل المحورة وراثياً في العالم فقد وصل إلى 25 دولة في عام 2008م، بينما كان 6 دول فقط في عام 1996م. كما أن التوقعات تشير إلى زيادة عدد هذه الدول مستقبلاً لتصل إلى أكثر من 40 دولة في عام 2015م. ومن أهم المحاصيل الزراعية الاقتصادية المحورة وراثياً التي تنتجها هذه الدول فول الصويا والذرة الشامية (وكلاهما يستهلكان في الغالب أعلافاً للماشية والدواجن)، والقطن ونبات الكانولا (لإنتاج زيت الكانولا). وتتصدر الولايات المتحدة الأمريكية قائمة الدول المنتجة لهذه المحاصيل يليها الأرجنتين والبرازيل والهند ودول أخرى.

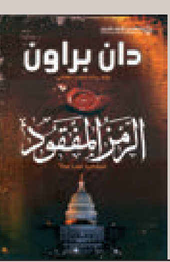
د. عبد الله علي البيز
مستشار في منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة، الرياض
تعقيباً على موضوع «ماذا سنأكل غداً؟»، «القافلة» عدد يوليو-أغسطس 2009

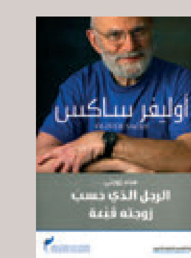
قافلة النشر



الدار العربية للعلوم ناشرون









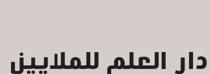
الرمز المفقود (رواية)
دان براون

الرجل الذي حسب زوجته قبعة
أوليفر ساكس

ألفرد واميلي (رواية)
دوريس ليسينج

السلمانية (رواية)
صلاح معاطي

دار العلم للملايين











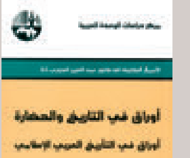
فن الإبداع والابتكار
توم كيلي وجوناثن ليتمان

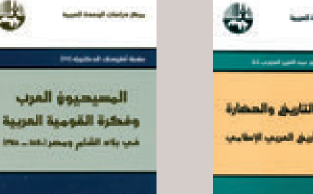
انهيار الإعلان وارتقاء العلاقات العامة
آل ريس ولورا ريس

78 سؤالاً مهماً على كل قيادي أن يطرحها
كريس كلارك-إبستين

الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير
د. نور سلمان

مركز دراسات الوحدة العربية







أوراق في التاريخ والحضارة
د. عبد العزيز الدوري

المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية
د. فدوى أحمد محمود نصيرات

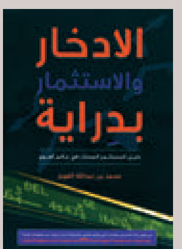
العلم والنظرة العربية إلى العالم
د. سمير أبو زيد

الثروة النفطية ودورها العربي
د. عاطف سليمان

سورية وتركيا.. الواقع الراهن واحتمالات المستقبل
د. عقيل سعيد محفوظي

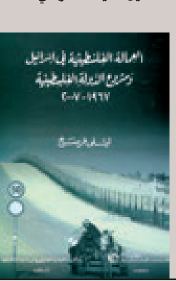
كتب متفرقة











الجودة والعمل الخيري
جمعية البر بالمنطقة الشرقية

الادخار والاستثمار بدراية
محمد بن عبد الله القويز

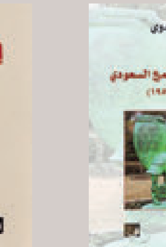
رسائل الأمير
خالد بن حمزة المدني

نحو فقه للاستغراب
د. محمد البنعيادي

العمالة الفلسطينية في إسرائيل
ليلى فرسخ
مؤسسة الدراسات الفلسطينية

النادي الأدبي بالرياض





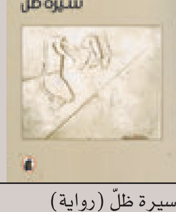


- الرواية النسائية السعودية
  خالد الرفاعي
- الحداثة والمجتمع السعودي
  علي الشدوي
- إشكاليات النص.. دراسة لسانية نصية
  جمعان بن عبدالكريم
- مطوع في باريس
  محمد ناصر العبودي
- مدارات نقدية
  أمل القثامي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

















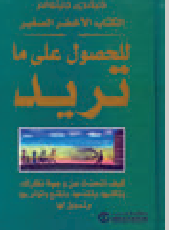




- سيرة ظلّ (رواية)
  نضال القاضي
- استجداء (رواية)
  حزامة حبايب
- قامات الزبد (رواية)
  إلياس فركوح
- مدينة اللد، موقعاً وشهرة وتاريخاً ونضالاً
  د. مصطفى محمد الفار
- طبريَّة.. تاريخ موسوعي
  د. عصام سخنيني

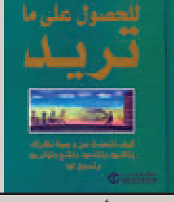
مكتبة جرير

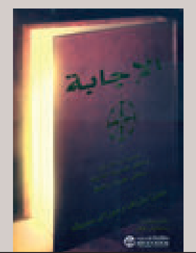


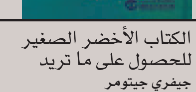












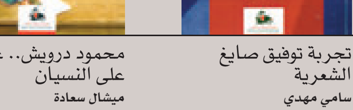




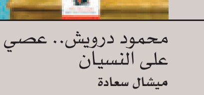
- الكتاب الأخضر الصغير للحصول على ما تريد
  جيفري جيتومر
- الإجابة
  جون أساراف وموراي سميث
- التوجه الإيجابي الفعّال
  جيفري جيتومر
- البرمجة اللغوية العصبية في 5 دقائق
  كارولين بويس

رياض الريس للنشر والكتب

















- تجربة توفيق صايغ الشعرية
  سامي مهدي
- محمود درويش.. عصي على النسيان
  ميشال سعادة
- حين يشق الفجر قميصه (رواية)
  مي منسّى
- زرتك قصب فليت ناي (شعر بالمحكية)
  جوزف حرب
- تركت الهاتف يرن (رواية)
  إلهام منصور

المؤسسة العامة للسينما الفن السابع





- السينما المعاصرة
  بينولب هيوستن
- الشاشة المرآة
  إبراهيم العريس

بعد كوبنهاغن..
الاحتباس الحراري
بين الحلول الكبيرة والحلول الصغيرة.. والأشجار خشبة الخلاص!

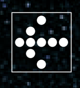
لكن ماذا لو لم تكن الكرة في ملعبنا؟

أحيط مؤتمر كوبنهاغن للتغيرات المناخية الذي عُقد في شهر ديسمبر الماضي، بتعبئة إعلامية غير مسبوقة في حدتها. وتمثل ذلك في إعلان البعض قبل انعقاد هذا المؤتمر أنه «مؤتمر الفرصة الأخيرة»، كما تمثَّل أيضاً خلال انعقاد القمة في ضغط الشارع، أو الشوارع المحيطة بمقر المؤتمر في العاصمة الدنماركية، وما شهدته من اضطرابات. وبصدور القرارات والتوصيات، كان هناك من وصفها بأنها «نصف نجاح»، وآخر بـ «نصف فشل»، وثالث رأى أنها «واقعية». إن الذين تابعوا مجريات الأمور في قمة كوبنهاغن من خلال خطوطها الإعلامية العريضة، بدت لهم القضية على أنها مؤلفة من مشكلة بديهية لا يفترض أن يكون هناك أي خلاف على حلها. وأن أي خلاف لا بد وأن ينتهي بشكل حاسم لصالح واحد من طرفين لا ثالث لهما. ولكنها في الحقيقة ليست كذلك.

كميل حوّا يتناول مختلف الجوانب التي تتكشف عنها قضية الاحتباس الحراري المثيرة للشكوك على مستويات عديدة بدءاً بقدرة علم المناخ على تأكيد صحة توقعاته، مروراً بالمعطيات التي تأكدت صحتها وتلك التي لم تتأكد، وصولاً إلى البحث عن الحلول الواقعية الذي يبدو أنه لا يزال في بداياته. إذ إن من المفارقات التي تكشفت عنها قمة كوبنهاغن وضجيجها من جهة، والدراسات العلمية الهادئة من جهة أخرى، هي أن العلماء المدققين في قضية الاحتباس الحراري، ما زالوا متأخرين في حسم قناعاتهم، عن شطر كبير من الرأي العام سبقه بأشواط إلى ذلك.

Reuters


Reuters



حسب بعض التقارير الصحافية المتعلّقة بالمناخ، فإن هذا العام 2010م سيكون الأشد سخونة منذ أن وُجدت أجهزة قياس حرارة الجو. وبكلام آخر، أشد سخونة من أي عام مضى في التاريخ الحديث.

ولن تغيِّر العواصف الثلجية العاتية التي تضرب أوروبا الغربية وأجزاء واسعة من آسيا والولايات المتحدة في معطيات مثل هذا التوقع أو احتمال تحققه، مهما شعر أصحابه من حرج مؤقت، تماماً كما شعر المشاركون في مؤتمر كوبنهاغن الذي عُقد كي يتصدَّى لظاهرة سخونة المناخ، وتزامن اختتام أعماله مع بدء موجات الصقيع التي وصلت إلى مستويات غير معهودة في كثافة الثلوج وإغلاق الطرقات.

حول علم المناخ أولاً

إن أهم أسباب الاعتقاد بحتمية سخونة طقس هذا العام، هو تجمع كتل حرارية حول خط الاستواء في المحيط الهادي، يُعتقد أنها كانت مسؤولة عن ارتفاع الحرارة عام 1998م ووصولها إلى رقم قياسي لم تصل إليه في أي من سنوات العقد الحالي الذي ينتهي بنهاية هذا العام. وتسمَّى هذه الظاهرة «النينيو». وكما أن النينيو الحار يؤدي إلى ارتفاع درجات الحرارة، فكذلك النينيو البارد يؤدي إلى العكس، كما حدث في عامي 2007 و2008م. وهذا ما يفسِّر لماذا كانت مثل هذه السنوات باردة مقارنة بالسنوات الأخرى من هذا العقد.

إلى جانب «النينيو» هناك الشمس كمصدر آخر للسخونة، والتي تتعرض على ما يبدو إلى تحولات في مستوى توهجها كل 11 سنة تقريباً. وقد كانت عام 2009م في أدنى نقطة منخفضة من خط التوهج، وبالتالي من المتوقع أن يبدأ هذا التوهج بالازدياد هذا العام، ليضاف إلى العوامل المؤدية إلى ارتفاع سخونة المناخ.

أمـا إذا لـم يتحقق هـذا التوقع، فإن ذلك سـيعود ويؤكد أن قـدرة العلم على الإلمام بجميع العوامـل المؤثرة في حرارة وبـرودة المنـاخ ما زالت غيـر موثوقـة، وأن علمـاء المناخ يحتاجـون إلى مزيـد من أنظمة القياس، رغم وصـولها إلى مسـتويات متطورة وشديدة التعقيد وتسـتخدم أدوات رصد تتدخَّـل فيها الأقمار الصـناعية في الفضـاء وأدوات قياس على الأرض، وتأخذ في الاعتبار عوامل متحولة لا حصر لها.

فمـا هـو المؤكد ومـا هو غيـر المؤكد في مسـألة سـخونة المنـاخ؟ ومـا هو المؤكـد وما هو غيـر المؤكد فـي الحلول المطروحة لهذه الظاهرة؟

مسألة محسومة.. أم ليس تماماً؟

إن نظـرة نلقيها علـى الخط البياني لقياس معدَّل درجات الحـرارة علـى كرتنـا الأرضـية الزرقـاء، تُظهـر -رغـم التذبذبـات صـعوداً وهبوطاً- ازديـاداً عاماً بهـذا المعدل خاصـة في العقـود الثلاثـة الأخيرة. ورغم أن هناك شـبه إجماع بين علماء المناخ على أن هذه الظاهرة هي بالدرجة الأولى من صنع الإنسان ونتيجة ما يسمى بظاهرة الاحتباس الحـراري، والتي هي بشـكل رئيس نتيجة انبعـاث غازات مثل ثاني أكسـيد الكربون، إلا أنـه مازال الكثير من العلماء يشـكِّكون بهذه القناعـة ويعتبرون أنها تحولـت إلى نوع من الحملة الدعائية، التي يستعد أصحابها أحياناً إلى التغاضي عـن معطيات ومؤشـرات قد تغيِّر أو تعدِّل فـي النتائج التي توصـلوا إليها. فهناك علمـاء كثيرون مازالـوا يعتقدون أن ارتفـاع حـرارة المناخ هـو نتيجـة تغيرات مناخيـة دورية، كالتي كانت تشـهدها الأرض عبر العصـور، والتي قد تنتج عـن زيادة في الوهج الحراري من الشـمس أو من مصـادر أخرى في الفضـاء غير المتناهـي، وأن هذا المنعطف ربما يكون قد شارف على نهايته.

ورغـم أن هؤلاء العلمـاء أقلية في الأوسـاط العلمية، إلا أن هنـاك مجموعة أخـرى تقـول إن الاحتباس الحـراري يقع ضـمن مسيرة تغير المناخ على المدى الطويل، وما تتعرَّض له من صـعود وهبوط يجعل هذه القضية في النهاية ظاهرة عرضـية. وفي خدمة هذا النقاش، جـاءت حادثة تزيد من الشـكوك التي تلف هـذا التوجـه العام، حيث نُشـرت على الإنترنت مجموعة هائلة من الرسـائل الخاصة لبعض أبرز العلماء، الذين حصروا أسـباب سخونة المناخ بالانبعاثات الكاربونية، يعبِّرون فيها عن شـكهم بالنتيجة التي توصـلوا إليها. وظهرت هذه الشكوك ضمن رزمة ضخمة من الرسائل أخـذت من «وحدة أبحاث المناخ» من جامعة إيسـت إنجليا الإنجليزية. وتتخصـص هـذه الوحدة بدراسـة المناخ في الحقب السـابقة لوجود أدوات قياس الحرارة (الثرمومتر) وحيث المراجع نسبية مثل شـكل وحجم الحلقات الداخلية فـي جذوع الأشـجار. وقـد احتوت هـذه «الإيميـلات» على كلمات تشـكك بالنتائج التي يتوصل إليها أصحابها، وتكون قاطعة بأن التسخن الحراري هو من صنع الإنسان.

العواصف الثلجية التي أعقبت قمة كوبنهاغن: ماذا يقول عنها علماء المناخ؟



Reuters



Reuters

مرجَّح، مؤكَّد، وحتمي

أمام هذا النقاش والذي غدا شـبه محسـوم لصـالح فريق دون آخر، هناك أمر مؤكد، وهو أن زيادة الانبعاثات الغازية هي في الأساس ظاهرة غير مستحبة سواء أكانت في البيئة الطبيعيـة أم في المجتمع المدني الإنسـاني، وذلك قبل أن توجه إليها أصـابع الاتهام في مسـألة الاحتباس الحراري. ومـا من شـك فـي أن العمل علـى خفضـها والتخفيف من آثارها كلها أمور مرغوبة على المدى البعيد.

لكن، حتى وإن كان يرجَّح أنها المسؤولة عن هذه الظاهرة، فإن الإنسـانية تجد نفسـها عاجزة عن خفضـها بالسرعة المرجوة؛ لأنها في الحقيقة تمثل الشـكل الأساسـي للعيش الإنساني بمختلف أوجهه. فمن ناحية، ما زالت الأبحاث في



تنسيق الجهود العالمية للمرة الخامسة عشرة

مجالات الطاقة البديلة، سواء أكانت الشمسية أو الهوائية أو غيرها، في حالة تكاد تكون أشبه بالمراوحة لبطء تقدمها. وعندما تنصب عليها الجهود لتطويرها، تُكتشف نواقص وثغرات أو تكاليف مرتفعة تجعلها محبطة للآمال.

لكن حتى فيما هو أبعد من موضوع الطاقة والوقود، الذي يبدأ بكثرة المصانع وينتهي عند المرأة العجوز التي توقد النار تحت إناء الغسيل أو الطعام، فإن مجمل الحياة البشرية «الحية» يشكِّل مصدراً للانبعاث الحراري، بدءاً بحركة الإنسان الفرد مروراً بأساليب انتقاله وانتهاءً بالمباني نفسها التي يقطنها أو يعمل فيها. وتظهر دراسات مختلفة مثلاً أن الأبنية الحكومية الكبيرة يصدر عنها انبعاثات غازية لا يستهان بها.

وقد ورد في دراسة أن 28 ألف مبنى مملوكة للدولة في المملكة المتحدة، تبث ما يقارب 14 مليون طن من ثاني أكسيد الكربون في السنة. وهي نسبة تفوق بكثير ما كان مقدَّراً في الماضي. ولذلك فإن وضع مقاييس وشروط على المباني الجديدة له دور جدِّي في تخفيض مثل هذه الانبعاثات.

البحث عن حلول واقعية

وبين الذين يتبنَّون الرأي بأن احترار الأرض من صنع الإنسان، هناك فروقات واسعة في إحصاء نتائج آثار الاحترار والمدد الزمنية المتوقع فيها. ومن بين هؤلاء من يرفع الصوت منادياً بالسير في سبل تؤدي إلى حلول نتائجها أخف وطأة على المجتمع الاقتصادي الإنساني وأكثر واقعية.

ومن أبرز هذه المجموعات من علماء البيئة من يطالب بتفعيل العوامل التي تزيد من الامتصاص الطبيعي للغازات المنبعثة. فهناك مقابل المصانع التي تنبعث منها الغازات، مصانع طبيعية تمتص ثاني أكسيد الكربون وغيره، تبدأ بالغابات وتصل إلى أسطح مياه البحار والمحيطات. وهذه «المصانع» الرفيقة بالبيئة، يمكن زيادة فاعليتها، وبالتالي خفض معدلات الاحتباس الحراري.

فمن المعروف أن الغابات والمحيطات والبحار تمتص حوالي 60% من مجموع انبعاثات ثاني أكسيد الكربون الناتجة عن أوجه النشاط المختلفة لبني البشر، مما أسهم في إبقاء ظاهرة الاحتباس الحراري طوال القرن الماضي ضمن حدوده. علماً بأنه ليس هناك من وسائل تستطيع إحصاء كمية ما تستوعبه النباتات والأتربة والبحار بدقة، ولكن هذه الكميات قابلة للزيادة بطبيعة الحال، كما تمتص أسطح البحار والمحيطات ثاني أكسيد الكربون من الجو لأنه قابل للذوبان فيها تلقائياً. وقد نجحت دراسات جديدة في إحصاء شبه دقيق لكمية هذا الغاز التي يمتصها سطح المحيط. وبكون كمية الانبعاثات الصادرة عن المصانع معروفة، فإن هذا يساعد في تحديد الكمية التي تمتصها النباتات حتى درجة معقولة من الدقة.

إن توافر مثل هذه المعلومات، بما يمكن أن تؤدي إليه من معرفة مآل الانبعاثات المستمرة لثاني أكسيد الكربون، يمكنه -أسوة بأبحاث علمية أخرى باتجاهات أخرى- أن يلعب دوراً حيوياً في إيجاد سبل لزيادة عملية امتصاص هذه الغازات بشكل أكثر فاعلية وأقل كلفة على المجتمع الإنساني.

الاحتماء في ظل الشجرة

وتميل أوساط كثيرة إلى اعتبار الحرص على الغابات وحمايتها وزيادة رقعتها من أهم نتائج مؤتمر كوبنهاغن الأخير. ويعتقدون أن الفرقاء المتنازعين اتفقوا على الأقل

علـى هـذا الهدف. ورغـم أن بعض الحملات قـد تعتبر أن الزعمـاء قاموا من خلال الاتفاق «بالاحتماء بظل الشـجرة» ممـا يتعرَّضـون له مـن انتقـادات. إلا أن الحقيقـة تقول إن الاهتمـام بالغابات ومـا يطلق عليه اسـم «البئـر الكربوني» يمكـن أن يلعـب دوراً حاسـماً فـي التخفيـف مـن ظاهـرة الاحتباس الحراري. فالجماعـات «الصـديقة للغابة» تقول إن قطـع أشـجار الغابات مسـؤول عـن 20% مـن انبعاثات الاحتباس الحراري، وبالتالي فإن وقف هذا هو سـبيل فعَّال وغيـر مكلِّف للحد من الظاهرة. ولذلك رصـد لهذا الهدف، ألا وهو وقف اسـتنزاف الغابات، مبلغاً كبيراً يتم صـرفه من الآن وحتـى عـام 2015م. ومن جهـة أخرى فقد نجحت الجماعـات البيئية بالتأثير على الشـركات المسـتغلة للغابات فـي الحد من هذا الاسـتنزاف. وبشكل عام أدت الحملات المتتالية لحماية الغابات إلى أثر ملموس في هذا الاتجاه الحيوي.

الاحتباس الحراري قضية تحتاج إلى التفكير بطريقة العصف الذهني بدل العصف الأخلاقي وحلول مستقاة من واقع الحياة الاجتماعية

وبينمـا يحتدم النقاش بين الـدول وكبرى الشـركات وحـركات حمايـة البيئة وتشـتد الخلافات، تقوم مؤسسات تجارية وصناعية متفاوتـة الحجم بمبادرات خاصـة للحد مـن الانبعاثات في محالهـا وورشـها، وذلـك من خـلال برامج خاصـة تراقب اسـتهلاك الطاقـة الكهربائية والتكييـف والتدفئة وغيرها. وهـي تعتمد فـي ذلك علـى مطـوري برامج رقمية تسـاعد فـي تنظيم هذا الاسـتهلاك والحد منه وحصـره في أوقات الحاجة الحقيقية إليه. كما أن كثيراً من الشـركات كانت قد بدأت منذ سـنوات بعيدة بمراقبة اسـتهلاك الطاقة بهدف التوفير. ولكن هذا المنحى ترسـخ وازداد فاعلية مع انتشار المطالبة بخفض الانبعاث الناتج عنه. واليوم أصبح التواؤم مـع التوجهـات البيئية جـزءاً لا يتجـزأ من مظهر الشـركة الاجتماعي، فتضعه على منتجاتها وتتباهى به في مطبوعاتها الإعلانيـة. وهذه الظاهرة أخذت تنتشـر حتـى بين الأفراد الـذي جعلوا من حماية البيئة وتخفيف الاسـتهلاك الباعث لثاني أكسـيد الكربون نمطاً معيشـياً ونوعاً من الانتماء إلى الحياة المعاصرة وقيمها «النظيفة».

وهنـاك عائـلات في بلدان تقـوم بحملات فاعلـة للحد من الانبعاثات، خاصة بسبب الضرائب على الوقود وارتفاع سعر الكهرباء، تلجأ إلى تغيير نمط حياتها بأشكال مختلفة، منها تقليل النزهات بالسيارة، وسحب جميع قوابس الكهرباء من توصيلاتها في الليل قبل النوم، ماعدا الثلاجة!.

المسـألة تحتاج إلـى مزيد مـن التفكير بطريقة العصـف الذهني بدل العصـف الأخلاقي. وتحتاج إلى حلول مستقاة من دراسـة جزئيـات واقع المجتمـع الإنسـاني وليس فقط عناوينـه الكبيرة. ومنهـا ما يبدأ بمعطيـات حياتنا الأولى: مـاذا نـزرع، وكيف نأكل، وكيـف نتحرك، ونـوزع الحرارة، وكيف ننقل أنفسنا وحاجياتنا، وكيف نبني بيوتنا وأحياءنا. ربما في كل تفصيل من هذا حل صغير إذا تحقق ونُفِّذ يؤدي بمجموعه إلى نتيجة تفوق كل الأرقام العالية التي ينادي بها المنادون.

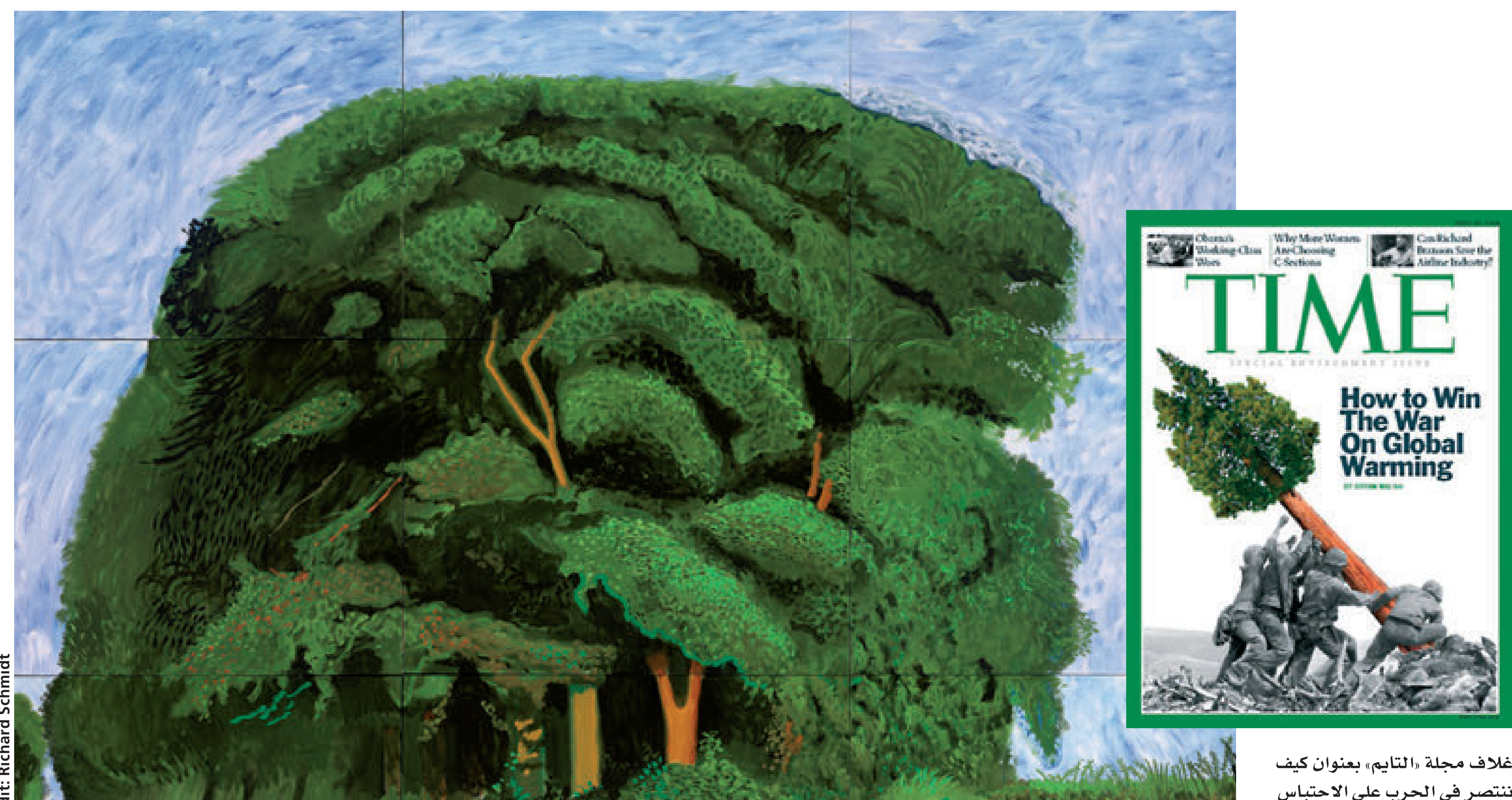
أهمية البحث العلمي

على صـعيد آخر، تهمل النقاشات المحتدمة قضية أساسية هي قضيـة صـرف مزيد من الجهـد والمال علـى البحوث العلميـة. من هذه البحوث ما يتجـه إلى ابتكارات في مجال



Reuters

النشاط الصناعي، هل هو المسؤول؟ وإذا كان كذلك هل هو وحده في ذلك؟



David Hockney, photo credit: Richard Schmidt

غلاف مجلة «التايم» بعنوان كيف ننتصر في الحرب على الاحتباس الحراري. مبيناً أهمية الاهتمام بالشجر.

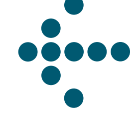
الطاقة النظيفة وتحسين احتراق المشتقات النفطية، ومنها أيضاً ما يساعد على ابتكار وسائل تكنولوجية متقدِّمة تخفِّف من حجم الانبعاث لنفس كمية الاستهلاك. أو تحقق نجاحات في أفكار مثل تكثيف الغازات المنبعثة وإيجاد سبل لإتلافها أو طمرها من دون أن تحدث ضرراً بيئياً فعلياً، وهذا ما هو معروف بـ «استخلاص الكربون» (Carbon Capture)، رغم أنها عملية مرتفعة الكلفة إذا ما قورنت بحماية الغابات بل وزيادة رقعتها. وكذلك فإن زيادة فاعلية استخدام الطاقة الشمسية والهوائية يعتمد على أبحاث علمية متقدِّمة في مجالات مثل مواقع استخدامها والقدرة على تخزين الطاقة وغيرها.

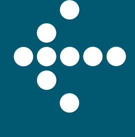
إن كل هذه الحلول تحتاج إلى دراسات ومهندسين ومطوري برامج، ومعهم أصحاب رأي ومواطنين عاديين يعملون معاً لوضع استراتيجيات متنوعة لتحقيق الهدف المطلوب، بدل النقاشات المحتدمة بين الساسة في مؤتمرات مسلَّطة عليها الأضواء ومحاطة بحملات من التهويل.

ماذا لو أن الكرة ليست في ملعبنا!

إذا كان العلم نفسه لا يقر بحقائق نهائية، ويقول إن كل قانون قابل لإعادة النظر، فلا شك أن علم المناخ مازال يحتاج إلى الكثير من الوسائل التي توفِّر له القدرة على التنبؤ بالمستقبل بشكل حاسم. ونحن إن سلَّمنا جدلاً بأن انبعاثات ثاني أكسيد الكربون وغيره من الغازات هي المسؤولة عن الاحتباس الحراري، وأن هذا الاحتباس الحراري هو المسؤول عن ارتفاع سخونة الأرض، وأنه لابد أن تأخذ الإنسانية الخطوات الفعَّالة للحد من الاثنين حماية للحياة على الكرة الأرضية، فيجب علينا ألاَّ نغفل حقيقة أعم وأشمل، وهي أن مصير المناخ على سطح الكرة الأرضية ليس -في نهاية المطاف- في يدنا، على الأقل ليس بالشكل التي توحي بها الحركات البيئية.

فما من شك بأنه حتى لو ثبت أن ظاهرة الاحتباس الحراري لا تعود إلى غازات الدفيئة، يبقى أن العمل على الحد من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بما يؤدي إليه من بيئة أقل تلوثاً هو جهد إيجابي على المدى البعيد. وإذا ثبت أن هذه الظاهرة هي عرضية فهي نتيجة إيجابية. أما إذا كان المناخ على وجه الكرة الأرضية مهدد بارتفاع في درجات حرارته من عوامل خارجة عن يد بني البشر، عندها نحتاج إلى استعداد من نوع آخر.





المبادرات والمؤتمرات العالمية المتعلقة بتغيّر المناخ

يعود الاهتمام بظاهرة الاحتباس الحراري إلى القرن التاسع عشر، عندما اكتشف عالم الرياضيات والفيزياء الفرنسي جان بابتيست جوزيف فورييه الاحتباس الحراري وحلله في العام 1824م. لكن هذه الظاهرة ظلت بمنأى عن أي تناول جدي، إلى أن تلمَس العلماء حجم التهديد الناجم عنها والآثار البيئية التي قد تلحق بكوكب الأرض من جرَّائها، فبدأ الاهتمام بها علمياً في أواخر خمسينيات القرن الماضي. ثم تضافرت الجهود العالمية لبحث مخاطر الاحتباس الحراري والاستراتيجيات التي يمكن إقرارها في سبيل كبح جماحها منذ أواخر ستينيات القرن الماضي، وذلك ضمن محاولات دولية شبه موحدة لهذه الغاية.

وفيما يلي نظرة إلى أبرز المبادرات والمؤتمرات العالمية التي تعاطت مع الاحتباس الحراري وتغيرات المناخ:

1968: مؤتمر الغلاف الحيوي

عقد في العاصمة الفرنسية باريس «المؤتمر الدولي لترشيد استغلال الغلاف الحيوي وحمايته»، وذلك تحت رعاية منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو». وشهد المؤتمر أولى المناقشات الخاصة بمفهوم التنمية المستدامة بيئياً.

1971: مبدأ «الملوِّث يتحمّل الكلفة»

أقر مجلس دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD في اجتماع له احتضنته العاصمة النرويجية أوسلو مبدأ «الملوِّث يتحمّل الكلفة»، حيث ينص على أنّه يتعيّن على البلدان المسببة للتلوث أن تدفع تكاليف التلوّث.

1972: مؤتمر حول البيئة البشرية

شهد هذا المؤتمر الذي عقد في ستوكهولم بالسويد، أول اعتراف عالمي بأن البيئة معرضة للخطر؛ فقد أقرّتْ الدول المتقدمة أنّها تجاهلت تماماً التأثير على البيئة أثناء تطورها المتسارع. منذ ذلك الحين، ومع تأسيس برنامج الأمم المتحدة للبيئة، تعهدتْ جميع البلدان تقريباً بالبدء بمراقبة نوعيّة الهواء والمياه لديها، وغيرها من مكونات العالم الطبيعي. لتشكّل هذه كلها أساساً لعقد قمة الأرض في ريو دي جانيرو عام 1992م.

1979: «اتفاقية الحد من التلوث الجوي بعيد المدى عبر الحدود»

وافقت 34 حكومة إلى جانب المفوضية الأوروبية في مؤتمر عقد في جنيف، بسويسرا، آنذاك على الاتفاقية، لتشكل بذلك أوّل صك غير ملزم قانونياً للتعامل مع مشكلات التلوث الجوي على أساس إقليمي واسع النطاق.

1979: الاحتباس الحراري

توصل مؤتمر المناخ العالمي، الذي عُقد في جنيف، بسويسرا، برعاية منظمة الأرصاد الجوية العالمية (WMO)، إلى أن «الاحتباس الحراري» من جرّاء زيادة تراكم غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي يتطلب عملاً دولياً ملحاً.

1988: اللجنة الدولية للتغيرات المناخية (IPCC)

تشكلت هذه اللجنة على يد الأمم المتحدة ومنظمة الأرصاد الجوية العالمية (WMO) بهدف تقييم المسائل الفنية التي أُثيرت في النقاشات الدائرة حول التغير المناخي، بحيث يكون صانعو السياسات مسلّحين بالحقائق التي توافرت لديهم من خلال الجهد العلمي الجماعي. ويتمثل دور اللجنة الدولية للتغيرات المناخية في تقييم المعلومات العلمية والفنية والاجتماعية والاقتصادية ذات الصلة في فهم الأساس العلمي لمخاطر تغير المناخ بفعل الإنسان، وتأثيراته المحتملة وخيارات التكيف معها، وذلك على أساس شامل، وموضوعي. وتتألف اللجنة من نحو 140 دولة للنظر في العلم المعروف حالياً والمتعلق بالتغير المناخي، حيث تقوم بإصدار ونشر تقارير، تقدِّم للحكومات ملخصاً عنها يضم المعرفة والحقائق اللازمة كأرضية ومنطلق للنقاش. أما التقارير التحليلية (تقييم كلّ البحوث العلمية الموثوقة المتعلقة بالتغير المناخي) فيعدها أكثر من 600 باحث تم تفويضهم بصورة جماعية من الدول الأعضاء المائة والأربعين.

1992: قمة الأرض - مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية

لم يدُر مؤتمر «قمة الأرض»، الذي عُقد بمدينة ريو دي جانيرو البرازيلية، حول البيئة ذاتها وإنما حول الاقتصاد العالمي وآثاره على البيئة العالمية. ولقد جاءت الدول المتقدمة إلى ريو دي جانيرو بهدف إيجاد حلول لقضايا المناخ والغابات والأنواع المهددة بالانقراض، غير أن هذا لم يحدث. هذه المرة، كان الجنوب (الدول النامية) في وضع مكّنها من المطالبة بأنه إذا كانت دول الشمال (الدول المتقدمة) تريد منها (أي دول الجنوب) أن تخفض من استهلاكها من النفط والفحم وتوقف اجتثاث الغابات فإن على دول الشمال دفع ثمن ذلك. ولقد شهدت «قمة الأرض» تدشين ما عرف بـ«أجندة 21»، أي جدول أعمال القرن الحادي والعشرين، حيث وُضعت الأجندة لتكون بمثابة مخطط أول



للعمل في كافة المجالات التي يؤثر فيها البشر على البيئة. وتبنت 179 دولة «جدول أعمال القرن الحادي والعشرين» بهدف توزيعه على كافة المستويات الحكومية المناسبة.

1992: اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية المتعلقة بتغير المناخ (UNFCCC)

تُشكّل هذه الاتفاقية، التي تم التوقيع عليها في ريو دي جانيرو، محور الجهود الدولية لمكافحة ظاهرة الاحتباس الحراري. وتم تبنّيها في شهر مايو عام 1992م خلال قمة الأرض في ريو، ودخلتْ حيّز التطبيق في 21 مارس عام 1994م. وتهدف الاتفاقية إلى تحقيق الاستقرار في تركيز غازات الدفيئة في الغلاف الجوي عند مستوى يحول دون التدخل البشري الخطير في النظام المناخي. وينبغي أن يتحقق هذا الأمر في غضون فترة زمنية كافية تتيح للنظم البيئية (الإيكولوجية) أن تتكيف بصورة طبيعية مع التغير المناخي، لضمان ألا يكون الإنتاج الغذائي مهدداً، وتمكين التنمية الاقتصادية المستدامة.

1995: المؤتمر الأول للأطراف لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ (COP1)

أسفر هذا المؤتمر، الذي عقد في برلين بألمانيا، عن «توصية برلين»، ووافقت الدول المشاركة فيه على خفض انبعاثات غازات الدفيئة في جميع أنحاء العالم. وصادقت أكثر من 170 دولة على الاتفاقية، كما التزم المؤتمر بمواصلة الاجتماع على أساس سنوي.

1997: كيوتو (COP3)

حضر هذا المؤتمر الذي عُقد بمدينة كيوتو اليابانية 159 دولة، وتمخض عنه ما بات يعرف لاحقاً بـ«بروتوكول كيوتو»، حيث وافقت 38 دولة متقدمة على تخفيض انبعاثاتها من غازات الدفيئة الستة الرئيسية (وهي: بخار الماء، وثاني أكسيد الكربون، والميثان، وأكسيد النيتروس، والأوزون، والكلوروفلوروكربون). كذلك وافقت الدول المتقدمة وبصورة جماعية، على خفض انبعاثاتها بنسبة 5% على الأقل دون مستويات عام 1990م بحلول 2012م. أما الدول السائرة على طريق التصنيع ذات الموارد المحدودة، فلم تحدد أهدافاً ملزمة (من بينها الصين والهند)، غير أنه تُرك لها الخيار لتحديد أهداف الخفض الطوعي. كما وضع بروتوكول كيوتو أسس الاتجار في الانبعاثات، والتنفيذ المشترك، وآليات التنمية النظيفة لتشجيع التعاون في مشاريع الحد من الانبعاثات بين البلدان المتقدمة والنامية. وبعد مفاوضات صعبة ومحتدمة، بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية تحديداً، تم تبني بروتوكول كيوتو، وبحلول نوفمبر (تشرين الثاني) عام 2009م، صادقت على البروتوكول 187 دولة.

2001: مراكش، المملكة المغربية (COP7)

تم الاتفاق على سلسلة من القرارات سميت «توافق مراكش» التي مهّدت للمصادقة على بروتوكول كيوتو ودخوله حيِّز التنفيذ في فبراير 2005م.

2002: قمة جوهانسبورج

بعد سنوات عشر على «قمة الأرض» التي استضافتها ريو دي جانيرو عام 1992م، عقدت الأمم المتحدة مؤتمر القمة العالمي للتنمية المستدامة (WSSD) في جوهانسبورغ، بجنوب إفريقيا لتقييم الوضع العالمي والتقدم الذي تم إحرازه في تطبيق الاتفاقات الدولية التي تمَ تبنّيها في ريو دي جانيرو عام 1992م وفي مؤتمر ستوكهولم عام 1972م.

2002 – 2003: دلهي (COP8) وميلان (COP9)

حاول الاتحاد الأوروبي من دون جدوى في مؤتمر الأطراف (COP8)، الذي عُقد في دلهي بالهند، دفع الوزراء من أجل الاتفاق على إعلان ضرورة وضع مزيد من المبادرات للحد من تغير المناخ.

2007: بالي (COP13)

جمع هذا المؤتمر أكثر من 10 آلاف مشارك، من بينهم ممثلون عن أكثر من 180 دولة بالاشتراك مع مراقبين من المنظمات غير الحكومية ووسائل الإعلام. وتوّجت أعمال المؤتمر باعتماد «خارطة طريق بالي»، التي رسمت المسار لعملية تفاوض جديدة على أن يتم التوصل إلى اتفاقية بشأنها في مؤتمر كوبنهاغن للتغير المناخي 2009م، بحيث تؤدي في نهاية المطاف إلى اتفاقية دولية حول تغير المناخ لما بعد العام 2012م.

2009: كوبنهاغن (COP15)

عقد مؤتمر كوبنهاغن للتغيرات المناخية أو «قمة كوبنهاغن» في العاصمة الدنماركية كوبنهاغن في الفترة بين 7 إلى 18 ديسمبر 2009م، حيث ضم المؤتمر الجلسة الخامسة عشرة لمؤتمر الأطراف لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ (COP15) والاجتماع الخامس للأطراف لبروتوكول كيوتو، بغية التوصل إلى إطار عمل نافذ للحد من التغير المناخي، بحسب بنود خارطة طريق بالي. ولقد خلص مؤتمر كوبنهاغن إلى ما يعرف بـ«اتفاقية كوبنهاغن»، التي صاغتها الولايات المتحدة والصين والهند والبرازيل وجنوب إفريقيا، (علماً بأن الولايات المتحدة والصين أكبر دولتين منتجتين لغازات الدفيئة)، حيث لم يتم تبنّي الاتفاقية وإقرارها بصورة ملزمة قانونياً، وإنما اتفق على «العلْم بها» الأمر الذي جعل العديد من الدول والمؤسسات البيئية تعلن «فشل» قمة كوبنهاغن فعلياً!

Reuters

قول في مقال

بين قراءة الرواية وقراءة الواقع

لم تشهد الرواية في تاريخها تعدداً في وجهات النظر حول دورها كما هو حالها اليوم، بحيث باتت تتقاذفها النظريات المختلفة والمتناقضة التي تحاول أن تؤطر العمل المطلوب من الكاتب ونمط القراءة ومستوى التفاعل معها، خاصة على مستوى علاقتها بالواقع.

محمد ديريه* يعيد التطلع إلى أساس هذا الفن الأدبي وخصوصياته (تأليفاً وقراءة) انطلاقاً من الدور الذي لعبته قراءة الروايات في صياغة مسيرة الرئيس الأمريكي باراك أوباما على سبيل المثال.

في لقاء مع مجلة النيوز ويك الأمريكية في أواخر مارس 2008م، تحدث الرئيس الأمريكي باراك أوباما عن رؤيته ومذكراته، واستعرض لمحات من سيرته الشخصية، وكان من اللافت حديثه عن كتابه: «أحلام من والدي»، الذي سرد فيه شيئاً من مشاهداته وقراءاته للواقع من حوله، في أسلوب قصصي بارع، قد يكون هذا مفاجئاً لمن لا يعرف أوباما إلا رئيساً ، ولكن أصدقاءه ومعارفه المقربين منه يتوقعون له أن يكون كاتباً روائياً في مستقبله!

لم يكن باراك أوباما قارئاً عادياً للروايات. لذا جاءت قصته مختلفةً بشكل كبير عن باقي قصص الكفاح في التاريخ العالمي.. يعترف أوباما بأنه عانى كثيراً في فهم جذور هويته الإفريقية وواقعه التاريخي، وبالتالي في فهم نفسه خصوصاً مع غياب والده الذي لم يقابله سوى مرةً واحدة عندما كان في العاشرة من عمره.. لذا يقول بكل صراحة إن غياب والده علّمه أهمية الروايات، وهذه القصص ساعدته على فهم هويته. فالروايات جعلت الجوانب الأكثر غموضاً من الحياة مفهومة بالنسبة إليه، أو على الأقل منحته الثقة ليكون قادراً على أن يكتب قصة حياته بطريقته وبالتالي يصبح مسيطراً على الرواية وليس ضحيةً لها.

واعتماداً على المقولة الشهيرة «إن من يقرأ كثيراً.. هو بالضرورة كاتب جيد»، فقد كتب أوباما مذكرات تفصيلية في نيويورك، وقد تبين فيما بعد أنها مفيدة، يقول: «كتابة المذكرات خلال هاتين السنتين لم تزودني فقط بمواد أستعملها في كتابي، بل علمتني أيضاً طريقة صياغة الجمل لتكون مؤثرة».

وربما تكون هذه العوامل: القراءة، والكتابة، والقدرة على الحلم بطريقته الخاصة، وحتى الاندماج مع البيئة المحلية باستلهام ذاكرة قارة كاملة عن طريق القراءة، هي التي جعلت باراك أوباما مديناً لقراءة الروايات وكتابة المذكرات فيما بعد.. فقد ساعدته على تشكل حلمه بطريقة عجيبة ليصبح أول رئيس أمريكي غير أبيض. ومن يدري فربما كانت كل ورقة تصويت بيد كل ناخب أمريكي هي ورقةٌ في فصل من فصول رواية أوباما الحقيقية!

إن الرواية لم تعد هدفاً للتسلية، أو قضاء وقت ممتع، بل أصبحت عملاً فكرياً وفنياً يتطلب جهداً خاصاً من الكاتب، ومن ثم جهداً متميزاً من القارئ، الذي أصبح لزاماً عليه أن يقرأ وهو يفكر، وأن يتأنى في قراءته حتى يتمكن من متابعة الصورة التي يرسمها الكاتب للشخصية والتي تتميز بفردية لم يسبق لها نظير.

* طبيب وكاتب صومالي مقيم في الخبر

مرونة الرواية

فمن المعروف أن هذا الفن الأدبي (الرواية) فنٌ حديث نسْبياً، لم يَمْض على استوائه على سوقه، ناضجاً، أكثر من ثلاثة قرون في العالم الغربي، ولا أكثر من قرن ونصف قرن في عالمنا العربي. بَيْدَ أن هذا الجنس الأدبي قادر على الهضم والتمثل والإفادة من فنون أخرى. وقد وصفه نجيب محفوظ بالفن الذي يُوَفّق ما بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنينه الدائم إلى الخيال.. وما بين غنى الحقيقة وجموح الخيال، اجتهدت الرواية في أن تحتوي صفات الأجناس الأدبية الأخرى، وأن تفيد من فنون مختلفة غير الأدب، فالرواية الأمريكية مثلاً تتبادل مع السينما طرقاً مختلفة، والرواية الجديدة في أوروبا تقتبس من الموسيقى طرقاً في التأليف. وبعض الروايات المعاصرة يفيد من تقنيات المسرح، ومن مزايا القصة القصيرة وشؤونها، ومن وهج الشعر ولغته المشحونة وصوره المثيرة ومجازاته الرائعة.

وتستطيع الرواية أن تهضم وتستثمر عناصر متنافرة كالوثائق، والمذكرات، والأساطير، والوقائع التاريخية، والتأملات الفلسفية، والتعاليم الأخلاقية، والخيال العلمي، والإرث الأدبي والديني بكل أنواعه، حتى لتكاد تبدو جنساً بلا حدود، إنها كما يرى د. جابر عصفور الجنس القادر على التقاط الأنغام المتباعدة والمتنافرة والمتغايرة الخواص لإيقاع عصرنا (زمن الرواية، لعصفور، ص 53)، لذا صارت حسب عبارة علي الراعي «ديوان العرب المحدثين».

إنّ الأحداث التي تشكل الحبكة في الرواية أحداث تشاكل الواقع الموضوعي، ولكنها لا تطابقه، فهي تنقاد بخيوط خفية، لتنتهي نهاية غير اعتباطية، ولتقدّم وجهة نظر، أو رؤية، أو معنىً. وقلّما يدخل في القصة حدث ناشز، أو يُحْشَر فيها حشراً عشوائياً موقف لا وظيفة له... إن الكاتب الجيد -كما يقول إدغار آلان بو- «هو من يضع نصب عينيه السطر الأخير عندما يكتب السطر الأول».

ولما كانت الأحداث مرهونة بوجود شخصيات تفعلها، أو تنفعل بها، أولى النقد الروائي اهتماماً كبيراً بالشخصية الروائية، والشخصيات الروائية لا تبدو كائنات خيالية لا حياة فيها، بل هي كما يقول عنها حنا مينه «حيّة تماماً بالنسبة للقُرّاء، وهي أكثر حياة بالنسبة للمبدعين» - (هواجس في التجربة الروائية ص 111).

بين الخيال والواقع

وإذا كان الخيال الخلاّق هو الرحم الذي تنبثق منه الشخصيات الروائية، فإن الواقع الموضوعي، والحياة الاجتماعية، هما اللذان تنتهي إليهما تلك الشخصيات، فكما أن الخيال عقيم من دون صلة له بالواقع، فإن الفكر الفني كله من دون خيال عقيم أيضاً.. وعليه فالمتخيّل السردي يوازي، غالباً واقعاً اجتماعياً موضوعياً، ويحيل إليه، كما يشير المحمول إلى الحامل، ويحيل إليه.

وإذ يبعث الروائيون حياة في أبطالهم يفاجأون أحياناً، بأن هؤلاء قد يفلتون من أيديهم، ويحيون ظروفاً أخرى، ويشقّون دروباً لم تمهّد لهم، وقد ينطقون بما لا يهواه مبتكروهم.. ورغم ذلك، فإنّ إشكالهم قائم ودائم، إذ لا مناص من أن ينظر النقاد إليهم على أنهم نماذج تجسّد فكرة، وتُعبِّر عن موقف.

وكما تحيا الشخصيات في الروايات، فهي تموت. وفي موت الأبطال في الرواية دلالات كثيرة، حتى إن الموت ذاته قد يتخذ أشكالاً ويصبح إشْكالاً.

إن الانفتاح اللانهائي على الواقع هو الذي يجعل الرواية تتمتع بحرية الحركة والتعبير أكثر من أي جنس أدبي، ويبعدها عن التأطير ويهيئ فرصة وجود التميز والاختلاف في كل رواية. وربما هذا ما دعا فورستر أن يقول إنه لو اجتمع عدد من الكتّاب حول طاولة مستديرة مثل تلك الطاولة المشهورة في مكتبة المتحف البريطاني، وطلب منهم كتابة رواية عن موضوع موحد لخرج الجميع كل برواية مختلفة. وربما هذا أيضاً ما دعا فيرجينيا وولف أن تنادي في عهد الحداثة أن أي موضوع يصلح أن يكون مادة الرواية، ولا داعي أبداً أن تتكون مادة الرواية من تلك الموضوعات التي اتخذتها الرواية التقليدية مادة لها مثل الحب، والزواج، والثروة، والملهاة، والمأساة، وغير ذلك من الموضوعات المتكررة التي طرقتها رواية العصر الفكتوري. وتهدف فيرجينيا وولف إلى القول إن الرواية لا تمتلك بل لا تستطيع أن تزعم لنفسها القدرة على تقديم صورة كاملة أو حتى شبه كاملة عن الواقع رغم أنها أقرب الأجناس الأدبية إلى الواقع المعاش وأقدرها على التعبير عنه.

أصبح الروائي في القرن العشرين ينظر إلى الرواية على أنها شكل مفتوح، ولكن من دون الادعاء أن لديه القدرة على تقديم صورة نمائية أو متكاملة لواقع اللاحدود. وهذا خلاف الاعتقاد الذي ساد القرن التاسع عشر وهو أن الرواية كانت سبيلاً للسيطرة على الواقع.

بينما في القرن الحادي والعشرين.. نجح القارئ الذكي في التعامل مع الرواية بما يتناسب مع واقعه ليصبح رئيساً لأكبر دول العالم.. متكئاً على روايات مختلفة.. كتب من خلالها روايته المفرطة في الواقعية.. كقارئ جيد. 



مهنة نخبوية تاريخياً..

السكرتارية..
البقاء للأصلح تكنولوجياً

Magnum Photos



على مدى التاريخ القريب جداً، بدت مهنة السكرتارية الأكثر تأثراً بالتكنولوجيا في إطار ما يُعرف بالثورة المعلوماتية، التي اجتاحت رياحها «أخضر» مهن عديدة و«يابسها»؛ ذلك أنه إذ بدا أن هذه الثورة تعزِّز كفاءات مهن كالطب والهندسة، تملأ النواقص، وتدحض اجتهادات في غير محلها -خاصة في المجال البحثي- فإنها بالمقابل صُوِّرت على أنها تهديد كبير لوظيفة «السكرتير» أو «السكرتيرة»، ينذر بإقصائها وإلغائها من سوق العمل، ذلك أن الأجهزة الإلكترونية أو الذكية قادرة على القيام بمهمات السكرتارية.. وربما أفضل من العنصر البشري! فهل يكون عهد السكرتارية في طريقه إلى الأفول؟

فريق التحرير يسعى إلى الإجابة عن هذا السؤال، من خلال تفحص كافة احتياجات العمل الإداري، ومن مختلف الأوجه، وحقيقة ما طرأ عليها من تغيرات بفعل التكنولوجيا.

لعلّ توصيف «السكرتير» أو «السكرتيرة» قد أُسيء استخدامه في المنطلق. إذ كان -ولا يزال إلى حدّ كبير- يُنظر إلى أعمال السكرتارية باعتبارها مهنة متاحة للأقل حظاً، للأقل خبرة، وللأقل تأهيلاً علمياً. بل إننا نرى في بعض المؤسسات الحكومية المترهلة أن قسم السكرتارية هو ذاك الذي يُقذف إليه بـ «العمالة» الفائضة في شكل من أشكال البطالة المقنعة.

أما في القطاع الخاص، الذي يُفترض فيه أن يكون قائماً على مبدأ الإنتاج والاستغلال -حد الاستنزاف- للأيدي العاملة، فإن السكرتارية ببساطة هي القسم الذي «يرد على الهاتف»، و«يحوِّل المكالمات» من وإلى المدير، إلى جانب أعمال ورقية ومكتبية روتينية لا تشكل تحدياً كبيراً، كما أنها لا تندرج في إطار العمل المبدع الخلاق.

الكمبيوتر المحمول.. مدَّد العمل السكرتاري إلى ما بعد الدوام

Corbis

قد يشرف عليه شخص، في الغالب امرأة، ذلك أن المهنة اقترنت -دون وجه حق بالنساء أكثر من الرجال- أو قد يكون عبارة عن طاقم من الموظفين الإداريين، وفي جميع الأحوال هم بمثابة «المنطقة العازلة» بين المدير وموظفيه من جهة، وبين المدير ومراجعيه «الخارجيين» من جهة أخرى.



Corbis

السكرتير في المكاتب الكبرى يصبح «مدير مكتب»

بداية، قد يصحّ القول هنا إن السكرتارية من المهن التاريخية التي بدأت كبيرة، مهمة، حيوية، وحساسة عُهد بها إلى رجالات «منذورين» لها ثقافياً واجتماعياً، وانتهت صغيرة ومتقزِّمة؛ حيث أُسيء استخدامها وأُسيء تمثيلها والتعبير عنها.

حافظ الأسرار

تنعكس حساسية المهنة وطبيعتها الأساسية في اسمها. فكلمة «secretary» إنجليزية، تم تطويعها أو ليّها عربياً إلى «سكرتير» أو «سكرتيرة»، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية «secernere» التي تعني «التمييز» أو «الفصل بين الأشياء» بغية الحفاظ عليها وعدم إفشائها، وهو ما يعني أنها سرية. وهكذا فإن الـ «secretarius» باللاتينية هو الـ «secretary» بالإنجليزية، أي السكرتير، وهي كلمة مشتقة من «secret»، أي السر. ما يكشف عن جوهر مهنة السكرتير بوصفه شخصاً موثوقاً، كتوماً، حافظاً للأسرار. وفي الزمن القديم، كان السكرتير هو شخص حيوي، مالك للمعلومات

التي تتعلق بالمتنفذين ورجالات الدولة، من ملوك وأشراف وقادة جيش، وبالتالي، كانت وظيفته أقرب ما تكون في حقيقة الأمر إلى الوظائف النخبوية.

منذ عصر النهضة وحتى أواخر القرن التاسع عشر، اقتصرت أعمال السكرتارية على الرجال، حيث كانوا أقرب إلى مساعدين أو مستشارين لرجال الدولة والتجار، يتولون عنهم كتابة الرسائل بما عرف عنهم من ملكة لغوية وتعبيرية استثنائية، علاوة على القيام ببعض الأعمال المحاسبية والقانونية -التي تستلزم معرفة رياضية لا تخلو من تبحّر- ومتابعة تفاصيل «إدارية»، مقدمين المشورة والنصح، متمتّعين بثقافة عامة، مطلعين على ما يُستجد من تطورات في الساحة الاقتصادية والسياسية لمساعدة أهل الحكم والمال في اتخاذ القرار. كما كانوا يجيدون عدة لغات من بينها اللاتينية، وهو ما أضفى على مهنة السكرتير -الذي يُشار له أيضاً بالكاتب- رقياً ورفعة مستوى، وجعله بمنأى عن المتطفلين على مهن ليست لهم. (يا لها من مفارقة أن تتراجع هذه المهنة في الوقت الراهن بحيث تخضع لتوصيف تنميطي في بعض الأحيان).

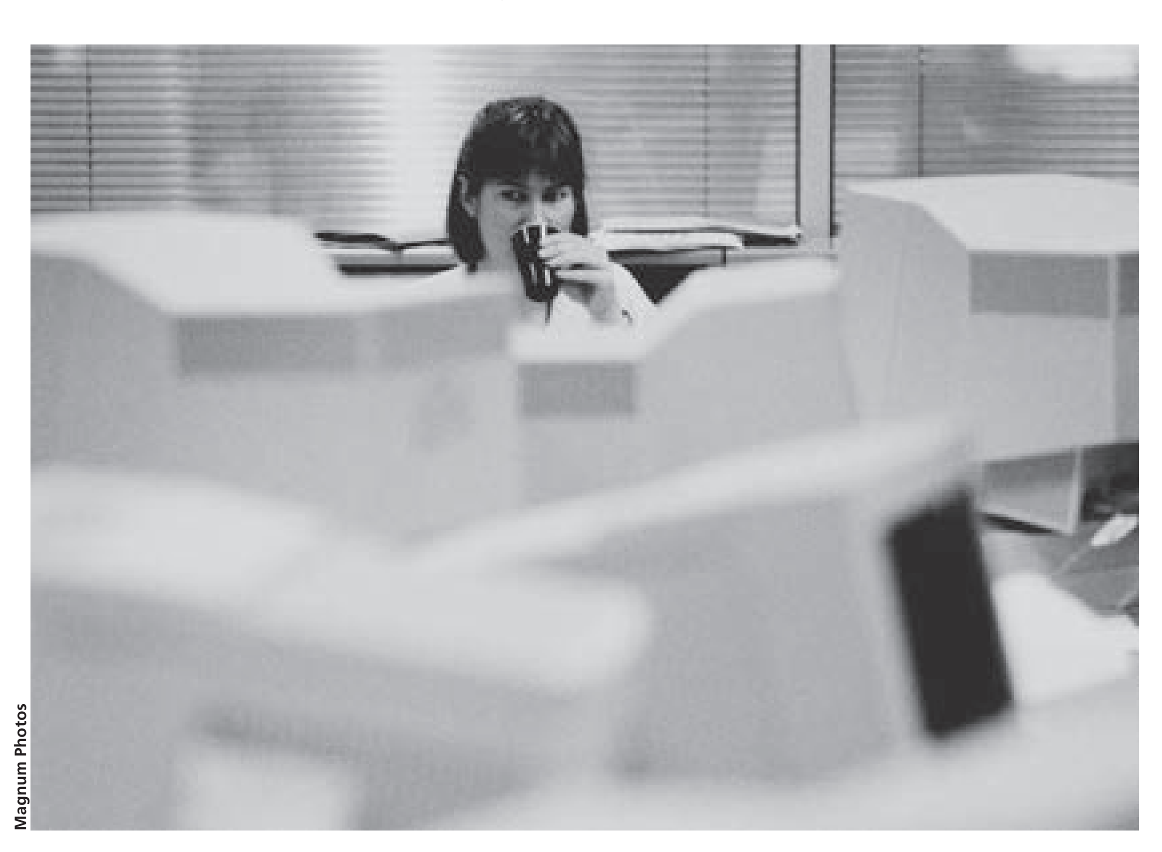
لم يعد الحد الأدنى من الشهادات العلمية كافياً، والشركات الكبرى صارت تطلب خريجين جامعيين لهذه الوظيفة

مع اختراع الآلة الكاتبة في ثمانينيات القرن التاسع عشر، بدأت مهنة السكرتارية تستقطب عدداً متزايداً من النساء، مع تراجع دور «السكرتير» من حيث جوهره النخبوي تاريخياً، والتحول فعلياً من الكتابة والاجتراح وإسداء المشورة إلى دور ناسخ، يتلقى الأوامر وينفذها من دون إبداء كبير رأي. وهو دور -للأسف- بدت المرأة أكثر استعداداً من الرجل للقيام به امتداداً لدورها في البيت والمجتمع بوصفها بعيدة تاريخياً عن دائرة صنع القرار.

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، التي اتخذت من ملايين الرجال في أوروبا وقوداً لها، باتت أعمال السكرتارية مقتصرة على النساء فقط. ومنذ ذلك التاريخ، انسحب الرجال من الوظيفة التي اكتسبت طابعاً «نسوياً»، كما انسحبت الوظيفة نفسها من توصيفها التاريخي المهم، لتتقزّم وتتحجّم.

مهنة مظلومة

مع الثورة المعلوماتية الجامحة التي شهدها العالم خلال العقود القليلة الماضية، بدءاً من الكمبيوتر والإنترنت وانتهاءً بكل ما يعرف بأنماط التكنولوجيا الذكية، أصبح العالم أقرب إلينا مما نتصور؛ على بعد نقرة: نقرة على لوحة مفاتيح الكمبيوتر؛ نقرة على أزرار الموبايل والبلاك بيري ونقرة على لوحة الأجندة الإلكترونية. والآلة الكاتبة التي كان ضجيجها يملأ فضاء المؤسسات لم يعد لها وجود. إذ تنهمر الأنامل الآن فوق لوحة الكمبيوتر كالهمس، صانعة على الشاشة كل الحروف



Magnum Photos

التكنولوجيا تزيد الأعباء.. والاستقامة تبقى حجر الأساس

مما لاشك فيه أن السهولة والسرعة التي يمكن بهما إنجاز الكثير من الأعمال المكتبية على جهاز الكمبيوتر، أدتا إلى زيادة المهمات الملقاة على عاتق السكرتارية، اعتقاداً من المديرين أن العاملين في هذا القسم باتوا يستطيعون تنفيذ عدد أكبر من المهمات في مدة زمنية معيَّنة.

فالبريد الإلكتروني مثلاً بات ينقل عدداً من الرسائل لم يكن هناك ما يقاربها في البريد التقليدي. كما أن سهولة الاتصال الهاتفي أدت إلى ارتفاع معدلات المكالمات إلى مستويات غير مسبوقة، ناهيك عن الرسائل الإعلانية الهاتفية والإلكترونية التي تتلف، ولكن بعد الاطلاع على محتواها.

وبسبب سهولة الاتصالات وتحويل الرسائل والرد عليها أينما كان السكرتير(ة) وأينما كان المدير، بات هذا الأخير يقضم بعضاً من وقت الاستراحة أو ما بعد الدوام للمسؤولين عن السكرتارية في مكتبه. فيرى أنه لا يشكِّل عبئاً ثقيلاً إذا طلب من السكرتير تنفيذ مهمة معيَّنة يستطيع تنفيذها خلال دقائق على هاتفه الجوال وهو في استراحة الغداء، أو من خلال كمبيوتره الشخصي في بيته.

وإن كانت السكرتارية هي أساساً وتاريخياً مهنة المساعدة التنفيذية و«حفظ السر»، فإن التكنولوجيا التي زادت من المهمات التنفيذية المساعدة، زادت في الوقت نفسه من الأسرار التي يتوجب حفظها. وهذا إذا أسقطنا من حساباتنا قدرة المهرة في استخدام التكنولوجيا في أقسام السكرتارية على الوصول إلى الأسرار التي أبقاها المديرون بعيداً عن متناولهم.

لهذا فإن الاستقامة، هذه القيمة التي قلَّما يشار إليها كإحدى الصفات اللازمة بالمطلق في أعمال السكرتارية، والتي طالما كانت كذلك، تزداد أهمية في عصر التكنولوجيا، خاصة في الشركات الكبرى.

فمن خلال محاضر الاجتماعات والرسائل والاتصالات الهاتفية المراقبة بإذن (أو من دون إذن) يمكن القول إن ما من سر يخفى على السكرتارية. ومعلوم أن لكل المؤسسات والشركات (وخاصة الكبرى) أسرارها الخاصة البالغة الأهمية بالنسبة لسير أعمالها. وفي كل دول العالم أجهزة وقوانين تعمل على منع «التجسس الاقتصادي» و«التجسس الصناعي»، أي نقل الأخبار والمعلومات السرية من مؤسسة إلى أخرى بحيث تستفيد منها الثانية على حساب الأولى.

والمذهل، أن السكرتارية، مستودع أسرار الشركات، هي وفق الإحصاءات المنشورة في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، الأقل عرضة للاتهام أو للإدانة في حوادث التسرب أو التجسس الاقتصادي التي كُشفت. الأمر الذي يؤكد مكانة الاستقامة والحرص عليها في هذا القلب الحيوي في كل مؤسسة اقتصادية ذات شأن.

«بيتي القبيحة» الرد التلفزيوني على الصورة النمطية للسكرتيرة

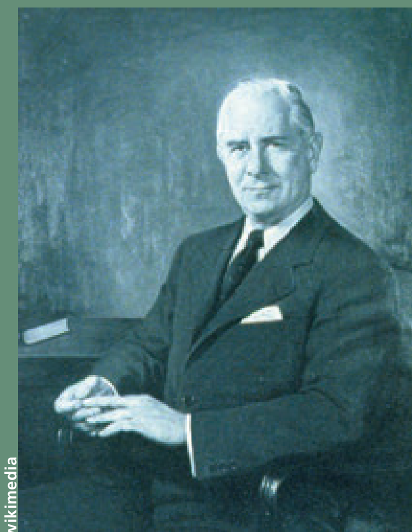
والأشكال والجداول في آلية تتخطى الكتابة إلى التخزين وتدوين البيانات وحفظ الملفات ومن ثم استعادتها ضمن تصنيف منهجي أفقي ورأسي بأدراج وخزائن افتراضية، ما يحيل جهاز الكمبيوتر إلى غرفة ملفات وربما مبنى كامل -بطوابق- من الملفات.

في خضم هذه الثورة، ارتفعت في السنوات الأخيرة أصوات مشككة في مكانة السكرتارية ضمن العمل المكتبي، تنعى الوظيفة المحجّمة أصلاً، على اعتبار أن التكنولوجيا الحديثة سحبت البساط من موظفي السكرتارية محدودي القدرات. وبالتالي، قد لا يمضي وقت قبل أن تحل الأجهزة الكفؤة محل البشر، بخصائصهم الإنسانية «الناقصة» بطبيعتها، وبمؤهلاتهم المحدودة التي تدفعهم إلى هذا العمل في الأساس كونه الوحيد المتاح لهم، أو الأقل تطلباً أكاديمياً.

على أن المعنيين يرفضون هذه الفرضية، لا من باب الحفاظ على وظائفهم فحسب، وإنما من باب إعادة الاعتبار لمهنة مظلومة تعرضت للتهميش والإجحاف وأُحيطت بالشبهات في ظل توصيف «كليشيهي» الطابع للسكرتير(ة) أسهمت به وعززته الثقافة الإعلامية الهزيلة والمبتذلة.

والشيء بالشيء يُذكر، فقد كانت هذه الفكرة التسطيحية هي الأساس الذي قامت عليه فكرة مسلسل «بيتي القبيحة» Ugly Betty الأمريكي ذائع الصيت. إذ يتعمد مالك دار نشر ضخمة تعيين سكرتيرة «قبيحة الشكل» في مكتب ابنه، رئيس تحرير مجلة مرموقة، مختاراً «بيتي» لا لمؤهلاتها وإنما لشكلها غير المغري! لكن الأيام تثبت أن بيتي أكثر من مجرد سكرتيرة ترد على الهاتف

اليوم «العالمي» للسكرتارية



تشارلز سوير

في أمريكا في خمسينيات القرن الماضي، قام رجل الأعمال الأمريكي هاري إف. كليمفوس، من نيويورك، بالتعاون مع ماري باريت، رئيسة «الرابطة الوطنية للسكرتيرات»، وسي. كينغ وودبريدج، رئيس شركة ديكتافون، إلى تكريس «يوم السكرتيرة» كيوم مخصص للاحتفال بالسكرتيرة، وذلك اعترافاً بالمجهود الذي تبذله العاملات في قطاع السكرتارية في الشركات وسعياً إلى تشجيع عمل «السكرتارية» -الإداري الطابع وتحفيز المزيد من الكفاءات للانضمام إلى هذه المهنة «المغبونة» وتطلعاً إلى الارتقاء بالوظيفة ذات المهام الفضفاضة. كان ذلك في العام 1952م، إبّان الهبّة الوظيفية التي أعقبتْ الخروج من آثام الحرب العالمية الثانية ودفعت بالمزيد من النساء إلى سوق العمل الذكورية الهيمنة.

من أسبوع «السكرتيرات» إلى أسبوع «الموظفين الإداريين»

وقد أقر وزير التجارة الأمريكي آنذاك تشارلز سوير العطلة لمناسبة «الأسبوع الوطني للسكرتيرات» كاحتفالية أقيمت أول مرة في الفترة من 1 إلى 7 يونيو، مع تخصيص الرابع من يونيو ليكون «اليوم الوطني للسكرتيرات». في العام 1955م، تم تحريك موعد الاحتفال بالأسبوع الوطني للسكرتيرات إلى الأسبوع الأخير من شهر إبريل. وفي العام 1981م تم تغيير اسم الفعالية إلى «أسبوع السكرتيرات المهنيات»، ثم أصبح «أسبوع الموظفين المهنيين الإداريين» في العام 2000م ليشمل تحت سقفه قطاعاً عريضاً من الإداريين على نحو يعكس المسؤوليات المتشعبة والمتطورة وما استتبعها من «اشتقاق» مسميات وظيفية جديدة للطاقم الإداري، الذي انبثق من الأساس من وظيفة السكرتارية. وهي مسميات توحي بثقل وتنوع وتعقيد وظيفي أكثر. أضف إلى ذلك أن التسمية الأكثر تهذيباً للفعالية؛ التي استبدلت مسمى السكرتير(ة) بـ«الإداري» إنما هدفت إلى تجنب الحرج الذي قد يشعر به أولئك العاملون في المهنة ممن يعتقدون بأن «سكرتير(ة)» كمسمًّى يقترن بالنساء فقط أو يشير إلى الموظفين غير المؤهلين بشكل كاف.

وعلى مدى السنوات الفائتة، تحول «أسبوع الموظفين المهنيين الإداريين» إلى واحدة من أكبر الفعاليات التي يُحتفى بها في بيئات العمل في الولايات المتحدة، كما زحفت هذه الفعالية خارج الأراضي الأمريكية لتصيب عدواها كندا ودول أخرى في أوروبا. ويشهد الأسبوع في العادة تنظيم ندوات، وعقد ورش عمل لتسليط الضوء على طبيعة عمل السكرتارية (عفواً! «المساعد الإداري» أو «المساعد التنفيذي» أو «الموظف المهني الإداري») وبحث سبل الارتقاء بالمهنة وتنقيتها من التلميحات «الازدرائية» العالقة بها وتخليصها من الصفة «الدونيّة» التي التصقت بها. وعادة ما يقوم المديرون بتقديم هدايا رمزية إلى مساعديهم الإداريين، ولعل أغلاها هو يوم عمل عطلة!

تجدر الإشارة إلى أن السكرتارية دخلت العمل النقابي في الولايات المتحدة مبكراً من خلال تأسيس «الرابطة الوطنية للسكرتيرات» في العام 1942م، حيث ظلت محتفظة باسمها أربعة عقود قبل أن يتم تغييرها إلى «الرابطة الدولية للسكرتيرات المهنيات» وذلك في العام 1982م، ومن ثم إلى «الرابطة الدولية للموظفين المهنيين الإداريين» في العام 1998م -التي يشار إليها اختصاراً بـ«IAAP»- بغية إزالة أي تمييز يوحي به المسمى الوظيفي الأنثوي الدلالة!. وبحسب أدبيات الرابطة، فإن هذه المؤسسة النقابية تهدف إلى وضع المعايير الخاصة بأعمال السكرتارية وتوفير الفرص المهنية والتعليمية لأولئك الساعين إلى الالتحاق بوظائف إدارية وتعزيز شبكة تواصل مهنية تدريبية تبادلية فيما بينهم. وكانت الـ «IAAP» قد ابتكرت امتحاناً تقييمياً معيارياً للموظفين الإداريين يعرف باسم «امتحان السكرتارية المهني المصدَّق» (CPS)، الذي تم إقراره أول مرة في العام 1952م. وهناك أيضاً اختبار أكثر تخصصاً يعرف بـ«امتحان الموظف المهني الإداري المصدّق» (CAP). وبناءً على المستوى العلمي أو الأكاديمي للفرد، فإن مقدِّم الطلب يحتاج بين عامين إلى أربعة أعوام خبرة معتمدة كموظّف إداري كي يخضع لهذا الامتحان.



قد يجوز بنا أن نختم هنا بسؤال غير برئ تماماً: ماذا عن مؤسساتنا العربية؟ أتضم أدبياتها المهنية اختبارات مشابهة لطاقم السكرتارية؟!

وتنظِّم جدول أعمال مديرها، الذي تطوِّر معه علاقة مهنية راقية تعتمد على الإخلاص والاستقامة، بل تصبح ذراعه اليمنى التي تساعده في اتخاذ أهم قرارات العمل. ويكون لها الفضل في إنقاذه من مؤامرات عدة يحيكها له خصومه ومنافسوه. وفي هذا الإطار، ترفض بيتي أن يُشار لها بـ«سكرتيرة» فهي «موظفة مهنية إدارية»؛ فعلياً هي مساعدة تنفيذية لرئيس التحرير، وهي «الرجل» الثاني في المجلة بعده.

مهام متعددة

التكنولوجيا ساعدت على تحويل السكرتير(ة) إلى مساعد تنفيذي أو مساعد إداري يكتسب مكانته من تعدد المهام التي توكل إليه

يقودنا هذا إلى الدور المتوقع للسكرتير(ة) في ظل تنامي الاعتماد المهني، كما كل مجالات الحياة الأخرى، على التكنولوجيا. خلافاً لما يُروج، فإن هذا الدور مُرشح له أن يكتسب قيمة أعظم، وهو أمر يبدأ من خلع وصف «السكرتير(ة)» الذي يبدو ضيقاً في الوقت الراهن، تبعاً للتوصيف التقليدي. لم تعد أعمال السكرتارية تقتصر على طباعة الرسائل واستقبال المكالمات وتنظيم المواعيد وتنظيم الملفات وتولي حجوزات السفر والمواعيد أو ترتيب عشاءات العمل للمدير. أكاديمياً، لم يعد الحد الأدنى من الشهادة العلمية -كشهادة الثانوية العامة أو الدبلوم المتواضع- كافياً، بل شهدت السنوات الأخيرة إصرار المؤسسات الكبرى على تجنيد موظفي سكرتارية يحملون شهادات جامعية في إدارة الأعمال، وثمة مؤسسات ترجح كفة خريجي الحقوق، خاصة إذا كانت شهادة الاختصاص في قانون الشركات. وهناك اللغة، التي لا يكفي الإلمام بها بل إجادتها. فلم يعد السكرتير(ة) مجرد «طابع» أو «ناسخ»، بل هو الذي يصوغ الرسائل ضمن الحد الأدنى لتدخل المدير، كما بات أبعد ما يكون عن «مكتب استقبال» أو «بدالة هاتف».

فإلى جانب المهام الإدارية والتنسيقية التقليدية، توفِّر التكنولوجيا الحديثة فرصة لتوسيع النطاق المعرفي والمعلوماتي للموظف. فالسر ليس في النقر على الزر، وإنما فيمن ينقر على الزر، لجهة مقدرة الشخص على انتخاب الأفضل ضمن خيارات متزايدة باطراد، واتخاذ قرارات دقيقة في خضم وفرة مرهقة من القرارات والاحتمالات. وهو أمر لا يُكتسب إلا من خلال ثقافة مهنية وإدارية خاصة، تؤسس لعلاقة صحيحة وصحية بين السكرتير(ة) -الذي لم يعد سكرتيراً- والمدير. فالسكرتير(ة) الآن هو مساعد تنفيذي أو مساعد إداري. له نفوذه المكتسب من قابلية مذهلة لما يعرف بالـ«multitasking»، أي القيام بعدة مهام متنوعة ومتشعبة تستلزم يقظة ومتابعة وملاحقة واستدراك في الوقت نفسه، وبقدر متساوٍ من الكفاءة.. وعليه بالدرجة الأولى، أن يتمثل فلسفة العمل ويعكسها، لأن هذا التمثل هو الفرق الحاسم بين النجاح والفشل. فالتكنولوجيا مساعد، لكنها ليست الأساس، وهي الوسيلة، لكنها ليست الغاية.

حسناً، لقد بات المدير يحمل معه مكتبه في جهاز صغير أينما حل ورحل، أو في كمبيوتر محمول، متابعاً اتصالاته عبر «البلاك بيري».. هذا صحيح. لكن الأصح أن مهمته باتت أسهل وأسرع بفضل مساعد تنفيذي دؤوب يحرص على «تغذية» جهازه بالمعلومة التي تساعده كي يكون سباقاً في استغلالها. إن السكرتير -المساعد هو العقل

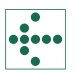

Corbis

إذ تشحذه المعرفة التقنية، وفي كثير من الأحيان يكون هذا العقل الإداري شريكاً فاعلاً في القرار، وموجهاً كون التوجيه والمتابعة من مقتضيات الوصف الوظيفي للمساعد التنفيذي (أو «مدير مكتب المدير» كما قد يُلقَّب) متعدد المهام.

في سوق العمل العصرية، فإن العلاقة بين المدير، صاحب العمل، وبين المساعد الإداري هي أقرب إلى فريق عمل متكامل، نجاح كل منهما لا يستقيم إلا بالآخر. كل ما في الأمر أن التكنولوجيا تجعل هذه العلاقة التبادلية أمتن وأكثر فاعلية وإثماراً، والبقاء للأصلح في استثمار التكنولوجيا وتطويعها، لا للتكنولوجيا وحدها.. فالنجاح ينطلق من العامل البشري أولاً.. ثم أولاً.

«الحيلة»

صاحب السبع صنائع بدون بخت ضائع



يبدو أن روَّاد الأعمال أصحاب الأفكار التجارية النيرة التي لا تعتمد على رأس المال بقدر ما تعتمد على الحيلة والشغف هم أبطال المرحلة. وأينما تطلع المرء يجد أن لهؤلاء الروَّاد مكاناً أثيراً لدى الأمم لإدراكها بمدى إسهاماتهم في تماسك اقتصادها وتقدُّمه. وكتابنا اليوم: (الحيلة/ كيف يتعلَّم رواد الأعمال التعامل مع كل العقبات) لكاتبيه نورم برودسكي وبو برلينجام هو دليل يساعد هؤلاء الروَّاد في سعيهم المحموم للنجاح.

في مقدمة كتاب (الحيلة)، وعنوانه بالإنجليزية:
The Knack, (How Street-Smart Entrepreneurs Learn to Handle Whatever Comes Up)

يبدأ نورم برودسكي حديثه باعترافه أن إدراكه لمكانة والده كمرشده الأول والأفضل في إدارة الأعمال التجارية أتى متأخراً جداً. فالكاتب الذي كان ينتقل مع والده من منزل إلى آخر ليساعده في بيع الملابس والأحذية والأدوات المنزلية تلقَّى كماً هائلاً من النصائح العملية في الميدان من والده الذي كان أول من لفت انتباهه إلى أهمية هامش الربح وأهمية الثقة بين البائع والمشتري أو لدور التعامل العادل في نجاح العمل التجاري.

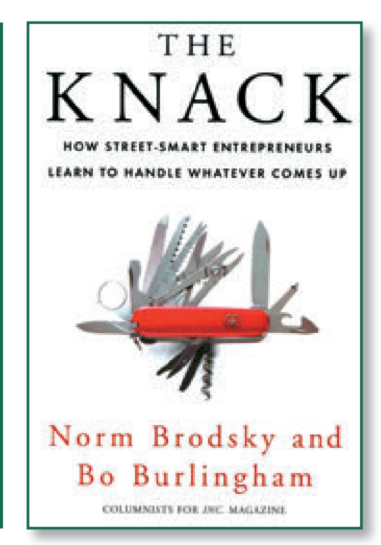
وللمفارقة، كلما تلقَّى الفتى نورم نصيحة من هذه النصائح ألقاها جانباً ظناً منه أنها لن تعلق بذاكرته ولن يضطر لاستخدامها مطلقاً. إذ كان الفتى الطموح يخطط للالتحاق بسلك المحاماة.. وبالفعل درس المحاماة ومارسها.. قبل أن يستدرك بأن المهنة الحقيقية التي تكتمل بها حياته هي إدارة الأعمال دون غيرها، ولتكون هذه النصائح معيناً لا ينضب ولا ينتهي يعتمد عليه في ممارسته للتجارة.

نورم برودسكي هو شيخ من شيوخ رواد الأعمال. فهو تاجر أمريكي ناجح بدأ من الصفر وأطلق في حياته العديد من المشاريع التي لاقت الفشل، لكنها أدت حتماً إلى تمتعه بنجاحه في سبعة مشاريع أخرى نجاحاً منقطع النظير. أما بو برلينجام فهو كاتب اقتصادي من الصف الأول يسود أعماله التوجه إلى أصحاب المشاريع الصغيرة، وعمل في تحرير مجلة «إنك» الأمريكية التي تتخصص في الحديث عن الإدارة والأعمال التجارية. وعلى صفحات مجلة «إنك» التقى الرجلان: الصحافي المتمرس في عمله اليومي والتاجر المعروف بمقاله الشهري الذي يقدِّم فيه النصح للمبتدئين من روَّاد الأعمال. وكان من السهل انتقال تعاون الكاتبين من على صفحات المجلة إلى صفحات كتابهما الأول محل العرض.

كبد الحقيقة في تشبيه

فكرة الكتاب تعتمد على تشبيهه البليغ بصندوق الأدوات أو بالمفتاح السويسري كما تظهر صورته على الغلاف. فالكتاب من هذه الناحية هو مصدر لحل كل المشكلات والعقبات، ولفتح الأبواب ولصنع الفرص لروَّاد الأعمال المبتدئين. وهو بهذا يؤدي وظيفة صندوق أدوات النجار أو الحرفي في وجود أداة لحل كل مشكلة أو إصلاح أي عطل يقابله في طريقه.

المصدر الأساسي الذي اعتمد عليه الكاتبان هو الكم الكبير من المشكلات والاستشارات التي كان بريد مجلة «إنك» يأتي بها من أصحاب المشاريع الصغيرة طلباً للإرشاد. وعندما تراكمت الحلول التي أعلن جمهورها استفادتهم منها، استقى كتاب «الحيلة» أمثلته ودروسه من الكم المتراكم في



غلاف الكتاب

تقديمه لنصائح عملية وإرشادات أولية لكل من يريد أن يطلق مشروعه الجديد من دون سابق خبرة في عالم المال والأعمال. أو لمن يريد أن يوسع نطاق تجارته لتشمل نواحي جديدة لم يتطرق إليها من قبل.

يتكون الكتاب من سبعة عشر فصلاً، يناقش كل واحد منها قضية مختلفة بصورة عامة، ثم يوجه عناية فائقة وقيِّمة إلى التفاصيل التي تشغل هذه الصورة العامة والتي تساعد رائد الأعمال أو صاحب المشروع الوليد على ممارسة ما ينصح به الكتاب يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع. وتنوعت هذه الفصول بين كيفية الحصول على رأس المال، وكيفية الحفاظ على العلاقات الطيبة مع البنوك والمقرضين، وكيفية تحسين خدمة العملاء، وكيفية توظيف الكفاءات وإسناد الأعمال المناسبة لها. وربما تبدو بعض الأدوات التي يحتويها صندوق الكاتبين بدائية جداً لمن خبر المهنة أو درس إدارة الأعمال. إلا أن الكتاب يذكرنا بأن سلاح رواد الأعمال ليس في شهاداتهم التجارية وليس في معرفتهم المتفحصة لكل قضايا المشاريع التجارية، ولكن في فكر وقَّاد وشغف لا ينضب بتجسيد فكرة مجردة على أرض الواقع. ولهذا هم يحتاجون إلى كتاب يشرح المراحل الحرجة التي يتطلبها قيام أي مشروع تجاري كأصول المحاسبة الأولية والتي يفتتح بها الكاتبان أول فصول الكتاب أو طريقة وضع الأهداف الاستراتيجية للمنشأة، أو حتى دراسة جدوى المشروع ومدى قدرته على الصمود أمام الأسواق والمنافسة.

صندوق أدوات: منظَّم لسهولة الاستخدام

من مميزات الكتاب وجود ملخص في نهاية كل فصل يختصر كل النقاط التي عرضها هذا الفصل. وخلال هذه الفصول، يجد القارئ مربعات تحتوي على أسئلة وردت لنورم برودسكي من قرَّاء مجلة «إنك» ويجد إجاباتها أيضاً. كما أن من مميزات الكتاب الأخرى تركيزه على كيفية تفادي الأخطاء بحيث يتضمن أقساماً خاصة، يشرح فيها الكاتبان كيفية تلافي كذا أو كذا من الأخطاء الحتمية التي يمر بها كل من يمضي قدماً في بناء مشروعه الخاص.. وكما يؤكد الكاتبان في مقدمة الكتاب فإن المرء الذكي هو من يتعلم من أخطائه، ولكن المرء الحكيم هو من يتعلم من أخطاء الغير.

محتويات الكتاب تبتعد عن النظريات، وتعتمد على التوجه النفعي الذي يهتم بتحقيق النتائج والحصول على الأرباح لضمان نجاح المشروع. لكن الكتاب في الوقت نفسه يصر مراراً وتكراراً على الفكرة القائلة إن ريادة الأعمال ليست شغفاً فقط في حد ذاته، ولكن هي وسيلة لتحقيق حياة مشبعة ومثلى في كل جوانبها النفسية والعقلية والعاطفية والأسرية. وبامتلاك الروح والمهارات الصحيحة، يمكن لكل شخص أن يحقق النجاح المنشود.

جمهور يتعلم وجمهور يتذكر

وبالرغم مما يبدو ظاهرياً من أن جمهور الكتاب هم فقط المستجدون في عالم الأعمال، إلا أن هناك جمهوراً آخر يقبع في الخفاء وينتظر بلهفة جو النصائح التي يقدمها الكاتبان نورم برودسكي وبو برلينجام في كتابهما.. هذا الجمهور المفاجئ هو جمهور الإداريين التنفيذيين في الشركات الكبرى، إذ تشير بعض أجزاء الكتاب ومراجعات النقاد أيضاً، إلى أن التنفيذيين في الشركات الكبرى محتاجون لنصائح تذكرهم بالأيام الأولى التي قامت على أساس نجاحاتها صروح شركاتهم.. وبالتالي، فإنهم يستطيعون تطبيقها مرة أخرى وإعادة الروح الحماسية للموظفين الذين أفقدتهم بيروقراطية الشركات الكبرى الحاجة الماسة إلى إثبات النجاح والتميز.

من المهم أن يدرك قارئ الكتاب نوايا الكاتبين من تقديمه كصندوق أدوات لرائد الأعمال.. فصندوق الأدوات بليغ كتشبيه، ومفيد كطريقة استخدام، فالنجار على سبيل المثال لا يستخدم كل أدوات صندوقه مرة واحدة وكذلك قارئ الكتاب لا ينبغي له أن يتوقع قراءة الكتاب مرة واحدة وتطبيق ما ينصح به في وقت واحد. بل عليه الصبر والانتقال من مرحلة إلى أخرى، ومن فصل إلى آخر. كما أننا كنا نرى بوضوح عند قراءتنا للكتاب أن اختياره الكتابة بصيغة المتكلم أو المؤلف الواحد كان اختياراً موفقاً أتت ثماره في إحساس القارئ بحميمية النصيحة ودفئها.. والمتحدث في الكتاب هو بصوت نورم برودسكي، ولهذا يمكن أن يتساءل القارئ عن دور بو برلينجام في تأليفه؟ لكن التساؤل لا يدوم طويلاً، ولا يبدو مهماً من الأساس أمام الفائدة الفورية لكثير من القواعد التي يضعها العمل الجماعي للكاتبين.

هدى صالح

من دراسة البكتيريا إلى دراسة الصفائح القارية..

الحياة في الظلام



Illustration: Tamara Makarem, Almohtaraf Alsaudi

شهد العام الفائت 2009م تسجيل سلسلة من الاكتشافات العلمية المتعلِّقة بالحياة في قاع المحيطات حيث لا تصل أشعة الشمس على الإطلاق، تجاوزت في أهميتها إدهاش العلماء الذين اكتشفوا قبل سنوات معدودة فقط أن الحياة الممكنة في الظلام الكامل تقتصر على بعض الكائنات الجرثومية الدقيقة جداً.

أيمن طرقجي* يعرض آخر ما توصلت إليه دراسة هذه البيئة التي لا تعرف الضوء، واحتمالات الحياة فيها، والأبواب العريضة التي بدأت هذه الدراسة بفتحها أمام سلسلة من العلوم تراوحت بين الصفائح القارية في أعماق المحيطات وصولاً إلى علم الفضاء وكواكب المجموعة الشمسية.

في الثاني والعشرين من شهر يناير من العام 2009م، أعلنت بعثة علمية أمريكية-أسترالية مشتركة عن اكتشاف أنواع عديدة من الحيوانات البحرية تشمل العناكب العملاقة والإسفنج، ونوع غريب من الحبَّار المفترس وغيره.

وذلك في الموقع البحري المعرف باسم «صدع تسمانيا» حيث تنحدر الأرض بشكل شبه عمودي من مستوى 2000 متر إلى نحو 4000 متر تحت سطح البحر.

وفي السادس من مارس من العام نفسه تمكَّن العلماء من تصنيف سبعة أنواع من المرجح أنها اكتشفت على عمق 5745 قدماً تحت سطح البحر في موقع قريب من جزر هاواي في المحيط الهادئ. وفي ديسمبر من العام نفسه، أعلنت طالبة تعد لشهادة الدكتوراة في المركز الوطني لعلم المحيطات التابعة لجامعة ساوثهامبتون أنها تمكنت من تصنيف أربعة أنواع مختلفة من السرطانات الضخمة التي تعيش على أعماق تراوحت مابين 500 و1500 متر تحت سطح البحر.

وفي الوقت نفسه، كان غوَّاص آلي يجوب قاع المحيط الأطلسي قبالة جزر كايمان، لا للبحث عن كائنات بحرية جديدة، بل لدراسة الجيولوجيا في تلك الأعماق وأثرها على الحياة بمعزل عن ضوء الشمس، فيما كان علماء الفضاء يترقبون النتائج لإسقاطها على أبحاثهم بشأن احتمالات الحياة، ولو بأكثر أشكالها البدائية في كواكب المجموعة الشمسية.

فما هي نقطة البداية في هذه الاكتشافات التي قلبت النظريات القديمة رأساً على عقب، وشرَّعت أمام العلماء أبواباً عديدة أمام احتمالات لم تكن تخطر على البال قبل سنوات معدودة فقط؟.

* كاتب سوري مقيم في ألمانيا

المصادر المجهولة للطاقة

من المعروف أن التمثيل الضوئي يؤدي إلى تحويل غاز ثاني أكسيد الكربون إلى مركبات عضوية. وتشكِّل الطاقة المحمولة في أشعة الشمس العامل الأساسي لنجاح عملية التحويل هذه.

رخويات وأسماك وديدان يبلغ طولها 6 أقدام على عمق 2500 متر، وجراثيم حية في مياه تبلغ حرارتها 150 درجة مئوية

وحتى الربع الأخير من القرن الماضي، ظلت فكرة وجود حياة في أعماق البحار سراً غامضاً على العلماء، حتى أنهم جزموا لفترة طويلة باستحالة نشوئها في الأماكن المظلمة تماماً. واكتفوا بإطلاق النظريات القائلة إن الكائنات التي تعيش في الأعماق المظلمة تصعد من حين إلى آخر إلى المستويات التي يصلها الضوء، ولا تغوص إلا لتقتات من المواد العضوية المترسبة من السطح.

ظلَّت النظريات القديمة القائمة، بانتظار تطور التقنيات التي تسمح بالغوص في الأعماق المظلمة تماماً واستكشافها، وهو أمر ليس بالسهل على الإنسان. فنظرياً، يمكن لضوء الشمس أن يصل حتى أعماق تراوح بين 500 و1000 متر، وإن كان بشكل لا يكفي للعب أي دور حيوي. فللتأكد من صحة النظريات القديمة، أو تفنيدها، كان يجب الوصول إلى ما دون الألف متر تحت سطح البحر، أو استخراج الكائنات الحية من هناك بطريقة ما، ولكن انتقال هذه الكائنات من بيئة يبلغ معدل الضغط فيها نحو 1000 مرة الضغط الجوي على السطح، إلى السطح مباشرة يؤدي إلى تمزق أنسجتها أو انفجارها.

وفي العام 1960م، تمكن غواص آلي من الغوص حتى عمق 10,911 متر تحت سطح البحر قرب جزيرة غوام في المحيط الهادئ. وعند ذاك المستوى، ظهر على الشاشة التلفزيونية ما يشبه السمكة التي تبتعد عن ضوء المصباح الذي كان على متنه.

غير أن الاكتشاف المهم سُجِّل في عام 1977م، عندما اكتشف باحثان أمريكيان ينابيع للمياه الحارة على عمق 2500 متر قرب شواطئ جزر غالاباغوس. ولم يكن وجود هذه الينابيع بحد ذاتها هو المفاجأة، إذ إن النظريات تحدثت منذ العام 1970م عن احتمال وجودها في قاع المحيطات حيث الصهارة في باطن الأرض والحمم البركانية يمكنها أن تسخِّن المياه الجوفية. المفاجأة كانت في اكتشاف عدد ضخم من الحيوانات البحرية من رخويات وأسماك وديدان أنبوبية ضخمة يصل طولها حتى ستة أقدام في محيط تلك الينابيع. والمفاجأة الأكبر في اكتشاف حياة جرثومية في المياه التي تصل حرارتها حتى 150 درجة مئوية، علماً بأن الحرارة عند نقطة تدفق هذه الينابيع وصلت حتى 350 درجة مئوية، وأيضاً مع العلم أن كل البكتيريا التي تعيش على سطح الأرض تموت إذا تجاوزت حرارة محيطها 60 درجة مئوية فقط.

في تدبير أمر غذائها

أثار هذا الاكتشاف عدة تساؤلات حول كيفية عيش تلك المخلوقات بمعزل تام عن الشمس وضوئها الضروري للحياة، لاسيما وأن معظمها لا يملك فماً ولا معدة، ولا قناة للإخراج.

ولاحقاً، تمت الإجابة عن هذا السؤال على يد خريجة جامعة هارفارد، كولين كافانو التي وجدت أن المياه المتدفقة من الينابيع المعدنية مليئة بكبريتيد الهيدروجين وعناصر أخرى غنية بالطاقة. إذ كان من المعروف سابقاً أن ينابيع المياه الكبريتية الموجودة على اليابسة هي موطن للبكتيريا التي تستمد طاقتها من أكسدة الكبريتيد الموجود في الماء. وبالتالي، فإن هذه البكتيريا تحصل على الطاقة من خلال التركيب الكيميائي بدلاً من التركيب الضوئي. وكذلك الأمر في الينابيع المعدنية التي تعج بالبكتيريا التي تقوم بأكسدة الكبريتيد، أي التركيب الكيميائي. وبالتالي تشكل مصدر طاقة في ظل غياب ضوء الشمس. وكان ذلك من أهم الاكتشافات في علوم الأرض. ولكن ماذا عن الديدان التي لا تملك أفواهاً لأكل البكتيريا؟

كان الافتراض أنها تمتص جزيئات الغذاء من خلال جلدها كما تفعل الديدان الأصغر. لكن المشكلة أن هذه



81,000 نوع من الكائنات الحية يعيش من دون ضوء في أعماق البحار

الديدان الضخمة لن تكون قادرة على الحصول على ما يكفي من المواد الغذائية عن طريق الجلد، إذ إن مساحة سطح الجسم أصغر بكثير من حجمه.

كان لدى الباحثة كافانو قناعة أكيدة بأن هذه الديدان تحتوي على «بكتيريا تعايشية». وقد أثبتت صحة افتراضها بعد فحصها لهذه الديدان لتجد فيها عضواً يحتوي على بلورات الكبريتيد، وهو العضو المسؤول عن التغذية لديها. ويحتوي بداخله على بكتيريا تشكِّل الجزء الأكبر من نسيجه الغذائي.

وأثبتت الدراسات اللاحقة أن البطلينوس الأبيض الذي يبلغ طوله نحو 25 سنتيمتراً، وكذلك الرخويات الموجودة في ينابيع غالاباغوس ومعظم الفجوات الأخرى، تحتوي أيضاً على بكتيريا تعايشية في خياشيمها. وكل هذه الحيوانات تعيش في البيئات التي تحتوي على الرواسب الطينية الغنية بالكبريتيد. وفي حين أن معظم العمليات الكيميائية تعتمد على الكبريتيد كمصدر للطاقة، فإن عدة عناصر غنية بالطاقة يمكنها أن تدعم التعايش بين الحيوانات المائية والبكتيريا مثل غاز الميثان والمنغنيز وماء النشادر.

ومؤخراً، أثبت العلماء أن الكثير من اللافقاريات البحرية لديها بكتيريا تستمد طاقتها من غاز الميثان الموجود في بيئات مختلفة كالفجوات المعدنية وحتى الينابيع الصغيرة الباردة في خليج المكسيك وبحر الشمال.

وما زالت الأبحاث مستمرة وكل يوم تصدر نتائج جديدة. وقد سجل آخر تقارير مشروع إحصاء الحياة البحرية المقرر انتهاؤه في أكتوبر من العام الجاري 2010م وجود حوالي 81,000 نوع من الكائنات الحية التي تعيش من دون ضوء على عمق 656 قدماً.

وفي ظلام اليابسة أيضاً

أثارت الاكتشافات في الحياة البحرية على أعماق لا يصلها الضوء، الحماسة للبحث عما يشبهها على اليابسة. وهكذا سُجِّل اكتشاف واحد من أغرب الأنظمة البيئية على سطح الأرض عام 2005م، في منجم للذهب يقع على مقربة من مدينة جوهانسبورغ في جنوب إفريقيا، حيث عثر على نظام حيوي كامل يقتصر على نوع واحد من الكائنات المجهرية، يستمد طاقته بشكل مستقل تماماً عن الضوء، وذلك عن طريق تفكيك الماء

إلـى هيدروجيـن وبروكسـيد الهيدروجيـن، ليقوم هذا المركـب الأخير بالتفاعل مع الكبريتيـد المكون طبيعياً في الصخور، وينتج منه الكبريتات.

وتعمل هــذه الكائنات على تخفيـف الكبريتات وتحويلها إلى كبريتيد مجدداً باستخدام الإلكترونات الموجودة في الهيدروجين النـاتج عن تحليل الماء. وهذا هــو النظام البيئي الوحيد على اليابسة الذي يعتمد مصدراً للطاقة مختلفاً عن الضــوء أو الطاقة الكيميائية، ومستمدة من مادة الكوكب نفسه.

الروبوت نيروس يجول على عمق 11,000 قدم في الأطلسي، وعلماء الفلك يستفيدون من مكتشفاته

إسقاط الاكتشاف على أبحاث الفضاء

أثـار اكتشـاف هذا «المجتمـع» في باطـن الأرض خيال العلماء الذين باتوا يرون نظرياً احتمال وجوده على سطح كوكب المريخ مثلاً. فكل ما يحتاجه هذا النظام الحيوي هو النشـاط الإشـعاعي وكبريتيـد المعـادن والمياه وثاني أكسـيد الكربون، وهذه العناصـر متوافرة أو يرجـح توافرهــا في الكواكـب الصـخرية الأخرى، وخاصة على القمر «أوروبا»، وهو أحد الأقمار الثلاثة والسـتين التي تدور حول كوكب المشتري، بعدما ثبت وجـود الماء على سطحه.

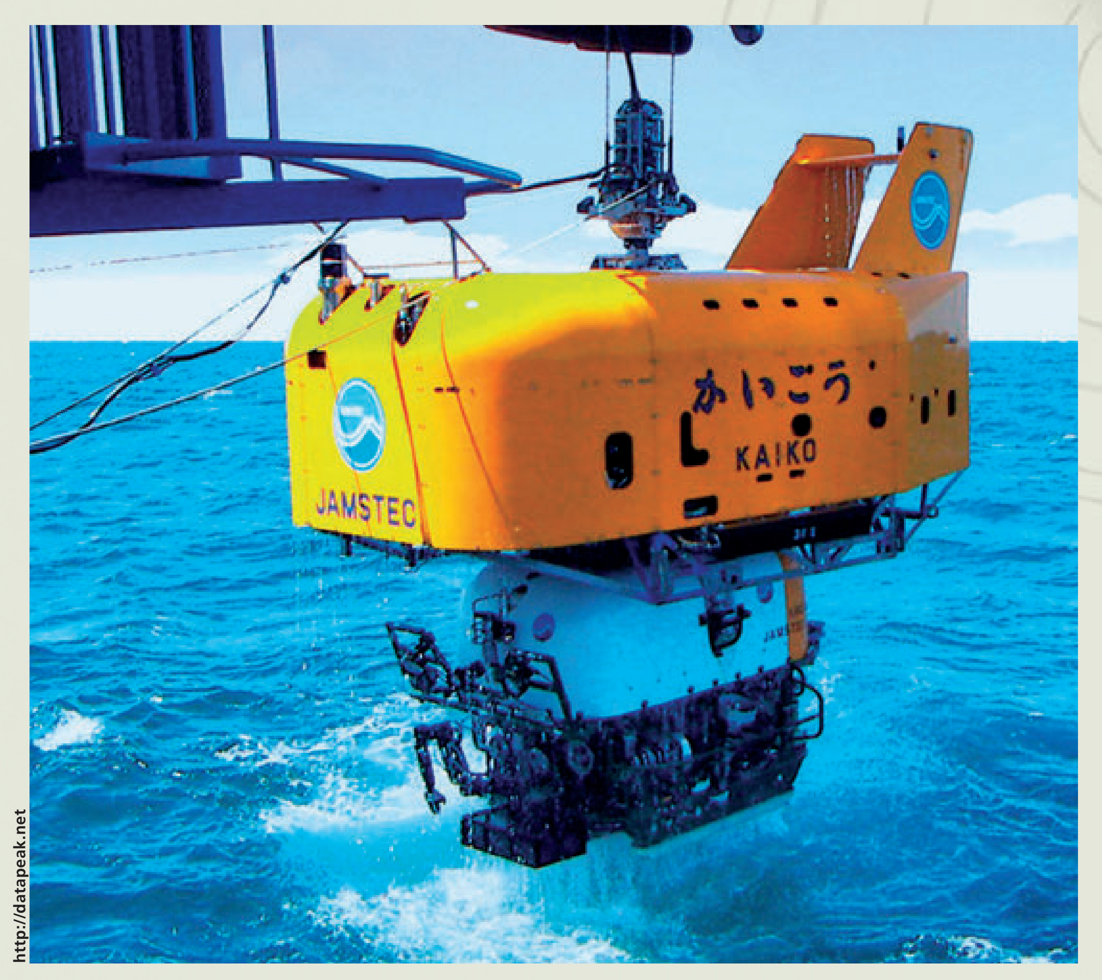
وحتـى الكواكـب التي تمـت دراسـة بيئاتها بشـكل كافٍ نسـبـياً، تعــود الدراســات اليـوم إلـى مراجعـة الخلاصـات السابقة ومـدى صـحتها. كما هو الحـال فيما يتعلق بكوكــب «الزهــرة» الأكثر شـبهاً بالأرض بين كواكب المجموعة الشمسـية. حيـث أدت القياسـات التـي أجريت بواسـطة المركبـة غيـر المأهولة «بايونيـر» في العــام 1982م، إلى الجزم بعـدم إمكانية وجود حياة على سطح هذا الكوكب بسبب ارتفاع الحرارة على سطحه (425 درجة مئوية)، ونسبة الضغط الجوي أيضاً.

إلا أن إعادة قراءة هذه المعطيات بعد عشـرين عاماً، وعلى ضـوء ما تم اكتشـافه في البيئات المظلمة على سـطح الأرض، سـمح لعالم الفلـك الألمانـي ديرك شولتزه بإطلاق فرضية تقول بإمكانية وجود شكل من أشكال الحياة البدائية والمجهرية في الغلاف الجوي لكوكـب الزهـرة، قريبـاً مـن قطبيـه حيـث تراوحت الحــرارة ما بين 30 و80 درجـة مئوية، وذلك اعتماداً على انخفاض نسبة غاز الكربون الرباعي السام الذي كان يُتوقع وجوده في الغلاف الجوي للزهرة، إضـافة إلــى وجود غازات قابلـة للتفاعل مع بعضـها البعض، ولا يمكن تفسـير تواجدهــا معــاً إلا إذا كان هناك ما يعمـل على إعـادة إنتاجها. ممـا قد يشـير إلى وجود كائنات مجهرية قامت بتفكيك نسبة من غاز الكربون الرباعي، وإنتاج الغــازات الأخرى القابلة للتفاعل. إلا إن عــدم توافـر الماء على سـطح هــذا الكوكب يبقى برهاناً قوياً ضد هذه النظرية. كما هو الحال بالنسبة لكل النظريات المتعلقة بعلم الفضاء ودراسة الكواكب الأخرى، المتأرجحة دائماً بين براهين مؤيدة وأخرى مناقضة.

عند حدود الصفائح القارية

وشكَّل اكتشـاف الحياة في أعماق المحيطات بعيداً عن ضـوء الشـمس، وينابيـع المياه الحـارة في تلـك البيئة المظلمـة، دعـوة إلى العلماء للمضـي قدماً في دراسـة الجيولوجيا في تلك الأعماق.

ففي شهر أكتوبر الماضي، انطلقت من «كايب كانيفرال» في فلوريدا بعثة علمية على متن السـفينة «نيروس» التي تحمـل علـى متنها رجـلاً آلياً مطـوراً لإجـراء الأبحاث فـي أعمـاق المحيطـات، بقيـادة مشـتركة مـن «معهد وودهــول لعلم المحيطات» و«وكالة الفضـاء الأمريكية» وعدة معاهد أخرى انضـمت كلها إلى مؤسسـة «الواحة» المتخصصـة في دراسـة التركيب الكيميائـي للكائنات الحية وما قبل الحية.



http://datapeak.net

الغواصة اليابانية كايكو التي وصلت إلى أعماق لم يصلها أي مسبار أو غواصة قبل نيروس

أطلق على المهمة اسم «كايب هاتراس» تيمناً باسم القمة الجبلية الغارقة قبالة جزر كايمان، والتي تشكل حلقة من السلسلة الجبلية العالمية الناجمة عن زحف القارات، والجزء الأكبر منها غارق في أعماق المحيطات. أما الهدف منها، فهو دراسة البيئة الجيولوجية والجغرافية في الأعماق، وبشكل خاص عند الصدوع وخطوط التقاء الصفائح القارية.

والروبوت «نيروس» مجهز للغوص حتى عمق 11,000 متر، ويتميز بالقدرة على العمل بشكل مستقل تماماً، مما يمكنه من تحديد مناطق البحث المثيرة لاهتمام البعثة بواسطة مجسات كيميائية وضوئية بالإضافة إلى آلات التصوير المثبتة على هيكله. ويتم التحكم بهذا الروبوت من على سطح السفينة عن طريق الاتصال به من خلال كابلات ضوئية لا يزيد قطرها عن قطر شعرة الإنسان، قادرة على نقل الصور الحية لمسافات طويلة، وكذلك حمل الأوزان الثقيلة.

ومنذ السابع من أكتوبر والروبوت «نيروس» يعمل ليلاً ونهاراً على استكشاف قاع المحيط وإرسال مشاهد حية إلى سطح السفينة، وأخذ عينات من التربة والطبقات الصخرية لتحليلها. وعليه يعول العلماء للتوصل إلى الإجابة عن أسئلة كثيرة بقيت من دون أجوبة حتى يومنا هذا، ومنها ما يتعلق بالصلة ما بين تغير مستوى قاع البحر ودوره في انحسار الكتل الجليدية عن سطح البحر، ومنها ما يرتبط أيضاً بقضية الاحتباس الحراري. غير أن ما لا يقل أهمية عن هذا وذاك، هو فهم أوسع للظروف التي تجعل الحياة ممكنة من دون ضوء في الظلام الدامس والأبدي.

زاد العلوم

1 السمنة ودواؤها المفقود

من المدهش أن تكون المشكلة الصحية الأكثر انتشاراً في العالم، لم تحظَ حتى الآن بدواء يعالجها. إنها مشكلة السمنة التي تضمن عائدات مالية لمن ينتج دواءً ناجحاً في محاربتها أكثر من كل ما يمكن أن تدره كل الأدوية الأخرى مجتمعة. ويكفي لتأكيد ذلك أن في أمريكا وحدها يبلغ عدد الذين يحتاجون إلى معالجة سمنتهم أكثر من مئة مليون نسمة. ولكن لا دواءً ناجحاً حتى الآن. فلماذا عجز الطب والصيدلة عن اختراع هذا الدواء؟

نظرياً، يجب على هذا الدواء أن يعمل على واحد من محورين، إما التفاعل مع الدهون الزائدة مباشرة لتخليص الجسم منها، وإما التفاعل مع الدماغ لقطع الشهية الزائدة للطعام.

على المحور الأول، يبدو الأمر مستحيلاً، لأن كمية الشحوم المتشكلة في السمنة تقاس بعدة كيلوغرامات، وهذا يعني أن التفاعل معها كيميائياً غير وارد، لأنه يتطلب مركبات كيميائية قد تكون بأوزان لا يستطيع الجسم تحملها، كما أن مثل هذا الدواء قد يدمِّر الدهون الضرورية للجسم أولاً وخاصة نسيج الدماغ.

أما على المحور الثاني فقد أنتجت إحدى الشركات الأمريكية بالفعل دواءً درَّ عليها نحو بليون دولار شهرياً. وفي العام 2006م، استوردت شركة أوروبية الدواء نفسه تحت اسم مختلف. ولكن الشركتين عادتا وسحبتا الدواء من الأسواق تحت ضغط الدعاوى القضائية التي بلغ عددها في أوروبا فقط 36,000 دعوى، ووفاة خمسة أشخاص، بسبب الآثار الجانبية التي شملت الكآبة والتوتر والميل إلى الانتحار، وهي مشكلات موجودة أصلاً بشكل أو بآخر عند الذين يعانون من السمنة. واليوم تستمر المختبرات في بحثها عن هذا الدواء الذي يعدها بالثروة. وفي انتظار أن تثمر هذه الأبحاث يبقى مصير السمنة رهناً بمصير المواجهة بين الإرادة والبيولوجيا.



www.theepochtimes.com

2 التلسكوب على شاشة الكمبيوتر



التلسكوب.. هذا الاختراع الذي يسمح لنا بمراقبة الكواكب والنجوم، يعود إلى مئات السنين ولا يزال يتطور حتى يومنا هذا. حتى أصبح بدوره إلكترونياً، قد تواجه صناعته خطر الانقراض، إذا تطورت شهية الكمبيوتر في ابتلاعه.

فمن دون تحمل كلفة شراء تلسكوب لمشاهدة الأجرام السماوية وظواهرها المختلفة، بات بالإمكان إنزال برنامج خاص من موقع «stellarium.org» لمشاهدة صور واقعية وشاملة للنجوم والكواكب والمجرات على شاشة الكمبيوتر. وكل المطلوب لهذه الغاية تحديد موقعك (موقع جهازك) خلال طلب البرنامج، لتتمكن بعدها من تصفح الأجرام السماوية فوق رأسك، ومركبتك الفضائية إلى ذلك فأرة الجهاز.

3 التعليم بألعاب الفيديو


http://thundafunda.com

هل يتجه التعليم إلى مرحلة تقلب أحدث مناهجه رأساً على عقب؟ الأمر محتمل إذا نجحت الخطوة التجريبية التي بدأتها مدرسة جديدة فتحت أبوابها في سبتمبر الماضي في مدينة نيويورك، ويقوم منهج التعليم فيها على تلقين كل المواد الدراسية للطلاب من خلال أنشطة مستوحاة من ألعاب الفيديو.

تقول مصممة هذا المنهج المتطور كاتي سالين، «إن ألعاب الفيديو تجذب الأولاد إلى أداء عمليات معقدة، يفشلون فيها مراراً وتكراراً حتى ينجحوا في أدائها من دون أن يضغط عليهم أحد لأجل ذلك. وهم يمضون طوعاً ساعات طوال أمام هذه الألعاب أكثر من أي نشاط آخر».

وكانت سالين قد أسست قبل سنوات أربع «معهد اللعب» الذي صمم ألعاب فيديو تلقّن المواد المدرسية. وبعد عدة اختبارات ناجحة في عدد من مدارس نيويورك، تم تأسيس المدرسة الجديدة بموافقة من إدارة التعليم في الولاية، وانضم إليها 72 تلميذاً في الصف السادس، يدرسون من خلال الألعاب المواد الأساسية التي تشمل الإنجليزية والرياضيات والدراسات الاجتماعية. أما الوعد الذي يقطعه المنهج الجديد، فهو إبقاء التلاميذ على تفاعل مع التقنية، وتحضيرهم للعمل لاحقاً في مجالاتها العليا.

4 هل يمكن تبريد الطعام بالميكروويف؟

يمكن لأجهزة الميكروويف في منازلنا أن تُذيب الجليد عن الطعام وترفع حرارته حتى الغليان خلال أربع دقائق فقط. فهذه الأجهزة تحوِّل الكهرباء إلى موجات كهرومغناطيسية قصيرة جداً وذات تردد عال، وعندما تصطدم هذه الموجات بجزيئات الماء أو بعض الدهون في الطعام، فإنها تسرِّع دوران الإلكترونات حول البروتونات، مما يؤدي إلى ارتفاع حرارتها، وتنتقل هذه الحرارة بالتالي إلى باقي الجزيئات التي يتألف منها الطعام. وهذه الآلية هي ذات اتجاه واحد، لا يمكن أن تحصل في شكل معاكس.

وللعلماء طريقة لإبطاء الحركة على مستوى الذرَّة، وذلك من خلال أشعة اللايزر. فإطلاق هذه الأشعة على ذرَّة يجعل هذه الذرَّة تمتص كل الفوتونات التي تتشكَّل منها هذه الأشعة، لتعود وتعكسها في كل الاتجاهات، الأمر الذي يؤدي بالذرَّة إلى ما يقارب الجمود. وهذا ما يؤدي بدوره إلى انخفاض حرارتها لمئات الدرجات المئوية خلال أقل من ثانية.

ولكن، لأن أشعة اللايزر تؤدي هذا الدور بشكل أفضل على العناصر المؤلفة من جزيئات بسيطة غير مركَّبة، يقول العلماء إن صناعة جهاز لتبريد الطعام فوراً، لا يزال أمراً بعيداً عن الممكن. إلا إذا كان هناك زبائن يكتفون بتناول وجبة مؤلفة من ألف ذرَّة صوديوم مثلاً.



www.dollardays.com



قصة قرص الأسبيرين



هـو أحد أهـم الابتكارات العلمية المذهلة التـي عرفها التاريخ البشـري والطبـي، وأحد أبرز المنتجـات التجارية التي عرفت نجاحـاً دام علـى مر العصـور. هو محصلة اكتشـافـات عَرضَية، وعبقرية علمية، وطموح شخصي، وتنافس بين شركات كبرى. إنـه الأسبيريـن، العقـار الـذي تتعـدَّد استعمالاتـه علـى نحـو مدهش. فبرغم مرور أكثر من مائة عام على اكتشافه، لا يزال العلـم إلـى اليـوم يمطرنـا بسيل مـن الدراسات حـول فاعليته فـي علاج أمراض خطرة، ويبحث فـي أفضل طرق استخدامه وكيفيـة جنـي فوائده وتجنب آثـاره الجانبية. إنـه الأسبيرين الذي تروي لنا أريج المحفوظ* قصته، ومكانته المميزة بين الأدوية.

* كاتبة من السعودية

في شهر يوليو من العام 1899م، أطلقت شركة «باير» في بيان رسمي عقار الأسبيرين، بعد أن عممت على كبار مديريها مذكرة طرحت فيها المسألة الشائكة المتعلّقة بالاسم الذي سيتم إطلاقه على المنتج الجديد؛ ليُعتمد في النهاية اسم «أسبيرين».

ولكن هذا البيان، على أهميته، لا يُمثل الصفحة الأولى في تاريخ هذا العقار المدهش، فبدايات هذا التاريخ تعود إلى أوائل الخمسينيات من ذلك القرن عندما استطاع شارل جيرهاردت إنتاج أحد الأشكال المعروفة من حمض الساليسيليك الأسيتيلي كيميائياً عام 1853م.

وحمض الساليسيليك الأسيتيلي هو المركّب الكيميائي للأسبيرين، ونتج عن تحوير منتج طبيعي هو السليسين، الموجود في مجموعة من النباتات أهمها الصفصاف، وهو نبات له تاريخه الطبي المعروف. فقد كان نموذج التداوي المعتاد هو استخدام النباتات، ولكن انطلاق الثورة الصناعية وما صاحبها من تغيرات هائلة أدى إلى توجه الفكر السائد للبحث والمعرفة. فقد سمح العلم التجريبي لعلماء الكيمياء بتحقيق خطوات عملاقة لجهة فهم مفعول العقاقير الطبيعية وتفكيكها، وكان لحاء الصفصاف واحداً منها، حيث راح علماء الكيمياء يتسابقون على عزل المكون الرئيس فيه لما له من تأثيرات علاجية مهمة عرفها الإنسان منذ القدم.

وأول إنجاز ثوري فعلي تحقق عام 1828م على يد جوزيف بوشنر، أستاذ علم الصيدلة في جامعة ميونيخ. حين أنتجت له عملية تكرير لحاء الصفصاف مقداراً ضئيلاً من البلورات التي سمَّاها «السليسين» (المشتقة من «سليكس» Salix الاسم اللاتيني للصفصاف). وفي العام التالي، تمكَّن عالم الكيمياء الفرنسي هنري ليرو من صقل عملية استخراج السليسين. وفي العام 1838م نجح رافائيل بيريا في استخراج حمض أكثر فاعلية من تلك البلورات سمَّاه حمض الساليسيليك. لكن التأثيرات الجانبية المزعجة لحمض الساليسيليك والتي تمثلت بمذاقه الكريه وتسببه بالتهاب الفم والحلق والمعدة، جعلت قلة من الأطباء تصفه لمرضاهم، والكثيرون يعزفون عن استخدامه.

وفي العام 1853م كاد العَالَمْ أن يحصل على الأسبيرين قبل تطويره فعلياً بـ 46 عاماً، لولا أن الأمور اتخذت آنذاك منحىً مختلفاً. فقد عمد العالِم الفرنسي شارل جيرهاردت إلى إحداث تفاعل كيميائي في مسار مُعقَّد بُغية اكتشاف طريقة للتخفيف من التأثيرات الجانبية المزعجة لحمض الساليسيليك، بتحويره إلى أحد مشتقاته وهو حمض الساليسيليك الأسيتيلي. ولأن تقنيات مختبرات القرن التاسع عشر لم تكن متطورة؛ شعر جيرهاردت حينئذ بأن إجراءات تجربته ستستغرق الكثير من الوقت وستثير الضجر، فقرر وضعها جانباً، بعد أن أنتج عيِّنة خام غير نقية من حمض الساليسيليك الأسيتيلي؛ ليكون أول من استطاع إنتاج أحد الأشكال المعروفة منه كيميائياً.



stockXchng

لحاء شجر الصفصاف.. منطلق اكتشاف الأسبيرين

من الصباغ إلى الدواء

قد تنشأ الاكتشافات العلمية عن أفراد يعملون بمعزل عن غيرهم وهم غافلون عن واقع أن مشروعهم الخاص قد ينطوي يوماً ما على مضامين أساسية بالنسبة لمشروع شخص آخر. وهذا ماحدث في حالة الأسبيرين. ففي عام 1834م، حقق العالِمْ الألماني فرايدليب رونج اكتشافين كان لهما أثر في تطوير الأسبيرين، وهما: اكتشافه مادة الأنيلين، واستخراجه الصبغ الأنيلي الأسود منها. وبعد بضع سنوات، توصل العالِمْ الإنجليزي ويليام بيركن لاكتشاف اللون الأرجواني بالصدفة أثناء إجرائه لتجاربه على مادة الأنيلين. ولأن اللون الأرجواني كان أحد الألوان

النـادرة والبالغـة التقدير وإنتاجه كان مشـوباً بمصـاعب كثيرة في ذلك الوقت؛ حصـل بيركـن على براءة الاختراع، ثم أسس مصنعاً لإنتاجه.

كاد الظن أن هذا الدواء يضعف القلب أن يئده، فأجريت التجارب في الخفاء للتأكد من جدواه وسلامته

كان هذا الاكتشـاف مفتاحاً في ظهور صـناعة جديدة مربحـة وهـي الأصـباغ الصـناعية، وكان الأمـر، في ألمانيـا بالتحديـد، يمثل ثـورة حقيقية. فنظـراً لتوافر مـادة الأنيليـن والموارد العلميـة الضـرورية لتطويـر كيميـاء الأنيلين، عـرف رجال الأعمـال الألمان في مثـال بيركن السـبيل لتلبيـة الطلب على الأصباغ الصـناعية، بعد استيائهم مـن السـيطرة البريطانيـة علـى إنتاج الأصـباغ الطبيعية، والتكاليف الباهظة المفروضـة عليهم. بدأت شـركات الأصباغ تغزو سائر أنحاء ألمانيا، وأصـبحت هذه الشـركات اللاعب الأول في هذا القطاع بعد اكتشاف طائفة جديدة من الألوان الصناعية.

كانت شـركة باير إحـدى أهم الشـركات العاملة في هذا القطـاع. وبجانـب الأربـاح الهائلـة التـي اسـتطاعت أن تجنيها من الأصـباغ، اكتشـفت باير «منجـم ذهب» آخر ربما يكون أكثر ربحية من نشـاطها الأصـلي. فالكثير من المـواد الكيميائية التـي تنتج كنواتج جانبيـة أثناء عملية تصـنيع الأصـباغ، يمكـن أن تكون مـواد دوائيـة. تتبعت الشـركة هذا الخيط، وكانت النتيجـة نجاحاً هائلاً. فمن مادة كيميائية تندرج ضـمن قائمـة النفايات الناتجة عن صـناعة الأصـباغ، استُخلصـت مادة الأسـيتوفينيتيدين والتي سـوقتها الشـركة كعقار مخفض للحمى تحت اسم «الفيناسـيتين». وحقق الفيناسـيتين أرباحـاً طائلة لباير على مر السنوات التالية. ثم مضت الشركة قدماً في غزو قطـاع إنتاج الأدوية والعقاقير بعد أن حقق عقارها الثاني ثم الثالث النجاح المرجو.

ونظراً لهـذا التوجه الجديد، وضـعت شـركة باير نظاماً يقتضـي أن يقـوم كل عالـم ينضـم لمختبرهـا الخاص بأبحـاث الأدويـة، بالعمـل علـى اكتشـاف صـيغ جديدة للمـواد العلاجيـة المعروفـة. وحين قرر آرثر آيشـنغرون كبيـر العلماء فـي مختبر بايـر تطوير نسـخة عن حمض السـاليسـيليك تخلـو من التأثيـرات الجانبيـة المزعجة؛ أوكل المهمة إلى الكيميائـي فيليكس هوفمان، الذي اطلع على محاولات شـارل جيرهاردت وعلمـاء آخرين في هذا الصـدد، ثم شرع باستنسـاخ تلك التجارب مضيفاً بعض التعديـلات عليهـا. وفي العاشـر من أغسـطس 1897م، حقق هوفمان ما توصـل إليه جيرهـاردت إنما بمزيد من الفاعلية.

ظهرت فاعلية حمض الساليسيليك الأسيتيلي لدى اختبار خصائصـه، إلا أنـه لـم يُمنـح الموافقـة ليكمل مشـوار إخضاعه لمزيد من التجارب. كانت هذه الموافقة الأولية تمنـح في باير من قبل أحـد علمائها وهو هاينريخ دريزر الذي اعتقد بطريق الخطأ أن الأسـبيرين يضعف القلب. ولذلـك، رفض اسـتكمال التجارب عليه لاختبـار مدى فاعليته وأمنه. اندلع الصـدام بين آيشـنغرون المتحمس للأسبيرين ودريزر المقتنع بخطورته، وتمسك كل منهما برأيـه. لـم يجد آيشـنغرون حـلاً أمامه سـوى العمل في الخفـاء، وقام بإجراء سلسـلة مـن التجارب السـريرية تختبر صـلاحية الأسـبيرين كدواء فعَّال وآمن في الوقت نفسـه. وحين جاءت الردود بفاعليته كمسكن عام وخلوه مـن التأثيـرات الجانبيـة المزعجـة المرتبطـة بحمض الساليسيليك؛ نشر آيشنغرون تقريراً بذلك بين العاملين فـي المختبـر. ونتيجة لهـذا، أُخضـع العقـار لمجموعة



بوشنر، بيريا وجيرهاردت

جديدة مـن التجارب. وقد جاءت الردود إيجابية كما في المرة السابقة؛ فاضطر دريزر أن يقبل بالواقع، وتقرر إنتاج العقار. وفي يوليو 1899م كان الموعد المنتظر لإطلاقه.

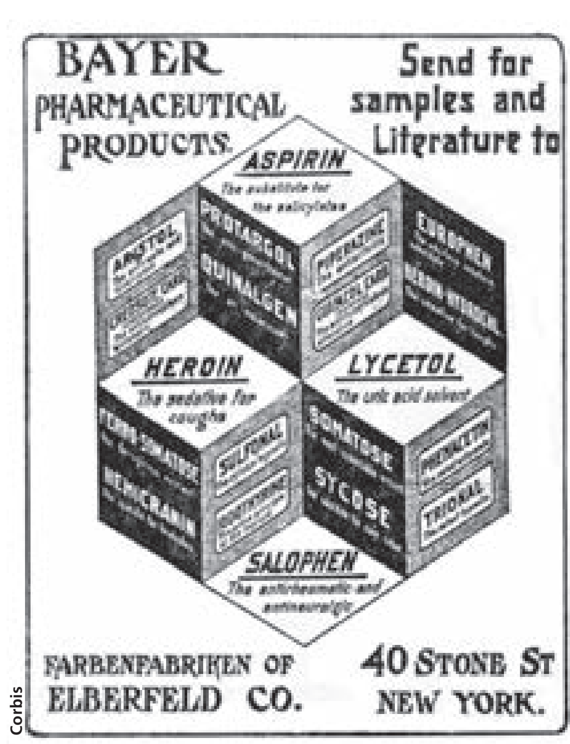
عصر الأسبيرين

عرف مصنِّعو الأسبيرين أواخر العقد الثاني من القرن العشرين فورة نشاط محموم لا سابقة لها لتلبية الطلب الهائل عليه؛ فقد تضاعفت عمليات إنتاجه وبيعه، بعد أن بات الملايين من الأفراد مقتنعين بقدراته العلاجية. وبمرور الوقت، أخذت شعبية الأسبيرين تتنامى؛ فتحول سريعاً لرمز ثقافي، وبات يشكِّل منتجاً مجسداً للحداثة، وأعجوبة علمية يمكن لأي شخص ابتياعها بحفنة جنيهات.

لكن التطورات التي كان لها الأثر الحاسم في رسم ملامح هذا العصر، كانت نتيجة عدة عوامل، بدأت بتقديم باير طلبات للحصول على براءة اختراع للأسبيرين في ألمانيا ومناطق أخرى من العالم؛ لأنها رأت أن تضبط منتجها وتحميه وتستغله بأفضل طريقة ممكنة. ولكن لم يكن الأسبيرين منتجاً جديداً بما يكفي ليكون مؤهلاً لنيل براءة الاختراع؛ فحمض الساليسيليك الأسيتيلي اكتشف منذ سنوات على يد جيرهاردت وآخرين، وقانون براءات الاختراع الألماني يطال المسارات الجديدة وليس المنتجات الجديدة؛ وبالتالي لم يكن بالإمكان اعتبار «اكتشاف» باير نتيجة لمسار جديد؛ مما أدى إلى رفض ألمانيا طلب منح البراءة. لم تجد باير أمامها سوى الاتجاه نحو الخارج. فإذا كانت قد حُرمت براءة الاختراع في ألمانيا، لماذا لا تحاول الحصول عليها في أسواق أخرى خارج موطنها الأصلي؟ اتجهت الأنظار في الشركة نحو بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية اللتين وافقتا على منحها البراءة. وبذلك تمكنت باير من احتكار إنتاج الأسبيرين وبيعه في سوقين من أكبر الأسواق العالمية. كما نجحت في الحصول على العلامة التجارية الحصرية «أسبيرين» في كافة أرجاء العالم.

واتّبعت باير استراتيجية محكمة لتسويق منتجها المدهش. فمن ناحية، أدركت أنها بحاجة لنية الأطباء والصيادلة الحسنة وتعاونهم لإنجاح العقار من خلال وصفه وتوزيعه، فأرسلت لبضع مئات منهم في كافة أرجاء ألمانيا وأوروبا رزماً صغيرة منه بالبريد مرفقة برسائل توضيحية، على أن ينشروا ما سيكتشفونه بعد تجربته على مرضاهم. وسرعان ما انتشرت الشائعات في الأوساط الطبية حول فائدة الأسبيرين وضرورة أخذه على محمل الجد.

ومن ناحية أخرى، عرفت باير أن تأثير العلامات التجارية قد يفوق تأثير براءات الاختراع إذا استُغلت بالشكل المناسب، فأرادت ترسيخ الاسم التجاري «أسبيرين» ترسيخاً عميقاً في ذهن المستهلك، بحيث يطرأ ببال الزبائن تواً لدى رغبتهم شراء حمض الساليسيليك الأسيتيلي.



Corbis

واحد من الإعلانات الأولى للدواء

wikipedia

الكيميائي فيليكس هوفمان

ارتفعت مبيعات الأسبيرين، وحقق أرباحاً طائلة في السوقين البريطانية والأمريكية، لكن نجاحه فيهما تلقى ضربة حاسمة في العام 1914م، حين اندلعت الحرب العالمية الأولى. وبتفجر العداوة بين بريطانيا وألمانيا توقفت التبادلات التجارية بينهما؛ فحُرمت بريطانيا من سلع كانت ألمانيا وحدها قادرة على توفيرها لها؛ ما جعل سوقها تفتقر للبعض المهم منها، وأحدها كان الأسبيرين.

فقد احتفظت باير من خلال فرعها البريطاني بحقوقها الخاصة باسمه التجاري، وعملت على ترويجه وحمايته بكثير من الضراوة؛ فترسَّخ الاسم في أذهان البريطانيين تماماً كما ترسَّخ في أذهان الشعوب الأخرى في سائر أنحاء العالم. وصعب على المنتجات المنافسة له أن تنجح في اختراق السوق التي يحكم قبضته عليها؛ ولذلك لم يهتم البريطانيون بإنتاجه. ولكن في ظل ظروف الحرب وكحلٍ للمشكلة، أصدر مجلس التجارة البريطاني أمراً بجعل كلمة «أسبيرين» ملكية عامة؛ تحفيزاً للمصنِّعين البريطانيين على إنتاجه. لكن الأسبيرين البريطاني الصُنع فشل في أن يتحول إلى حقيقة ملموسة؛ فقد كان دواءً مقيئاً أكثر منه مسكِّناً للآلام. ولكن وبعد بضعة أشهر، مُنح الأسبيرين الأسترالي الصُنع الترخيص؛ فكان ضربة عنيفة لامتياز باير الاحتكاري في بريطانيا والمناطق الخاضعة لسيطرتها، بعد تعهد أستراليا مساندة بريطانيا في الحرب.

في مواجهة الأنفلونزا الكبرى

لكن الأعوام التالية كانت تحمل للأسبيرين مفاجأة أخرى. فقد تفشّى وباء الأنفلونزا في العالم في العامين 1918 و1919م في أحد أشكاله الأكثر خطورة مسبباً كارثة تاريخية تخطى عدد ضحاياها خمسة أضعاف ضحايا الحرب. وأودى بأرواح سكان المناطق النائية والمدن الكبرى على حد سواء. وكان الأسبيرين العقار الوحيد الذي أثبت فاعليته في هذا المجال، فنجح في خفض حمى المريض والتخفيف من حدة الألم في عضلاته ومفاصله، مانحاً أنظمة الدفاع الطبيعية في جسمه فرصة المقاومة. وصحيح أن الأسبيرين لم يشفِ حالةً واحدةً من الأنفلونزا، لكنه ساعد الملايين في معركتهم ضد الفيروس، فأسهم من دون شك في إنقاذ أرواح عدة. لقد رسّخت تلك المأساة شهرة العقار وصيته بطريقة متميزة لم يوفر أي شيء آخر مثيلاً لها؛ وارتفعت نسبة مبيعاته في سائر أنحاء العالم.

الأسبيرين.. عقار القرن القادم

أحكم الأسبيرين سيطرته كلياً على سوق المسكنات العالمية لأكثر من خمسين عاماً، لكن بعد ذلك راحت عقاقير «البانادول» و«الأيبوبروفن» وغيرهما من العقاقير الجديدة المنافسة له تحتل موقعه. فكان مصيره مصير منافسيه من المسكنات وعقاقير معالجة الحرارة التي سحقها في شبابه. ولعل تحوله لمكون رخيص في علاجات الزكام والأنفلونزا جعله يحافظ على نسبة هائلة من البيع ويكتسب شعبية كبيرة في البلدان التي عجز سكانها عن تحمل كلفة البدائل الباهظة الثمن. لكن أيام العظمة التي عرفها في أكبر الأسواق وأكثرها ربحية قد انقضت. وعندما بدا أنه خسر كل ما يملك، طرح أحدهم سؤالاً: ماهي بالضبط آلية عمل الأسبيرين؟ وأتت الإجابة لتُعيد له أمجاده. فكان العالم على وشك أن يشهد انبعاث الأسبيرين.

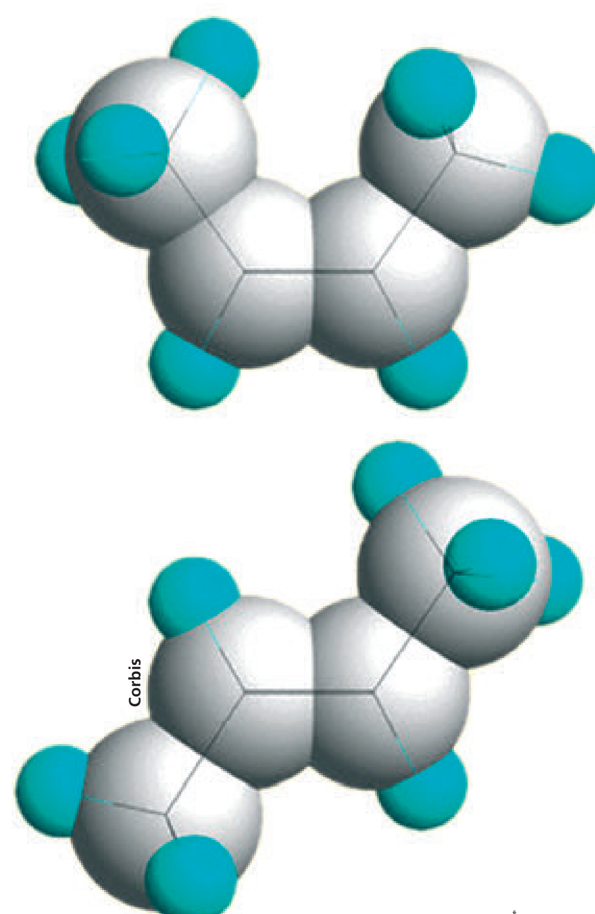
بعدما خسر الأسبيرين زعامته على الأدوية الأخرى لبعض الوقت، أدت دراسة آلية عمله مؤخراً إلى إعادة أمجاده إليه

عندما تُثار الخلايا، تفرز حمض الأرايكيدونيك، فتتكون أحماض البروستغلندين التي تتسبب بظهور الحمى أو الالتهاب والألم. يعوق الأسبيرين إنتاج البروستغلندين باعتراضه إنتاج أنزيم السيكلوكسجيناز الذي يولد البروستغلندين من حمض الأرايكيدونيك. وعلى سبيل التشبيه، لنفكر بسلسلة من قطع الدومينو تتساقط الواحدة فوق الأخرى محفزة سقوط القطعة التالية. ولنفكر بغرض نضعه بين قطعتي الدومينو الأولى والثانية والقطع الأخرى، يعوقها من السقوط فوقها. هذا في الواقع ما يفعله الأسبيرين. فهو إذ يحول دون إنتاج البروستغلندين، يمنع ظهور الحمى والالتهاب والألم.

وللأسبيرين ثلاث طرائق عمل أساسية يرتبط كل منها بمقدار الجرعة التي يتناولها المريض. ففي الجرعة العادية يعوق الأسبيرين البروستغلندين المسبِّب للألم. أما تناول جرعات أكبر من العقار، فيؤثر على التورم والحرارة والألم المرافقين للالتهاب. ولعل المفعول الثالث له هو الأكثر أهمية باعتباره يطال الدم.

أثره في وقاية القلب والشرايين

إن اللويحات الدموية التي تُشكل جزءاً من جهاز الجسم الدفاعي ضد النزيف، تنشط عندما تتلقى إشارة ما



حمض الأرايكيدونيك

يحفزها في العادة حمض الأرايكيدونيك الذي يعلمها بأن أحد الأوعية الدموية بدأ ينزف؛ فتتحرك سريعاً إلى موضع الوعاء المتضرر، وتلتحم في مجموعة لزجة تسد الثقب. وتنشأ هذه العملية التي تعرف بـ «تكدس اللويحات» عن أحد أنواع البروستغلندين. ولكن في بعض الأحيان، يمكن للويحات الدم أن تتجمع وتلتحم حتى إن لم يصب الجسم بأي جرح؛ فتتكدس في وعاء سليم، إنما مخدوش أو متقرح، مسببة ظهور ما يعرف بالحواجز المخثرة التي تعوق دفق الدم في الجسم وتسد الشرايين الحيوية. وإذ يمنع الأسبيرين اللويحات الدموية من الالتحام باعتراضه إنتاج أنزيم السيكلوكسجيناز؛ فإنه يحول دون حدوث الحواجز المخثرة.

تشكِّل الحواجز المخثرة أحد أسباب أمراض شرايين القلب والسكتات الدماغية. وفيما لا تزال أمراض القلب والشرايين السبب الأول للوفيات بين الذكور والإناث على المستوى العالمي؛ تحل السكتات الدماغية

في المرتبة الثانية في قائمة الأمراض الأكثر فتكاً في الغرب. وقد أفادت دراسة أمريكية أن تناول النساء اللاتي وصلن إلى منتصف العمر جرعات صغيرة من الأسبيرين بانتظام يمكن أن يخفض خطر إصابتهن بالسكتة الدماغية. وأما من تجاوزن الـ 65 عاماً، فإنه قد يمنع إصابتهن بالسكتة الدماغية والنوبات القلبية. وأظهرت نتائج هذه الدراسة عكس ما هو معروف عن مفعول الأسبيرين بالنسبة للرجال، إذ تبين أن فوائده في منع السكتة الدماغية محدودة وأن له قدرة كبيرة على منع المشكلات القلبية. وتكون النساء عرضة للإصابة بالسكتة الدماغية نسبياً أكثر من الرجال، في حين يصاب الرجال بالنوبة القلبية أكثر من النساء.

2000 دراسة علمية و12,000 تحقيق علمي ينشر عن الأسبيرين، وشركات الأدوية تصنع 40 ألف طن منه

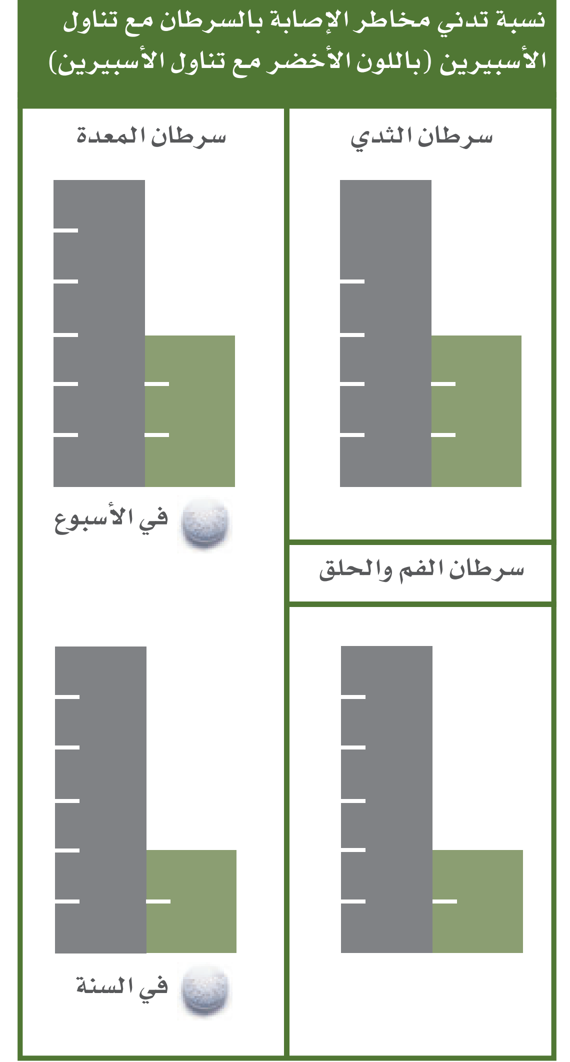
وكشفت دراسة أخرى أن الأسبيرين يقلل بدرجة كبيرة المخاطر الصحية التي يتعرض لها الذين تُجرى لهم عمليات لتغيير شرايين القلب، ويُؤمل في هذا الاكتشاف إنقاذ حياة نحو 25 ألف مريض سنوياً. فبحسب هذه الدراسة، وُجد أن إعطاء المرضى الأسبيرين في غضون 48 ساعة بعد العملية قلل معدل الوفيات بنسبة 68% ومعدلات الإصابة بالجلطات الدماغية بنسبة 62%، وخفض احتمال وقوع مشكلات في الكلية بنسبة 62%، كما خفض إمكانية الإصابة بأزمة قلبية للنصف تقريباً.

بعد ثبوت فائدة الأسبيرين في تقليل أو منع حصول تداعيات ومضاعفات أمراض شرايين القلب، طرح نفسه كدواء محتمل الفائدة كأحد عناصر الوقاية من الإصابة بأمراض شرايين القلب لمن لم تسبق إصابتهم بها، بعد أن فصلت كثير من دراسات المراجعة في شأن ذلك.

ويعتمد الأساس في النصيحة الطبية بتناول الأسبيرين أو عدم تناوله لمن لم تسبق إصابتهم بأمراض شرايين القلب على النسبة المئوية لاحتمال إصابتهم بها خلال السنوات العشر القادمة من عمرهم. ويعتمد تحديد هذه النسبة على مقدار العمر وضغط الدم ونسبة الكوليسترول والتدخين. والسبب في هذا التفصيل هو أنه كما للأسبيرين فوائد، فإن له آثاراً جانبية. والضابط في استخدام أي دواء هو حينما تغلب الفائدة المحتملة للتناول على الضرر المحتمل لذلك. فلو تجاوزت النسبة 15% فاحتمال الفائدة يغلب على الضرر، ولذا يُنصح الشخص بتناول الأسبيرين على سبيل الوقاية من تداعيات أمراض الشرايين، وإن كانت أقل من 6% فالضرر يغلب على الفائدة ولا يُنصح الشخص بتناوله للغاية المذكورة. كما أنه لا بد من الأخذ في عين الاعتبار وجود أمراض أخرى كدرجات الفشل الكلوي وغيرها التي قد تزيد من احتمال التعرض لتداعيات أمراض الشرايين، وهذا مما يُراجع فيه الطبيب.



أنزيم السيكلوكسجيناز



ويمتد دور الأسبيرين كدواء وقائي لأبعد من ذلك. فقد أظهرت الدراسات أن تناول جرعة صغيرة من الأسبيرين بانتظام يقلل مخاطر الإصابة بسرطان الفم والحلق والمريء بنحو الثلثين، وأن تناول حبة واحدة منه في السنة يخفض خطر إصابة الجزء السفلي من المعدة بالسرطان بمعدل الثلث، وتناول حبة منه أسبوعياً قد يخفض هذا الخطر بحدود النصف تقريباً. وأثبتت دراسات أخرى مفعوله الوقائي المحتمل على سرطان الجلد بأشكاله المختلفة وسرطان المبيض وسرطان الثدي الذي يقع في المرتبة الثانية من قائمة أكثر الأمراض السرطانية شيوعاً بين النساء بعد سرطان الرئة. وبحسب نتائج إحدى الدراسات يقلص الأسبيرين احتمال الإصابة بسرطان الثدي بنسبة 50%. وتُشير الدراسات أن تناوله لفترة طويلة يقلل نسبة حدوث الساد العيني (الكتاركت)، وبالتالي من نسبة حدوث العمى.

هذه إشارة إلى بعض فوائد الأسبيرين المكتشفة حديثاً، إضافة إلى المعروفة منها. وتُشير الإحصاءات الحديثة إلى نشر ألفي دراسة علمية سنوياً عن الأسبيرين و12 ألف تحقيق علمي. وتصنع شركات الأدوية 40 ألف طن من الأسبيرين سنوياً، أي بمعدل مائة طن في اليوم. وهناك مائة مليون شخص يتناولون الأسبيرين حول العالم يومياً.

لو لم يكن للصدفة في بعض الأحيان من دور كبير في تطور الأسبيرين، لما أبصر هذا العقار النور يوماً. ولو أنه لم يناضل في غمرة المنافسة التي تسيرها الرغبة في تحقيق الربح، ما كان له أن يعمر طويلاً ويكشف عن أسراره العلاجية المهمة. لقد بات الأسبيرين دواءً لكل إنسان، وعلاجاً غير مكلف تطال فوائده أكثر من داء، حتى أنه يصعب علينا تصور ما قد تكون عليه الحياة من دونه. وقليلة هي ثمار العبقرية البشرية التي يمكن أن نقول فيها أشياء مماثلة.

التأثيرات الجانبية للأسبيرين

رغم الفوائد الكثيرة للأسبيرين إلا أنه لا يخلو من الآثار الجانبية، وتتفاوت تلك الآثار بحسب كمية الجرعة وعدد الجرعات. فكلما زادت كمية الجرعات أو عددها زادت الآثار الجانبية، وأهمها اضطرابات المعدة على هيئة غثيان وإحساس بحرقة في المعدة، وقد يصل الأثر إلى قرحة في المعدة. ويعود سبب ذلك إلى تثبيط الأسبيرين لمادة البروستغلندين التي تساعد على زيادة تصنيع المادة المخاطية التي تحمي المعدة من الوسط الحمضي الذي تعيش فيه؛ ولذلك يُنصح بعدم تناوله على معدة خالية، أو تناوله مع مضادات الحموضة أو مع الحليب. كما يُفضل عدم تناول الأسبيرين مع القهوة والشاي؛ لأن ذلك يساعد على تهيج جدران المعدة.

قد يتسبب العلاج بالأسبيرين لفترة طويلة ولو بجرعات صغيرة بالإصابة بنزيف داخلي. والجرعات الزائدة منه تُسمم الجسم مسببة الصداع وضعف السمع وطنيناً بالأذن وعتمة في الرؤية وزيادة في إفراز العرق وإحساساً بالعطش وغثياناً وقيئاً مع اضطراب في عملية الهضم وآلام بالجزء العلوي من المعدة؛ وقد يتطور الأمر للهلوسة والتشنجات مؤدياً للوفاة في حال عدم التدخل الطبي أو الإسعاف الأولي. وتراوح الجرعات العلاجية للأسبيرين بين 10–15 ملغ / كجم من وزن الجسم، وتبدأ الجرعات السامة من 150 ملغ / كجم من وزن الجسم.

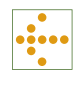
ولا يستخدم الأسبيرين للأطفال دون وصفة طبية؛ لأنه قد يصيبهم بمتلازمة «راي»؛ وهي مرض يهدد حياتهم نتيجة تعاطيهم الأسبيرين أثناء إصابتهم بالأمراض الفيروسية أو المعدية كالأنفلونزا والجدري المائي. وتظهر أعراضها في مرحلة التعافي من المرض الفيروسي أو المعدي. تصيب متلازمة «راي» الكبد والمخ والجهاز العصبي، ومن يصاب بها قد يموت أو يعيش بتلف دائم بالمخ.

عندما يشتد الألم على أي شخص يسارع إلى تعاطي مسكنات الألم التي يباع أكثرها في الصيدليات دون وصفة طبية. وبالرغم من لجوء غالبية المرضى إلى المسكنات، تؤكد الدراسات أن الاستخدام المنتظم والطويل الأمد لها يضر كثيراً على المدى البعيد، ويؤثِّر على الصحة سلباً.

يقول سيمور داياموند، مؤسس عيادة داياموند لآلام الرأس في شيكاغو، والرئيس التنفيذي للمؤسسة الوطنية لآلام الرأس: «أعتقد أن الاستخدام المفرط للمسكنات يخفض من مستوى السيروتونين وهي مادة كيميائية في الدماغ. ومن شأن هذا أن يحدث تغييراً بشأن الكيفية التي يشعر بها الشخص بالألم». فالاستخدام المفرط للمسكنات يبدو أنه يخفض من قدرة الشخص على تحمل الحد الأدنى من الألم، ولذا يبدأ هؤلاء الأشخاص بالحاجة للمسكنات كي يشعروا بأنهم طبيعيون.

قصة ابتكار

الملعقة المسنَّنة
spork



ثمـة أداة لتناول الطعام لا عهدة لنـا بها، بدأت تطالعنا أكثر فأكثر، وخاصة في مطاعم الوجبات السريعة. إنها الملعقة المسننة عند طرفها.

فبعـد الملعقـة المعروفة منذ فجر التاريخ فـي كل الحضارات، والشوكة التي ظهرت ملامحهـا الأولـى قبـل نحو ألفـي سنة، ونجـح الأوروبيـون في ترويجهـا بعد القرن السادس عشر، تظهر اليوم هذه الأداة الجديدة التي هي نصف ملعقة ونصف شوكة، ولهذا سميت رسمياً في براءتي الاختراع عند تسجيلها «سبورك»، والكلمة مؤلفة من النصـف الأول لاسم الملعقة والنصف الثاني من اسم الشوكة بالإنجليزية (spoon, fork).

وهـذا الابتـكار ليس جديـداً تمامـاً، ولكن رواجه تطلـب وقتاً يناهـز القرنين من الزمـن. فقد ظهرت أداة مشابهة كانت مخصصة لتناول المثلجات في أمريكا في مطلـع القرن التاسـع عشر، وتم تسجيلها كاختراع جديد فـي العام 1874م، ولكن اسم «سبورك» لم يظهر إلا في مطلع القرن العشرين. واستناداً إلـى صحيفـة نيويـورك تايمـز فـي 20 ديسمبـر 1952م، حـاول شخـص من بنسلفانيـا تسجيل اسم «سبـورك» كعلامة تجارية، ولكـن ذلـك لـم يُحفـظ فـي السجـلات، لأن شركـة «بلاستيكو» البريطانية هي التي سجلت الاسم في العام 1975م، في المملكة المتحدة.

والفكـرة الأساسيـة التـي يقـوم عليها هـذا الابتكار هو جمـع أداتي طعـام في واحدة تسمح باستعمالها كشوكـة وكملعقة في آنٍ واحدٍ. وإضافـة إلـى أنها سهَّلت تناول بعض الأطعمة التـي تختلط فيها الأجسـام الصلبـة بالسائلـة أو شبـة السائلة، وجـدت فيها مطاعم الوجبـات السريعـة أداة توفير عملية، تختصـر تكلفة الأدوات التي تقدِّمهـا مجانـاً مع الوجبـة، إذ صـارت ترفق وجباتها بـ «سبورك» بدلاً من ملعقة وشوكة.

إضافـة إلـى ذلـك، وجـد هـذا الابتـكار قبـولاً فـي السجـون، حيث يختصـر عـدد الأدوات المعدنيـة بيـن أيـدي السجنـاء، وخاصـة الشوكـة التقليديـة ذات الأسنـان الطويلة التي يمكـن استخدامها كسـلاح. كمـا لقـي الابتـكار نفسـه رواجـاً فـي الثكنـات العسكرية، وحيثما ظهـرت الحاجة لتخفيض المصاريف والمجهود المبذول على التنظيف.


www.long-distancebackpacking.com

وبسبب طابعها العملي، وبعدما كانت الـ «سبورك» تنتج بشكل عام من البلاستيك للاستخـدام مـرة واحـدة فـي مطاعـم الوجبـات السريعـة، صـارت تصنـع مـن الستنلس ستيل والألومنيوم والتيتانيوم للاستخدام الدائم في البيوت. وفرضت نفسهـا حتـى على أعرق دور صناعة أدوات الطعـام الفاخرة من الفضة في فرنسا وبريطانيا.

قصة مبتكر

جورج إيستمان

مطوِّر التصوير الضوئي

ولـد جـورج إيستمان في ولاية نيويورك عـام 1854م، وأوقف عن الدراسة الثانوية عندمـا كان فـي الرابعة عشرة من عمره لأنـه «غير موهوب بشكل لافت»، فاضطر إلـى العمـل حاجباً فـي شركة تأمين لإعالة أمـه الأرملة وشقيقتيه. ومن ثـم انتقل إلى العمل حاجباً أيضاً في أحد المصارف.

كان إيستمان في الرابعة والعشرين من عمره عندما خطَّط لرحلة إلى جمهورية الدومينيكان. ونصحه أحد معارفه في العمل بتسجيل مشاهداته، الأمر الذي وضع إيستمان لأول مرة أمام آلـة التصويـر الفوتوغرافي التـي كانت في زمنه بحجم فرن الميكروويـف اليوم، وتعتمد على الشرائـح الرطبـة لالتقـاط الصـور. لم يسافـر إيستمان إلـى الدومينيكان، ولكنـه شغف بآلته الجديـدة. وقـرأ ذات مـرة فـي إحـدى الصحـف أن المصورين فـي بريطانيا يصنعـون شرائح التصويـر الرطبـة بأنفسهـم. فتعلَّـم صناعتهـا، وشاء تطويرهـا لتصبح جافة. وطـوال سنوات ثـلاث، كان إيستمـان يعمل نهاراً في المصرف، وينصـرف ليلاً لتطوير شرائح التصوير، حتى تمكَّـن مـن إنتاج شريحة جافـة. ثم بدأ ببيع ابتكاره لباقي المصوِّريـن. وعندما استأجر مكتباً لذلـك، واضطر إلى شراء محـرك كهربائي بقوة حصانين، علَّق على الأمر بقولـه: «إنـي بحاجة إلى محـرك بقوة حصان واحد، ولكـن من الممكن أن تزدهر الأعمال في المستقبل وأستفيد من قوة الحصانين»!.

تفانـى إيستمان فـي عمله وفي تطوير مستلزمـات التصوير، فابتكر لاحقاً لفافـة الفلـم عـام 1885م، التـي تسهِّـل التقـاط عـدة صور مـن دون تبديل الشريحـة بعـد كل صورة. وهو الابتـكار الذي لولاه لمـا كان هناك تصوير سينمائـي. وفي العام 1892م، أسـس شركة «كوداك» لصناعة آلات التصوير المحمولـة، ذات العدسـة الثابتة، لينقل بذلك التصويـر الفوتوغرافي من عالـم النخبـة والهـواة إلـى كل مـن يشـاء من عامـة الناس. وقالـت حملته الترويجيـة للاختـراع الجديـد: «عليـك أن تضغط على الـزر فقط، ونحن نتولـى الباقي». وبفعل متابعـة إيستمان لأدق تفاصيل العمل في مؤسسته، تمكَّـن مـن إيصالها إلى قمة النجـاح، وترويج منتجاتها فـي العالم بأسره، قبـل أن يتوفـى عـام 1932م، ووصفتـه صحيفـة نيويورك تايمـز آنذاك في افتتاحيتها بأنه أحد كبار الأساتذة في صياغة العالم المعاصر.


www.eastmanhouse.org

جمـع ايستمـان مـن نجاح أعمالـه وابتكاراته ثـروة عملاقة. كمـا جمع إلى عقله العلمي والإداري كرماً عزَّ نظيره. إذ بلغ مجموع التبرعات التي قدَّمها للمؤسسات الإنسانية والتعليمية نحو 75 مليون دولار وهي ثروة أسطورية بمقاييـس ذلك الزمن. إلى ذلـك اعتبر إيستمان رائداً في الإدارة الحديثة، إذ لـم يسبقـه أحد إلى معاملة أصغر العمـال شأناً بمثل الاحترام والتقدير الـذي عامـل بهما العمـال والموظفين في مؤسسته. وكانت نظريته تقول إن الابتـكار ورأس المـال لا يكفيان لنجاح الشركات، فلذلك لابد مـن إخلاص العمال. وهكذا، علـى سبيـل المثال، قام في العام 1919م بتوزيع ما قيمته عشرة ملايين دولار من أسهمه على العمال والموظفين في كوداك. «لأنه لا يجب أن يُكتفى بدفع الرواتب العادلة. فالإنتاج الجيد يتطلب أكثر من ذلك». ومثل هذه النظرة لم تكن فقط ريادية في ذلك الزمن، بل تكاد أن تكون عكس المتعارف عليه في العالم.

اطلب العلم

مرحلة الفوضى التكنولوجية

د. علياء الزيني *

عندما نتطلع اليوم إلى المنجزات التقنية التي كانت مصدر اعتزاز قبل عشر أو عشرين سنة، كثيراً ما ترتسم على وجوهنا ابتسامة تخفي شيئاً من التهكم على بساطة تلك المنجزات مقارنة بما تطورت إليه اليوم.

ومما لا شك فيه أن ابتسامة «التهكم» نفسها سترتسم على وجه من سيتذكر بعد عشرين سنة اللابتوب الحالي، والهاتف الخليوي الحالي، وحتى الأقمار الصناعية الحالية. ولكن هذه ليست المسألة.

المسألة أن المستقبل سيحمل نقداً قاسياً للدور البالغ الخطورة الذي لعبته التجارة والمصالح التجارية على حساب التطوير والبيئة على حد سواء. وربما سيُصار إلى وصف زمننا بأنه مرحلة الفوضى التكنولوجية.

ولنأخذ على سبيل المثال جهاز التلفزيون، ولنسأل: لماذا لا يتم دمج أجهزة الفيديو فيه بدلاً من بيعها منفصلة؟ التكنولوجيا اللازمة لذلك موجودة، ومع ذلك، تصر المصانع على بيعنا الجهازين منفصلين بدلاً من جهاز واحد. الأمر الذي يستهلك مواد أولية أكثر، ويزيد عدد الأجهزة الكهربائية في البيوت، وأيضاً كمية أسلاك الوصل اللازمة لذلك.

وهناك مثل ثانٍ أشارت إليه «القافلة» سابقاً في البحث الذي نشرته حول «البطارية»، وهو أن لكل هاتف خليوي طرازاً خاصاً من البطاريات لا يمكن استخدامه في طراز آخر. الأمر الذي يؤدي إلى ربط مصير جهاز الهاتف بالبطارية، بحيث يتم التخلص من الاثنين عندما يتعثر أداء أحدهما. لا بل يمكننا أن نسأل عن الدافع إلى تغيير طرز الهواتف الخليوية سنوياً، علماً بأن مواصفاتها التقنية، وحتى الجمالية الشكلية، لا تختلف كثيراً عن بعضها. ولماذا يتباهى منتجوها الكبار بإنزال عدد كبير من الطرز «المختلفة» سنوياً إلى الأسواق ضمن إنتاج الشركة الواحدة، وهم يتوقعون منا أن نشعر بالغبطة لهذه الوفرة في تعدد الاختيارات أمامنا.

لقد حصلت عمليات دمج تقنيات مختلفة في أجهزة موحدة. ولكن إلقاء نظرة عليها يؤكد أنها غالباً ما كانت تتم تحت ضغط المنفعة التجارية، وفي إطار المنافسة، مثل الراديو الذي دمج بجهاز تشغيل أشرطة الكاسيت، ومن ثم مع مشغِّل أقراص الفيديو والأسطوانات المضغوطة. فصار الجهاز الواحد يؤدي أربعة وظائف بدلاً من واحدة.

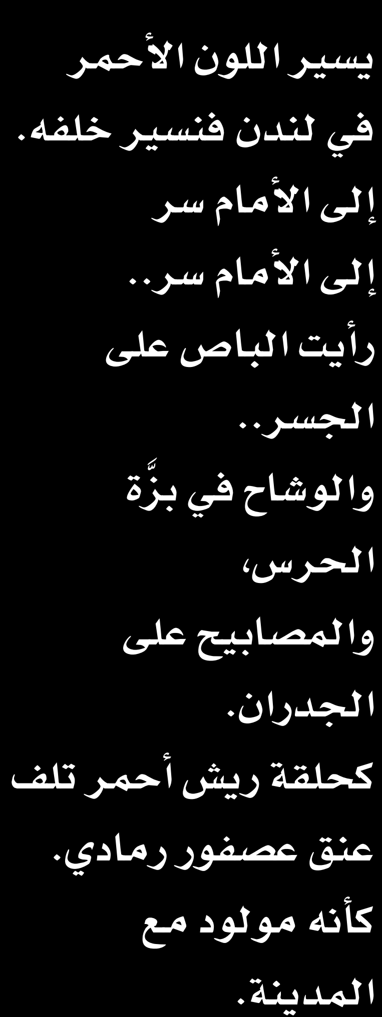
ولكن، حتى الآن، يبدو أن الحسابات التجارية لا تزال تقول إن بيع جهاز تلفزيون مستقل عن جهاز استقبال الإرسال وعن جهاز الفيديو لا يزال يدر أرباحاً أكثر من الدمج، ولو كان ذلك على حساب المستهلك واستنفاد المواد الأولية والموارد الطبيعية اللازمة لذلك.

الأمور ستتغير ولا شك. ربما سيحدث ذلك تحت ضغط من المستهلك على المنتجين، أو من خلال قوانين تضبط نوعيات الإنتاج. ولكن الأغلب هو أن يحصل ذلك في يوم من الأيام تحت ضغط المنافسة التجارية. ويكفي لذلك أن تقوم شركة واحدة مصنِّعة للتلفزيونات بدمج الأجهزة السمعية والبصرية الأخرى فيه، أو أن تقوم، على سبيل المثال أيضاً، شركة منتجة للهواتف الخليوية بتوحيد بطاريات أجهزتها لتتميز بذلك عن غيرها من الشركات التي لن تلبث أن تحذو حذوها. إنها مسألة وقت، ومسألة حسابات تجارية فقط.

* كاتبة مقيمة في باريس

الملف المصور

فيصل المالكي



يسير اللون الأحمر
في لندن فنسير خلفه.
إلى الأمام سر
إلى الأمام سر..
رأيت الباص على
الجسر..
والوشاح في بزَّة
الحرس،
والمصابيح على
الجدران.
كحلقة ريش أحمر تلف
عنق عصفور رمادي.
كأنه مولود مع
المدينة.



فيصل المالكي

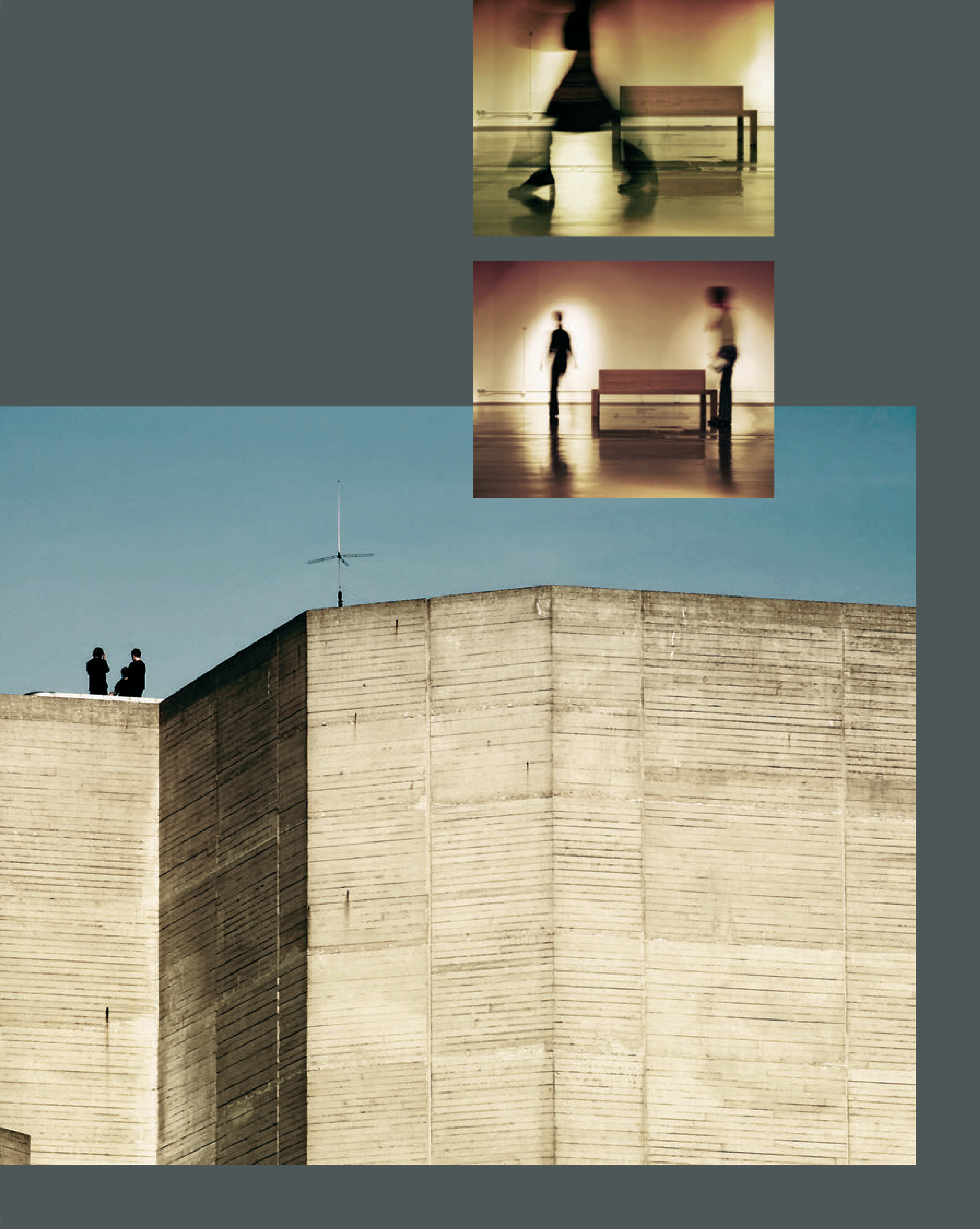
مصوِّر سعودي من مواليد العام 1976م. لم يتعارض تخصصه الجامعي في «التسويق» مع شغفه بفن التصوير، الذي تستوقفه فيه بشكل خاص اللقطات الهندسية والتجريدية المؤلفة من تكرار العناصر، أو من وجود عنصر «مشاغب» وسط الإيقاع المنضبط، كما تدل على ذلك هذه المجموعة من الصور التي عاد بها من رحلته الأخيرة إلى لندن. والمالكي حائز لجوائز عديدة أهمها «أفضل مصور بورتريه» من باريس، و«أفضل مصور فني» من نيويورك، واختير «مصور العام 2008» من قبل «الماسترز كاب» في لوس أنجلوس بأمريكا. سبق ونشرت أعماله في معظم المجلات العالمية المتخصصة في التصوير الفوتوغرافي.















على مائدة الطعام

سواء كانت طاولة من الخشب الإسباني الفاخر، أو بساطاً دائرياً من الحصير الفقير، أو قطعة من النايلون الرقيق.. تعددت الأصناف والاجتماع واحد. ففي أمس قريب، كان اجتماع العائلة على مائدة الطعام -أو سفرة الطعام في الدارج المحلي- مرة أو مرتين كل يوم، مفصلاً أساسياً من مفاصل الحياة اليومية في حياة العائلة العربية، واستراحة رغيدة في رحلة اليوم الأسري. ويبدو هذا التحلق التلقائي الحميم على صحفة الأكل ممارسة غذائية خالصة، إلا أنه من حيث لا نعلم، أثبت دوراً اجتماعياً وتربوياً ونفسياً جوهرياً في حياة الأسرة، نتلمسه اليوم إذ يتقلص حضوره في حياتنا، وتأثيره تبعاً لذلك.

لئن جاز لنا أن نتحدث عن مائدة الطعام بوصفها «فرداً» من أفراد الأسرة، فإن هذا الفرد كان يستمد حضوره من نسق حياة هادئة وقليلة التفاصيل، توفر الاستقرار الكافي لاجتماع الأسرة. فقد كان لهذا الفرد الفضل في توفير محطة للتزود بالدفء الأسري، و«ديوانية» مختصرة يلتقي فيها أفراد العائلة متجاورين متقاربين، تاركاً كلٌ منهم برنامجه الخاص، ليحضر هذا الالتفاف الحميم، يخبر كل منهم عن أخباره، أو يستمع لها. وكما أنه فرصة لغذاء البدن، فإن الوجبة العائلية كذلك فرصة لتغذية الوشائج الأسرية بين أفرادها، ووقفة للتزود بالوقود لدعم الروابط الإنسانية الخاصة بين الأخ والأخت، الوالدين والأبناء، والزوجة والزوج، حين تدور بينهم أحاديث منوعة كتنوع الطعام نفسه، بين حديث مالح وآخر حلو، وكلام مر أو حامض.

ويبدو الحديث عن الفوائد الغذائية والصحية لهذا المظهر والقيم الغذائية المثالية التي تثبتها الدراسات اليوم أمراً بديهياً وغنياً عن البيان. فالوجبة المعدة في المنزل فضلاً عن كونها أوفر حظاً في سلامتها كونها تُعد بشكل خاص وبعناية كافية، فإنها أيضاً تتيح مراعاة الحاجات الغذائية لكل فرد له احتياجه الخاص من الأطفال أو الكبار أو المرضى. كما توفِّر للجميع فرصة الحصول على غذاء صحي وحسب الرغبة، وليس محاصراً بـ «قائمة» طعام لا خروج منها بل وتُعد بكميات كبيرة كما يحدث في المطعم مثلاً. ومن المفارقة أن دراسة أمريكية أشارت إلى أن الأشخاص الذين اعتادوا على الوجبة العائلية اليومية في صغرهم يتمتعون في شبابهم بعادات غذائية أفضل من أولئك الذين تخلو طفولتهم من اجتماع الوجبة العائلية.

ويوفِّر الجلوس على مائدة الطعام المناخ التربوي المفيد لتعليم الأطفال والصغار بعض العادات الصالحة وآداب الأكل والشرب، بل وآداب الكلام والاستماع، وهم يشاهدون مَنْ هم أكبر منهم يمارسون تلك العادات أمامهم في شيء من التربية بالقدوة، ولعل من أجمل تلك اللمحات التربوية لاجتماع العائلة على مائدة الأكل، الالتزام العسكري أحياناً في وقت مُحدَّد متعارف عليه، وأحياناً من دون نداء، بموعد الطعام والاجتماع إليه، مما ينظِّم يوم الأسرة ويضبط إيقاعه، ويمثل تدريباً يومياً للأبناء والصغار وحتى الكبار يعلِّمهم الانضباط واحترام الوقت، ففي الساعة المحددة ثَمَّ غداء ينبغي حضوره، والتأخر عنه يعني فاتورة من الجوع تدفعها المعدة لقاء تخلف صاحبها عن موعده، وكذلك الحال في العشاء، ما يجعل الإيقاع في البيت كله رغم اختلاف برامجه متوافقاً وملتزماً.

حسناً.. لا بد من الإقرار بأنه ليس هناك تقارير ميدانية تؤكد انحسار دور الوجبة العائلية في حياتنا اليوم.. إلا أنه من الجلي أن معطيات يومية جديدة أخذت طريقها إلى يومنا لتزاحم هذا الحضور الأصيل لهذا النشاط الأسري، ويكاد ينعكس هذا الانحسار على الروابط الأسرية ذاتها، والعلاقات الخاصة بين أفرد البيت الواحد.

إن مائدة الطعام اليوم تقف بحزن على أطلال العائلة المجتمعة حولها بالأمس، حين لم يكن خيار المطاعم وتوصيل الطلبات التي راج سوقها متاحاً. إذ لم يعد مستغرباً أن ترى مشهداً يُطرق فيه باب المنزل مرتين في نفس الوقت، ثم تجد على الباب رجلين يوصلان طلبين مختلفين لنفس البيت، لشخصين مختلفين من نفس العائلة لا يعلم أحدهما عن الآخر.

أخذت الطاولة اليوم هيئة قاعات الاحتفالات الموسمية، فلم تعد تقوم بدور يتجاوز المناسبات الخاصة والاجتماعات العائلية الموسعة التي تحدث بين الحين والحين. وهكذا أصبح اليوم العائلي يمر من دون اجتماع حقيقي، ومن دون لقاء صافٍ من ارتباطات الحياة وصخبها وتفاصيلها.

أحمد المنعي



قضيتها ثقافية - علمية تزيدها التجارة تعقيداً

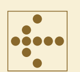
أسماء الأحجار الكريمة



بموازاة نمو تجارة المجوهرات المرصَّعة بأحجار كريمة الذي تشهده الأسواق العربية منذ سنوات، يزداد الحوار بين الباعة والمشترين تعقيداً. فكيف يمكن أن يكون لمعظم الأحجار الكريمة أكثر من اسم واحد للنوع الواحد، وأحياناً حتى خمسة أسماء؟ ولماذا تختلط الأسماء الأعجمية من يونانية ولاتينية وسينهالية على اللسان العربي؟ والأدهى من كل ذلك، هو أن الساعي إلى الاطلاع المعمق على أنواع الأحجار الكريمة بالعودة إلى المصادر العلمية سيجد نفسه أمام صورة أكثر تعقيداً على صعيد الأسماء، يحتاج توضيحها إلى جهد كبير.

عبود عطية يعرض الأوجه المختلفة لهذه القضية، على مستويات الموروث الثقافي وعلمي المعادن والجواهر، وأيضاً على المستوى التجاري بشقيه المشروع وغير المشروع.

Corbis



نظراً لارتفاع أثمانها، بحيث يمكن القول فعلاً إنها أغلى السلع ثمناً التي يتداولها الإنسان، تخضع تجارة الأحجار الكريمة لمقاييس بالغة الدقة. فيتم احتساب وزنها بواحد على مئة من القيراط، والقيراط يساوي 0.2 غرام.



«التنزانايت»، اكتشف عام 1967م، وأطلق عليه هذا الاسم من قبل دار المجوهرات تيفاني.. ولا مرادف عربي له

ويتم تصنيف نقائها من خلال عدسة مكبرة عشر مرات، وتحديد مدى تناسق القطع بجزء من الملليمتر الواحد. أما المفارقة المدهشة فهي أنه بموازاة هذه الدقة الفائقة، يبدو اسم الحجر ضبابياً، مطاطاً، قابلاً أحياناً للترجمة، وأحياناً غير قابل. وكثيراً ما تطالعنا أسماء فخمة لأحجار رخيصة وشائعة، وفي معظم الأحيان تطالعنا مجموعة أسماء للحجر الواحد.

فقد يعرض التاجر على المشتري حصاً من «السفير» الأزرق قائلاً إنه «ياقوت». وهو صادق في ذلك. ولكن بعض المشترين قد يندهشون لأن معلوماتهم تقول إن الياقوت أحمر اللون، وهم على حق أيضاً.

والمثل الذي نعرفه جميعاً هو البلور الصخري وهو الكوارتز عديم اللون الذي يستخرج بكثرة من الصحارى السعودية ويباع بعد صقله على أنه «ماس سعودي»! في حين أنه هو نفسه يباع في أوروبا على أنه «ماس بوهيميا» وفي أمريكا على أنه «ماس هاركيمار». وفي الإطار نفسه يمكن لبعض التجار أن يبيعوا أحجار «الغارنيت» الأحمر بأسعارها الحقيقية المنخفضة تحت اسم «ياقوت أريزونا»!

والذي يحاول الاستنجاد بالمراجع العربية القديمة لمعرفة الأسماء الحقيقية للأحجار سيجد نفسه في متاهة يفتش فيها، على سبيل المثال، عن الفرق بين ما سمَّاه العرب قديماً «العقيق» وبين ما سمّوه «العقيق اليماني» وهو حجر مختلف تماماً عن الأول.

ولا تشكِّل أسماء الأحجار الكريمة قضية أو معضلة في الأسواق العربية وحدها. بل هي قضية عالمية تشغل معظم أسواق العالم، حيث هناك جهد ملحوظ من قبل الجهات المعنية بتجارة الأحجار الكريمة، وبالتعاون مع الحكومات، لإزالة ما أمكن من اللغط حول أسماء الجواهر، وضبطها.



قلادة مرصَّعة بالسيترين والزمرد يتوسطها حص من البلور الصخري يسمَّى عندنا الماس السعودي، وفي أمريكا الماس كولورادو، وفي أوروبا الشرقية الماس بوهيميا.. الخ


قلادة يمكن وصفها بالقول: يتدلَّى منها ثلاثة حصوص من الغارنيت. كما يمكن القول حص من البيروب وحصَّان من السباسارتين

القضية في شقها العربي

يبلغ عـدد الأحجار الكريمة نحو 200 نوع وفرع. يدخل منها نحو 40 نوعاً في صناعة المجوهرات الرائجة في الأسواق، والباقي يهم الهواة بالدرجة الأولى، فيمكنهم أن يصنِّعوا مجوهراتهم الخاصة منه، أو يكتفوا باقتنائه للاستثمار، أو لمجرد الهواية.

من بين الأسماء التي أطلقها العرب هناك حفنة لا تزال رائجة لها، والباقي طواه الزمن وتطور الاكتشافات

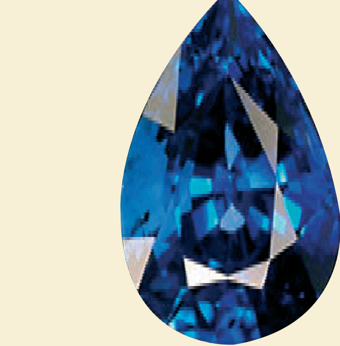
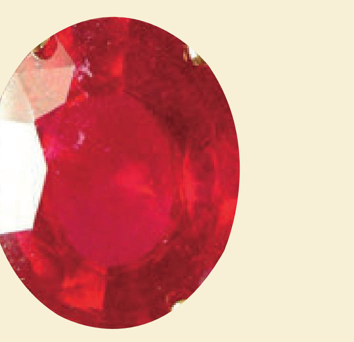
ولكـن من مجموع هـذه الأحجـار الكريمة، هنـاك حفنـة محدودة جـداً (نحو عشـرة فقط)، يشـار إليها بأسـماء عربية شـائعة ومفهومـة. والباقـي، أي نحـو 190 نوعـاً وفرعـاً، يحمـل أسـماءً أعجمية المصـدر واللفظ. وبعضها يحمل أكثر من اسم واحد.

فـي مواجهة هذه الإشـكالية، قـد يدعو البعض للعودة إلى الأسـماء التي أطلقهـا العلماء العرب قديمـاً على الأحجار الكريمـة، لاعتمادهـا دون غيرها. ومثل هـذه الدعوة تبدو منطقيـة، غيـر أن محاولـة التطبيـق تصـطدم بعراقيـل وتحديات يستحيل تجاوزها.

لا أحد يسـتطيع إنكار الجهـود الكبيرة التـي بذلها العلماء العـرب فـي مجال تصـنيف الأحجـار الكريمة التـي كانت معروفة في عصرهم، مثل البيروني الذي كان أول من درس الثقل النوعي للأحجار الكريمة (بهدف تمييز الأصلي منها عن المزيَّف، ومعرفة مقدار محتويات الخامات من المعادن الثمينة)، وابن منصـور الذي كان سباقاً إلى توصيف عدد كبير من الأحجار الكريمة علمياً.

ومـن الأسـماء التـي اسـتخدمها هـؤلاء هنـاك حفنـة لا تزال رائجة ومستخدمة في عصرنا: الماس، الياقوت، الفيـروز، الزبرجـد، الزمرد،الـلازورد، المرجـان، العقيق، اللؤلؤ... ولكن العلماء العرب اسـتخدموا أيضاً أسـماء خرجت مـن التداول نهائياً، بفعل الإهمال شـبه التام لهذا العلم منـذ بداية دولة المماليك وحتى القرن العشرين.

وإذا كان الباحـث يسـتطيع بشـيء من الجهد أن يكتشـف أن كلمـة «لَعْـلْ» كانت تطلق علـى الحجر الكريم المسـمى اليـوم بالإنجليزيـة «سـبينال» (Spinel)، وأن «البرهمن» هو الماس عديم اللون، و«الكشـتير» هـو الماس المائل إلى

الياقوت الأزرق (إلى اليمين) والياقوت الأحمر (في الوسط)، كلاهما من معدن الكورندوم، غير أن الغربيين فصلوا الأحمر وأطلقوا عليه اسم روبي. وكل الباقي سموه «سفاير». أما «الروبي» الشاحب اللون والرخيص نسبياً (إلى اليسار)، فيروجه التجار تحت اسم «السفير الوردي» الذي يؤمّن ثمناً أفضل



العنبر بألوانه المتعددة.. ومن أسمائه في الأسواق الشعبية الكوربا والكهرمان

الاصفرار، فإن هناك أسماء لا يمكن الجزم بما كانت تعنيه مثل «الزردول» و«التاربان».. الأمر الذي يؤدي إلى تخبط كل محاولة لمطابقة هذه الأسماء مع ما توصل إليه علم الأحجار الكريمة في العصر الحديث.

ففي محاولة لترجمة كتيب عن الإنجليزية، وجدنا المترجم يسعى إلى اعتماد ما أمكنه من الأسماء العربية القديمة، فأطلق اسم «العقيق» المرادف لكلمة «Agate» الإنجليزية على حجر «الغارنيت» الذي لا يمت بصلة لا من ناحية المكونات الكيميائية ولا من ناحية المواصفات البصرية إلى ما نعرفه اليوم باسم العقيق والذي كان يميزه العرب عن «الغارنيت» بتسميته «العقيق اليماني».

إلى ذلك، تجدر الإشارة إلى أنه ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين (عصر البيروني وابن منصور)، كان علم تصنيف الأحجار الكريمة في بداياته، والمعلومات العلمية قليلة للغاية. ولهذا لا يجب أن نستهجن خطأً فادحاً وقع فيه ابن سينا مثلاً عندما اعتبر الزمرد والزبرجد حجراً واحداً لأن كليهما أخضر اللون.

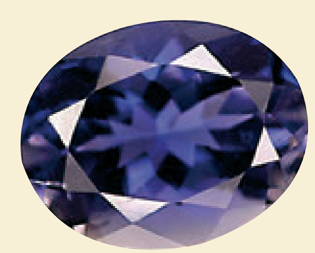
إن غالبية الأحجار الكريمة التي نعرفها تم اكتشافها خلال القرنين الماضيين. وهي الفترة التي غاب فيها العرب عن علمي المعادن والجواهر غياباً تاماً. فحملت الأحجار المكتشفة أسماءً غربية لا مرادف عربياً لها حتى يومنا



«الكونزايت» سمي كذلك على اسم مكتشفه في القرن التاسع عشر جورج فردريك كونز



..ولكن كونز أسمى حجراً آخر اكتشفه على اسم صديقه الثري ج. ب. مورغان



الفرنسيون سموا هذا الحجر «كورديبريت» تكريماً للعالِم كوردييه. والأمريكيون سموه «إيولايت» والاسمان رائجان عالمياً

هـذا. وغالبـاً ما يقوم المنهـج الغربي في تسـمية الأحجار الكريمة على اعتماد اسـم الشـخص المكتشـف أو الموقع الجغرافي وتضـاف إليه اللاحقة «آيـت» أو «لايت» من كلمة «lithos» اليونانيـة التـي تعنـي «حجراً». مثـل «الكونزايت» نسبة إلى مكتشفه عالِم الجواهر الأمريكي جورج فريدريك كونز، أو «التنزانايت» نسبة إلى تنزانيا، البلاد التي اكتشف فيهـا هذا الحجـر. ولهذا، عندما نقرأ فـي بعض الكتب أن اسـم هذا الحجر هـو من أصـل يوناني أو لاتينـي، فهذا لا يعني بالضـرورة (وربما أبداً) أن هذا الحجر كان مكتشـفاً في العصر اليوناني أو الروماني.

القضية في شقها الغربي بين العملاء والتجار

لو تركنا جانباً الشـق المتعلّق بأسـماء الأحجار الكريمة في ثقافتنا، لوجدنا أيضـاً أن هذه الأسماء تشكِّل معضلة كبيرة حتى في الغرب نفسـه، تسعى الحكومات والهيئات الرسمية إلى إيجاد حلول لها. ولكي نفهم أبعاد هذه القضية وصعوبة حلها، لا بد من البدء بشـيء من علم الكيمياء قبل الوصول إلى احتيال بعض التجار.

يتشـكَّل كل حجر كريم من معدن أساسي (Mineral)، يطلق عليـه علمـاء المعـادن اسـماً يختصـر تركيبتـه الكيميائية. فأوكسـيد الألومنيوم مثلاً يسـمى في قاموسـهم «كورندوم». ولكن كل الأحجار الكريمة تقريباً تحتوي على ما يعرف باسـم «عناصـر المقادير الضـئيلة» التي لا يؤتى على ذكرها ضـمن التركيبة الكيميائية للحجر، فيترك علماء المعادن إلى علماء الجواهـر أمر الاهتمام بها. ففي إطار المثل نفسـه، يمكن أن يختلـط معدن الكورندوم عديم اللون بنسـبة ضـئيلة جداً من معدن الكروم فيصطبغ باللون الأحمر، ويسميه علماء الجواهر «الياقـوت الأحمـر» (Ruby)، أمـا إذا كانـت هـذه المقادير الضـئيلة من الحديد والتيتانيوم، فيصطبغ الكورندوم باللون الأزرق، ليسمى «ياقوت أزرق» (Sapphire).

وفي عالم الأحجار الكريمة وسوقها، يمكن لاختلاف بسيط جـداً في اللون، ضـمن النـوع الواحد، أن ينعكـس اختلافاً كبيراً في السـعر. ولذا وجد التجار أنفسـهم مدفوعين إلى إطلاق أسـماء مختلفة علـى أحجار من نـوع واحد، ولكنها تختلـف عن بعضهـا على صـعيد اللون. فحجـر التورمالين مثلاً عندما يكون أحمر بلون الدم، هو أغلى بعدة مرات من



العقيق اسم يجمع عشرات الأسماء (نحو المئة) بناءً على تفعيلاته الشكلية واللونية

التورمالين الوردي، ولذا سمى التجار الأول «روبيلايت»، وتركوا للثاني الاسم البسيط «التورمالين الوردي». فمثل هذه الأسماء المحددة تساعد التجار على التفاهم فيما بينهم، وتزيل الكثير من الالتباسات المحتملة.

ولكن المشكلة تكمن في أن بعض التجار تجاوز الحدود المقبولة في هذا المجال. فبهدف إيهام الزبائن الواقفين أمام أحجار رخيصة أو متوسطة الثمن، أنهم أمام جواهر ثمينة، أطلق بعض التجار أسماءً على بعض الأحجار لا علاقة لها بحقيقتها، ولكنها توحي بالفخامة، وتزعم صلة قربى بأحجار أخرى غالية الثمن. مثل الكوارتز عديم اللون الذي صار اسمه «ماس سعودي» أو «ماس بوهيميا»، أو «ماس كولورادو»، و «التورمالين الأزرق» ذو الاسم التجاري المقبول «إنديكولايت» أصبح عندهم «ياقوت الأورال»، وغير ذلك الكثير.

في مواجهة الجهد العالمي الذي تقوده (CIBJO) لضبط الأسماء، هناك دول مثل البرازيل ترفض المشاركة. فلماذا؟

جهد عالمي لوقف الفوضى

مع انتعاش حركة التجارة العالمية غداة الحرب العالمية الثانية، وبسبب تعدد أسماء المعادن في دول عديدة، خاصة بسبب تزامن الاكتشافات، ولوضع حد لهذه الفوضى في إطلاق الأسماء كيفما اتفق على المعادن والأحجار الكريمة، تأسست «الهيئة العالمية لعلم المعادن» التي عقدت أول اجتماع لها في زوريخ بسويسرا عام 1959م، لتتولى التصنيف العلمي وتحديد الأسماء المعتمدة. أما الأسماء التجارية للأحجار الكريمة المختلفة ضمن المعادن المختلفة، فتضبطها هيئة تأسست لاحقاً، سمت نفسها «الاتحاد الدولي لصناعة الحلي والمجوهرات وصياغة الماس واللؤلؤ والأحجار» (Confederation Internationale de la Bijouterie, Joaillerie, Orfevrerie des Diamants, Perles, et Pierres)، ويبدو واضحاً أن هذه الهيئة التي يفترض أن تتولى اختيار أسماء الأحجار الكريمة فشلت في اختيار اسم معقول لنفسها، فصارت تعرف اختصاراً بـ (CIBJO).

وفي البلدان التي انضمت إلى الـ (CIBJO)، مثل دول الاتحاد الأوروبي وأمريكا، صارت هناك مجموعة من الأسماء تعرف «بالأسماء الممنوعة»، وتتألف بشكل خاص من أسماء التفخيم. فلم يعد مسموحاً ذكرها في إيصالات البيع والشراء ولا في وثائق الاستيراد والتصدير وغير ذلك من المعاملات الرسمية والقانونية. ولكن ذلك لم يحل المشكلة تماماً، لأن بعض التجار ما زال يحاول التملص من هذا القيد حيثما استطاع. والأهم من ذلك، هو أن دولاً عديدة منتجة للأحجار الكريمة لم تنضم إلى الـ «CIBJO»، ومنها البرازيل، المنتج الأكبر للأحجار الملونة في العالم.

عندما يساوي الاسم ثروة تورمالين باراييبا مثلاً

لماذا ترفض دولة مثل البرازيل مشروعاً عالمياً لضبط أسماء الأحجار الكريمة؟

هناك قصة مثيرة يمكننا أن نرويها على سبيل المثال الرمزي، الذي لا يختصر إلا جانباً صغيراً من عالم تجارة الأحجار الكريمة، ولكنه بالغ الوضوح.

في العام 1989م، اكتشف في ولاية باراييبا البرازيلية نوع جديد من التورمالين متميز بلونه الأزرق والأخضر البرَّاق جداً حتى حدود الإضاءة. وسُمِّي أولاً «التورمالين الكهربائي» أو «تورمالين النيون»، لأن بريقه يشبه ضوء النيون المستخدم في الإعلانات، ومن ثم «تورمالين باراييبا».



قلادة من التورمالين بلونيه الأحمر والأسود ويصح القول أيضاً من الروبيليت والشورل

واعترفت «CIBJO» بالاسم الأخير، بعدما تبين أن هذا النوع من التورمالين النادر جداً يعود لونه إلى مقادير ضئيلة (نحو 1%) من النحاس، تميزه علمياً عن باقي الأنواع.

تجاوزت أسعار هذا التورمالين فور طرحه في الأسواق أسعار الماس. وصار الحص الذي يزن قيراطين يباع بما يتراوح بين 5 و10 آلاف دولار للقيراط الواحد، أما الحص الذي يزن أربعة قراريط، فيبلغ ثمنه نحو 20 ألف دولار للقيراط الواحد.

في غياب الدراية بعالم الأحجار الكريمة وأسمائها، يجد المتسوق نفسه تحت رحمة التاجر في سوق بالغة الحساسية تجاه الاستقامة

وظهرت المشكلة عام 2001م، عندما اكتشف النوع نفسه في نيجيريا، وراح النيجيريون يبيعونه تحت اسم «تورمالين بارايبا» الأمر الذي أثار هلع المستثمرين البرازيليين من المنافسة وتدني الأسعار. فثارت ثائرتهم وحاولوا منع النيجيريين من استخدام الاسم، لأن «بارايبا» تشير إلى موطن محدد. وبفعل هذا الضغط، كان النيجيريون يسوقون هذا التورمالين بنحو نصف ثمن مثيله البرازيلي.

وازداد الطين بلة عام 2005م، عندما اكتشف النوع نفسه في الموزامبيق. واحتدم الجدل في الأسواق وفي المنتديات (ولا يزال مستمراً حتى اليوم)، حول حق الأفارقة في استخدام الاسم البرازيلي.

في العام 2006م، أوصى «المؤتمر الدولي لصناعة الأحجار الكريمة ومختبراتها» المنعقد في أريزونا بأمريكا، باعتماد اسم «تورمالين بارايبا» كاسم للنوع، وليس كمصدر جغرافي. وأوكل مهمة تحديد مواصفات هذا التورمالين، وإمكانية ذكر مصدره الجغرافي إلى «اللجنة الدولية لتنسيق دليل المختبرات» المنبثقة عن سبعة من أكبر مختبرات العالم. وبعد أشهر من العمل الشاق، تأكدت هذه المختبرات من صعوبة تمييز المنشأ في بعض الحالات، واستحالته في حالات أخرى، فأقرت باعتماد اسم «تورمالين بارايبا» لكل التورمالين الأزرق والأخضر الذي يكتسب لونه المميز المضيء من مقادير قليلة من النحاس. فهُزِم البرازيليون، وقبلوا بهزيمتهم على مضض، خاصة وأن قلقهم على استثماراتهم قد تبدد لأن الإنتاج الإفريقي من هذا التورمالين ضئيل جداً شأنه شأن إنتاجهم، ولا خوف على الأسعار من الهبوط. أما الجائزة الكبرى فكانت من نصيب الذين استثمروا في التورمالين الإفريقي، وبات بمقدورهم بين ليلة وضحاها بيعه بأسعار مضاعفة.

عربياً لابد من البحث عن حل

عندما نتطلع إلى واقع الحال في الأسواق العربية نكتشف أن نمو تجارة المجوهرات المرصعة بأحجار كريمة هو أكبر بكثير من نمو الدراية بعالمها، خاصة في صفوف



قلادة من الزبرجد تحيط به حصوص صغيرة من الزمرد.. أما بالنسبة لابن سينا فالحجران واحد



«الأميتيست» سماه العرب قديماً «الجمشت» مستوحين أصل اسمه اليوناني، الذي عاد مجدداً إلى الاستعمال



عقد من الأكوامارين الذي سماه العرب قديماً «الزمرد الريحاني». ولكن إحياء الاسم العربي القديم حتى ولو كان ممكناً، بات يتعارض مع فلسفة CIBJO التي تمنع الأسماء التي توحي بصلة قربى مع أحجار أخرى أغلى ثمناً

المستهلكين. الأمر الذي يضعهم في معظم الأحيان تحت رحمة التاجر واستقامته، في سوق بالغة الحساسية تجاه الاستقامة.

ونشر ثقافة الحجر الكريم لا بد وأن تبدأ باسمه. وفي هذا المجال، يقول أحد التجار إنه عندما يستقبل مشترياً يطلب منه «ياقوتاً أزرق»، يعرف فوراً أن هذا الشخص هو جديد تماماً على هذا العالم، لأنه لو كان متردداً عليه لطلب الحجر نفسه بالاسم الإنجليزي «سفاير».

تورمالين باراييبا النادر.. خلاف إفريقي برازيلي على الحق في استخدام الاسم، حسمه مؤتمر عقد في أمريكا

ففي غياب أي جهد لتعريب أسماء الأحجار الكريمة وضبطها، راجت الأسماء الأجنبية: توباز، سيترين، تنزانايت، أماتيست..الخ. وبسبب عولمة تجارة الأحجار الكريمة، (وهي للمناسبة السلعة التي سبقت كل سلع العالم إلى العولمة منذ أكثر من ألفي سنة)، وكثرة الأجانب العاملين في صناعة الأحجار الكريمة والمجوهرات في الأسواق العربية، وأيضاً التجارة الإلكترونية، بدأت الأسماء الأجنبية تزاحم على الألسنة حتى الأسماء العربية التي لا تزال شائعة ومفهومة. فالياقوت الأحمر يسمى أيضاً «روبي»، والفيروز يتقاسم اللسان مع «توركواز» والزبرجد مع «بيريدوت»..الخ.

فلو شئنا أن نجمل هذه القضية على المستوى العربي، لقلنا إن هناك أسماء عربية لا تزال صحيحة علمياً ومفهومة وشائعة إلى حد ما ،ويجب أن تكون هناك جهة تعمل على اعتمادها وترويجها.

أما الأحجار التي اكتشفت في القرون الأخيرة، وحملت أسماء أجنبية، فلا مناص من اعتمادها كما هي، ولا مجال في تعريبها غير التلاعب ببعض الحركات أو أحرف العلة تسهيلاً للفظها. وهذا أمر تتولاه ألسنة العامة بسهولة. المهم، أن تكون هيئة عربية حكومية-علمية، تتولى مهمة ضبط أسماء الأحجار الكريمة، وتعمل وفق بوصلتين:
أولاً: البوصلة اللغوية الثقافية التي تحترم الموروث الثقافي العربي حتى أقصى حد ممكن.
ثانياً: بوصلة الفلسفة التي كانت وراء إنشاء هيئة مثل «CIBJO»، وغايتها وقاية المستهلك من الوقوع ضحية أي لبس أو غموض في هوية حجر كريم معيَّن.

ففي سوق يبلغ حجم تجارتها أكثر من مليار دولار في دولة عربية واحدة، من شبه المؤكد أن نسبة مئوية ملحوظة مما يدفعه المستهلك يذهب هباءً بسبب قلة الدراية، وترك الأمور لمشيئة تجار التجزئة.
أفلا تستحق هذه الملايين المهدورة هيئة تنقذها؟

صورة شخصية

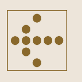


اختيرت في كتاب «مسلمون مرموقون» ضمن قائمة المئة مسلم الأكثر تأثيراً في عالمنا اليوم. إنها الدكتورة ثريا عبيد التي تشغل اليوم منصب المديرة التنفيذية لصندوق الأمم المتحدة للسكان. رانيا منير* ترسم لنا صورة الدكتورة عبيد، وتروي حكاية كفاحها الطويل الذي جعل منها السيدة السعودية الأولى التي ترأس وكالة تابعة للأمم المتحدة.

الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير

ثريا عبيد

من الكُتَّاب في مكة المكرمة إلى الأمم المتحدة



في الثامنة عشرة من عمرها، وجدت ثريا عبيد نفسها أمام تحدٍ لن يقرر مصيرها وحدها وإنما مصير كلٍ بنات جيلها. فقد عاشت في فترة لم تكن فيها الأوضاع الاجتماعية في السعودية تسمح بتعليم الفتاة. ولكن ثريا ذهبت وهي في الثالثة من عمرها إلى الكُتَّاب في مكة المكرمة. وفي السابعة، أُرسلت إلى مدرسة داخلية في القاهرة. وعندما أصبحت في الثامنة عشرة، كانت تكاليف التعليم باهظة، ولم تكن لأسرتها البسيطة والمحبة للعلم القدرة على تحملها، فتقدَّمت بطلب منحة دراسية من الملك فيصل بن عبد العزيز، رحمه الله، وجاءتها الموافقة المشروطة بأن تتفوق وتنهي الفصل الأول من السنة الدراسية الأولى. «ستكونين الفتاة السعودية الوحيدة الحاصلة على منحة دراسية في أمريكا حتى تنتهين من التعليم الجامعي. فإذا نجحت فتحت الأبواب وإذا فشلت أغلقتها».

صعوبات الريادة

لم تكن مصاعب الدراسة والخوف من الفشل والمسؤولية الكبيرة التي ألقيت على عاتقها المصدر الوحيد للضغوط التي واجهتها في أمريكا. بل كان هناك أيضاً نظرة المجتمع الأمريكي لها، والصورة النمطية التي كان يحملها الأمريكيون عن الإنسان المسلم والسعودي بشكل خاص. ولكن ذلك لم يهزمها معنوياً ولم يثبط من عزيمتها؛ بل دفعها إلى محاولة تغيير تلك الصورة النمطية من خلال اجتهادها وتفوقها الذي لم ينسها ارتباطها ببلدها وشعبها ورغبتها بإظهار صورته الحقيقية. فتناولت في رسالة الدكتوراة «الصورة النمطية السلبية للمسلم في الأدب الإنجليزي في القرن السادس عشر ومصادرها التاريخية». لم تحاول الدكتورة ثريا تقديم صورة مثالية عن مدينة فاضلة أو شعب مختار، بل أصرَّت على أن تكون صورة موضوعية تعترف بإيجابيات وسلبيات هذا المجتمع. فهي تعتقد أن «تصرفاتنا الشخصية وكيفية حياتنا واستخدامنا لأموالنا تصب كلها سلباً أو إيجاباً في رؤية الغير لنا. ومن المهم ألاَّ نحاول دائماً نقض ما يكتب عنا سلباً، بل

* كاتبة سورية

علينا أن نعترف بالخطأ عند اللزوم لتقديم العلاج المناسب، ونتباهى بالإيجابي ليحثنا إلى الأمام. إن الله لم يخلق شعباً معصوماً من الخطأ. بل أعطانا العقل لتحكيمه في أمور الدنيا، والإيمان ليرشدنا إلى طريق الصواب».

عملها في خدمة قضايا المرأة

استطاعت ثريا عبيد أن تثبت وجودها في مجتمع لا يعترف إلا بالأقوى والأكثر تفوقاً، فحصلت على درجة الدكتوراة من جامعة ولاية واين في ديترويت بولاية ميتشيغان، بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1974م في الأدب الإنجليزي. بعدما كانت قد حصلت على شهادة في الأنثروبولوجيا الثقافية بالإضافة إلى الماجيستر في الأدب الإنجليزي عام 1968م من الجامعة نفسها.

بدءاً من العام 1975م، بدأت مسيرة كفاحها في معالجة قضايا المرأة العربية والشؤون الاجتماعية. فتدرجت من معاونة للشؤون الاجتماعية إلى مديرة برنامج المرأة والتنمية. حيث أنشأت أول برنامج إنمائي للمرأة في منطقة غرب آسيا، ومن ثم مديرة شعبة الدول العربية وأوروبا بصندوق الأمم المتحدة للسكان، إلى أن اختيرت في 1 يناير 2001م مديرة تنفيذية لصندوق الأمم المتحدة للسكان برتبة وكيل أمين عام الأمم المتحدة. وقال عنها الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون: «لقد كانت ثريا بطلة في مجال حقوق المرأة الإنسانية وحقها في الإنجاب، وخلال عملها كانت جريئة في كسر الحواجز وتحدي القوالب النمطية».

في إحدى زيارات الدكتورة ثريا عبيد لأحد المراكز الصحية التي أسهم الصندوق في تأسيسها في نيجيريا، قامت بزيارة امرأة كانت قد وضعت طفلة قبل ساعات، فاطمأنت على صحتها، وتحدثت معها حول التوليد في هذا المركز الجديد. وبعد فترة، علمت أن الأم قد سمَّت مولودتها ثريا. ولكن الطفلة والأم توفيتا بسبب انتقال مرض الإيدز لهما من الوالد المصاب به.

لأجل هؤلاء النساء تعمل ثريا عبيد. فلو تم التعرف إلى حالة الأم في وقت مبكر لكان من الممكن منع نقل المرض للطفلة. وهي عندما تطالب بحقوق أية امرأة في العالم تشعر وكأنها تطالب بحقوق ابنتيها، وتعمل على إيجاد مستقبل أفضل وحياة أكرم لهما ولكل أمهات العالم.

برامج لتحسين نوعية الحياة

وفي الواقع، قد انبرت الدكتورة عبيد لأهم ما يشغل المرأة، فكانت برامجها الإنمائية المقدَّمة للدول النامية نموذجاً خلاَّقاً. إذ تعمل على نشر ثقافة صحة الأمومة وتنظيم النسل والصحة الإنجابية، والدعوة إلى إنهاء التمييز والعنف ضد النساء والفتيات، وتعليمهن وتخفيض وفيات الأمهات والأطفال. كما توجهت إلى الدول الإسلامية التي تعاني من الفقر وزيادة عدد السكان ببرنامج تنظيم الأسرة (أو المباعدة بين الولادات) ليمنح كل طفل العناية اللازمة وتمنح الأم الراحة المطلوبة لجسمها طوعاً وليس فرضاً.

كذلك تركِّز هذه البرامج على توافر الخدمات الصحية ومحاربة الأمراض التي بدأت تتفشى مثل الإيدز والمخدرات، إضافة إلى محاربة الفقر، وتحفيز النمو الاقتصادي لتحسين نوعية حياة الفئات المحرومة، فضلاً عن ترشيد الاستهلاك بحيث نلبس ما نصنع، ونأكل ما نحتاج، ونحقق الأمن الغذائي حتى لا يأكل 5% من البشر ويجوع 95% منهم. كما يقوم الصندوق بتقديم المساعدة لوزراء التخطيط حتى تستطيع الدول النامية أن تتخذ قرارات صحيحة.

كما يدخل في إطار هذه البرامج دراسة أسباب الهجرة من الريف إلى المدينة أو حتى إلى خارج حدود الدول، والاهتمام بالمشرَّدين داخل كل دولة، وبأوضاع النساء ولا سيما في حالات الحروب والكوارث الطبيعية. إذ يبدو أن العالم ينسى مثلاً أن المرأة تلد في هذه الظروف، وهناك إهمال كامل لكل الخدمات التي قد تحتاجها المرأة في مراكز اللجوء. إلى جانب أنها قد تتعرَّض للاعتداءات في الحروب، وجزء من عمل هذه البرامج هو في إعادة التوازن النفسي لمثل هؤلاء النساء، ثم العمل على إعادة اندماجهن في مجتمعاتهن.

تقدير عالمي لجهودها

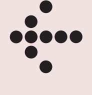
نالت الدكتورة ثريا عبيد وسام «ديونيسيو دي هيرارا لخدمة البشرية» لمساندتها برنامج دمج مواد دراسية حول حماية النساء ضحايا العنف العائلي في مناهج التدريس في أكاديمية الشرطة في هندوراس عام 2005م. ولأنها كانت امرأة مكافحة استطاعت تخطي جميع العوائق الاجتماعية، أُدرج اسمها ضمن اختيارات مجلة «فوربس» لأقوى 50 امرأة عربية. كما نالت شهادة الدكتوراة الفخرية في القانون من جامعة كوانساي غاكوين، كوبي، اليابان، تقديراً لإسهاماتها في النهوض بالثقافة، عام 2004م. وشهادة الدكتوراة الفخرية في القانون من كلية ميلز، أوكلاند، كاليفورنيا، تقديراً لالتزامها بخدمة الناس في البلدان النامية لتحقيق التعليم الأساسي والصحة والفرص الاقتصادية عام 2002م. وقد اختارها ناتانا دي لونغ-باس، نائب محرر موسوعة العالم الإسلامي ومحرر قاموس أكسفورد للإسلام عام 2006م لتكون من ضمن 100 مسلم من بناة الحضارة والثقافة في العالم في كتاب «مسلمون مرموقون».



هل يكفي الإبداع الثقافي للعيش الكريم؟

صورة مقتطفة من فلم فان غوغ

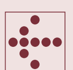
Corbis



لماذا ترتبط صورة المبدع عموماً بصورة المغامر بلقمة عيشه، حتى أن البعض يراه في العمل الفني والثقافي إعلاناً لما يشبه حياة الفقر؟
وكيف يمكن توفيق هذه الصورة النمطية مع ما نسمعه أحياناً عن أدباء ورسامين جمعوا ثروات من أعمالهم الإبداعية، وخاصة في بعض البلدان الغربية، مثل أمريكا؟
فيما يأتي مساهمتان. في الأولى عرض لواقع الحال واختلافه ما بين الغرب وأمريكا من جهة، والبلاد العربية من جهة أخرى. وفي الثانية وجهة نظر تحليلية تبحث عن الحلقة المفقودة بين المبدع العربي وبين إمكان اعتماده على إبداعه للعيش الكريم.

1 مَنْ أصاب الثروة ومَنْ لم يصب

إبراهيم العريس*



واحدة من أكثر الحكايات المتداولة للتعبير عما يسمى «العصامية الأمريكية» هي حكاية الكتَّاب الكبار، ولاسيما منهم الروائيون. وتقول الحكاية المشتركة في سيرهم إن الواحد منهم يتقلَّب منذ مراهقته في عدد كبير من المهن التي تكون عادة متواضعة، قبل أن يصبح كاتباً بالفعل، وينال من النجاح والشهرة نصيباً كبيراً. وفي العادة ما إن يصبح الواحد منهم صاحب اسم كبير ويتخطى أعماله الأولى، حتى يتفرغ بشكل نهائي للكتابة لتتحول مهنته السابقة إلى مجرد ذكريات، وجزء من سيرة تعطي صاحبها سبباً للفخر طوال حياته. تلك كانت حال همنغواي وفوكنر، بين آخرين.

في هذه الحال الأمريكية، يصبح الشخص المعني متفرغاً للكتابة، إذ إن انتشار الأعمال الأدبية في العالم الأمريكي يضمن للكاتب أن تصبح الكتابة مهنته، حتى وإن كان يحدث له أن ينوِّع على كتابة الرواية، كأن يصبح كاتباً كبيراً في الصحافة، أو مؤلف سيناريوهات في هوليود، يغرف من خيرات هذه الأخيرة، ثم بعد ذلك يبصق في صحنها. قائلاً إنها دمَّرت حياته الأدبية (كما في حال فوكنر نفسه أو سكوت فيتزجيرالد أو شتاينبك أو حتى رايموند تشاندلر...). المهم في الأمر أن الحال الأمريكية تتيح للكاتب، بعد أن يصل، فرصاً كبيرة لامتهان الكتابة، ومن دون أن يضطر إلى ممارسة مهن أخرى. ومن هنا ينتفي هناك ذلك السؤال الخالد: هل الإبداع مهنة؟ أجل، يقول الأمريكيون، طالما ثمة سوق يدعم الكاتب أو المبدع بشكل عام.

اختلاف الحال عربياً

غير أن هذه ليست الحال في كل مكان وزمان. ولا سيما في العالم العربي، حيث ندر للمبدعين أن تمكنوا من العيش بفضل مردود إبداعهم، شعراء كانوا أو روائيين، أو أي شيء من هذا القبيل. حتى وإن كنا نعرف أنه مع استشراء «جماهيرية» الفنون في القرن العشرين، صار في وسع

* ناقد من لبنان

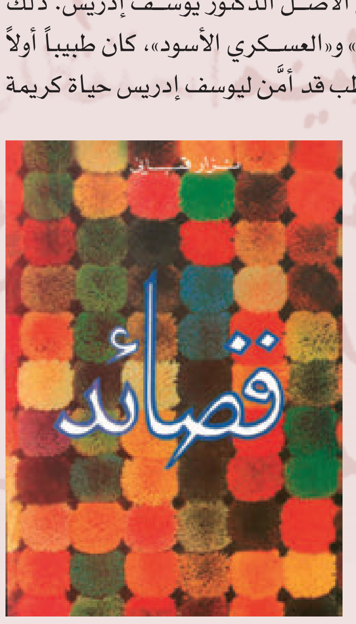
الكثير من المبدعين أن يعيشوا من أعمالهم. ينطبق هذا على الموسيقي الذي يمكنه -وغالباً مع بعض التنازلات- أن يعيش بفضل تلحينه الأغاني أو كتابة موسيقى الأفلام، كما ينطبق على مبدعي الفن السينمائي وخاصة حين يخوضون السينما التجارية. ثم ينطبق أيضاً على الرسامين ولاسيما بعد فورة جعلت للمتاحف العامة أو الخاصة وجوداً، وفورة أخرى حدَّثت الحياة المنزلية لدى الطبقات العليا في المدن العربية خلال النصف الاول من القرن العشرين، فأدت إلى اقتناء اللوحات.

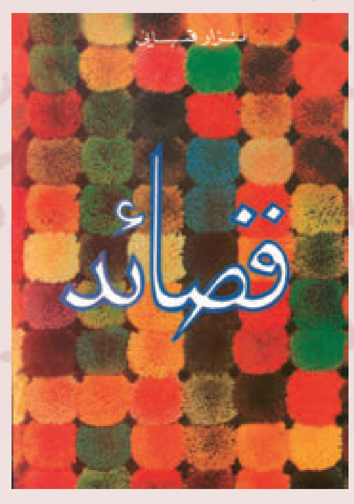
معظم الأدباء العرب عملوا في حقول أخرى لتأمين عيشهم، والشعراء هم الأقل حظاً في الاتكال على نتاجهم للعيش الكريم

في المقابل، ظلَّ الشعراء وكتَّاب القصة والروائيون عاجزين عن تحقيق تلك المعادلة، إلا في حالات نادرة. وفي هذا الإطار يمكننا القول إن نجيب محفوظ، الكاتب الروائي العربي الكبير ظل أكثر من أربعين سنة يكتب أعظم الروايات وينشرها، من دون أن تتمكن تلك الروايات من تأمين وسائل العيش له.

العمل في مجال آخر

وهكذا، قبل فورة ترجمة رواياته وجائزة نوبل وقبل إقبال السينما على شراء رواياته لتحويلها أفلاماً، ظلت الوظيفة الحكومية -كموظف في وزارة الأوقاف أولاً، ثم في الهيئات السينمائية في مصر- مصدر دخله. وكانت تلك أيضاً حال كتَّاب كبار آخرين مثل طه حسين، حتى وإن كان الناس اعتبروا محفوظ أو حسين كتَّاباً في المقام الأول. وفي المقابل، نجد مبدعين آخرين في مصر وفي غيرها من البلدان العربية، يجمعون الكتابة إلى ممارسات مهنية أخرى كانت هي الأساس لديهم، ومن هؤلاء مثلاً يوسف إدريس الذي هو في الأصل الدكتور يوسف إدريس. ذلك أن صاحب «البيضاء» و«العسكري الأسود»، كان طبيباً أولاً وأخيراً. وإذا كان الطب قد أمَّن ليوسف إدريس حياة كريمة ذات مدخول مادي طيب، يفوق ما أمَّنت له كتبه وحتى المسرحيات التي كتبها، فإنه أمَّن له في الوقت نفسه فرصة رائعة لمراقبة البشر وآلامهم، ضعفهم وقوتهم، أحلامهم الغامضة وبؤسهم أمام الموت والمرض. وسوف نرى هذا كله معكوساً في أدب يوسف إدريس الذي يمكن اعتباره هنا طبيب الأدب أو أديب الأطباء.





مهما يكن، فإن يوسف إدريس وازن في أسباب عيشه بين كونه طبيباً وكونه كاتباً. وهو في هذا يقتفي مثلاً لشعراء كبار، في مصر وغيرها، مثل إبراهيم ناجي، كانوا بدورهم أطباء عاشوا من هذه المهنة في وقت أنفقوا فيه جهودهم ومالهم على مهنة... الإبداع.

وإذا كان يوسف إدريس قد احتذى في وضعيته وإبداعه وممارسة الطب حذو مبدعين أجانب، في المزج بين نجاح المهنة العملية وازدهار مهنة الكتابة، فإن من أشهر الكتَّاب الفرنسيين الذين كانت تلك حالهم أيضاً، الروائي الفرنسي الكبير لويس فردينان سيلين صاحب رواية «سفر إلى آخر الليل»، التي ما كان في إمكانها أن توجد لو لم يكن صاحبها طبيباً راقب بدوره الناس وهمومهم.

الشعر والدبلوماسية

في المقابل، بقي حال الشعراء ليس كغيرهم في هذا الإطار. فإذا استثنينا شعراء عرب أو غير عرب، من الذين عرفوا كيف يعيشون حياة مزدهرة بفضل رواج شعرهم (نزار قباني على سبيل المثال)، فإن الشعراء بشكل عام ما كان أبداً في إمكانهم أن يعتاشوا من كتابة الشعر، ما أحوجهم دائماً إلى مهن أخرى، إن لم يكونوا من النوع البوهيمي الفوضوي الذي يرضى بالعيش كما اتفق. لكن الغريب في حالة كثير من الشعراء عربياً وعالمياً هو أنهم ردفوا دائماً مهنتهم كشعراء، بمهن دبلوماسية أو حكومية بشكل عام. فمثلاً شاعران سعوديان كبيران مثل غازي القصيبي وعبدالعزيز خوجة، شغلا تباعاً منصبي سفيرين لبلدهما، ثم وزيرين دون أن يتوقفا ولأسباب دبلوماسية عن كتابة الشعر، علماً بأن شعر خوجة على الأقل ينطبع بطابع البوح. ولعل اللافت أن ما ينطبق على القصيبي وخوجة هنا ينطبق على عدد من كبار الشعراء العالميين من دون أن نعرف كنه الخلفية التي جعلت هذا التشابه الغريب ممكناً.

فالشاعر الفرنسي الكبير سان جون بيرس، كان أيضاً سفيراً لبلده فرنسا في الصين بين بلدان أخرى، ومواطنه بول كلوديل كان بدوره سفيراً. وفي أمريكا اللاتينية كان الشاعر الكبير بابلو نيرودا سفيراً لبلده التشيلي في أوروبا

وفي المكسيك خاصة. كما كان نزار قباني أيضاً هو الآخر، ولفترة من حياته، سفيراً لبلده سوريا في إسبانيا.

ترى هل عيِّن هؤلاء جميعاً وغيرهم لأنهم كانوا شعراء... أم لخبرات أخرى جمعوها في حياتهم كشعراء، أم لأسباب أخرى غير هذا وذاك؟

كل الإجابات ممكنة هنا. ويبقى في المحصلة الأخيرة أن هؤلاء المبدعين لم يعيشوا في أغلبيتهم الساحقة من إبداعهم بل من مهن أخرى، فالإبداع الحقيقي ليس الذي يزدهر في العصر الذي يسميه الفيلسوف والتر بنجامين في عصر الإنتاج الجماهيري المكثف والميكانيكي للفنون، لا يطعم خبزاً... أو هو على الأقل في عالمنا العربي لم يكن يطعم خبزاً حتى جاءت فورة تراكم الثروات، ولنقل أيضاً وصول متنورين متنوعين إلى قمة الحكم أو الثروة. فإذ بالجوائز والتكريمات تنهال على المبدعين... وإذ بالصحف المزدهرة تموِّل بعض حاجاتهم، ثم إذا بالتلفزة تجعلهم ضيوفاً دائمين تعطيهم بكرم ما لم تعطهم إياه حتى مهنهم البديلة. هذا إن لم نتحدث عن مبدعين عرفت سلطات بلادهم كيف تمول حياتهم فلا يحتاجون إلى أية ممارسة لأية مهنة حتى يعيشوا (محمود درويش الذي إلى ازدهار شعره عرفت السلطة الفلسطينية كيف تمكنه من عيش حياة كريمة)... ترى هل يقول لنا هذا كله، إن نهاية القرن العشرين وبداية القرن الذي يليه أعادت بشكل أو بآخر إلى المبدعين إمكانية أن يعيشوا من إبداعهم؟

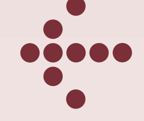
يقيناً أن الجواب هنا لن يكون سوى جواب مبهم. إذ في مقابل هذه الأسماء القليلة التي ذكرناها، هناك في الواقع مئات بل ألوف المبدعين من الذين غمرهم الفقر والجوع. كان هذا في الماضي ولا يزال كذلك إلى اليوم. ولعل الصورة التي تخطر في البال هنا إزاء هذا الكلام الأخير هي صورة الرسام الهولندي -الذي عاش ورسم في فرنسا خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته في ثمانينيات القرن التاسع عشر- فنسان فان غوغ. فهذا الرسام الكبير، والذي أنتج خلال حياته القصيرة ما يصل إلى الألف لوحة، عاش مريضاً، فقيراً، جائعاً بالكاد يمكن للقروش القليلة التي تباع بها لوحاته أن تمكِّنه من سد رمقه. لو كان هذا الرسام يراقب اليوم أحوال العالم، ما الذي سيشعر به عندما تصله أخبار مئات ملايين الدولارات التي تباع فيها لوحاته؟ هل سيتذكر جوعه؟ لحظات إبداعه الفني؟ خيبته ويأسه من الحياة؟ أم تراه سيتذكر في كل لحظة فرحه في الحياة فقط خلال الأيام التي كان ينجز فيها أية لوحة من لوحاته، قبل أن يغرق بعد ذلك في حزن ويأس قاتلين؟ هل



شعراء-سياسيون: غازي القصيبي، وعبد العزيز خوجة، ونزار قباني

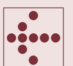
تراه سيقول لنفسه: ليتني مارست إلى جانب مهنة الرسم مهنة مربحة، في انتظار أن يصبح رسمي نفسه مهنة مربحة... بل مزدهرة؟

هنا إزاء هذه الصورة وإزاء الازدهار الذي تعرفه حياة الإبداع -وعلى الأقل في سطحها- هل هناك يا ترى ما يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان ثمة بعد، في زمن الفضائيات المفتوحة والفنون المعولمة واستشراء عصور الاستهلاك -ولا سيما استهلاك الفنون وشتى أنواع الإبداعات- مجال للحديث عن مبدعين يضطرون إلى ممارسة عشرات المهن الأخرى حتى يواصلوا ممارسة هواياتهم الإبداعية؟ بل هل ثمة بعد مجال للحديث عن الفنون وشتى أنواع الإبداعات بوصفها مجرد هوايات، أم صار كل هذا جزءاً من مهن مربحة؟ بل سنختتم هنا متسائلين: هل صار الموضوع نفسه الذي نتحدث عنه أصلاً جزءاً من كلام قديم لا علاقة له بالعصور الحديثة؟



2 نعم.. يمكن انتشال المبدع من الفقر

ناصر سعد الأخرس*



يتطلب البحث عن حل نظري على الأقل، يسمح للمبدع أن يعيش حياة كريمة من خلال إبداعه فقط، التطلع إلى هذه القضية من خلال نظرتين: نظرة عامة على مجمل الحال في البلدان والفترات التاريخية التي تمكن، ويتمكن، المبدعون من العيش الكريم بفضل إبداعهم فقط، ومن ثم نظرة مدققة من خلال الميكروسكوب على التفاصيل الصغيرة التي تجعل المبدع في فترات تاريخية أخرى وبيئات مختلفة، كما هو الحال عربياً اليوم، يعتاش من عمل آخر، أو يرضى مرغماً بفقره.

شئنا أم أبينا: الإبداع صناعة

لو ألقينا نظرة عامة على الحال الأمريكية مثلاً، التي لا تختلف كثيراً في جوهرها عن حال فن الرسم في أوروبا خلال عصر النهضة وما بعدها، ولا عن حال الأدب الفرنسي بين القرنين السادس عشر والعشرين، لوجدنا أن المبدعين المرموقين اجتماعياً على الأقل، هم الذين تعاملوا مع إبداعهم على أنه صناعة ذات متطلبات جانبية عديدة يجب أن ترافق التعبير عن عبقريتهم.

في الحالة الأمريكية التي كثيراً ما تثير حسد المبدعين في العالم الثالث بأسره، نجد هذه المتطلبات متوافرة بشكل واضح، وهي تتضمن السوق الكبير، وعلى سبيل المثال هناك ثلاثة آلاف مكتبة عامة إضافة إلى مكتبات المدارس والجامعات. وهذا ما يأخذه الناشر بالحسبان عندما يبرم أي عقد مع أي كاتب جديد على عالم الكتابة، طالما أن هناك بضعة آلاف من النسخ المباعة سلفاً. وهذا السوق الكبير منضبط جداً بقوانين ورقابة تحمي فعلياً حقوق الملكية الفكرية بأدق تفاصيلها.

غير أن ما هو أهم من السوق وحجمه وانضباطه، هو في آلية عمله، ووجود حلقة بالغة الأهمية ما بين المبدع وناشر الإبداع والمتلقي لهذا الإبداع، ألا وهو الوكيل الماهر في الترويج، والشرس في انتزاع حقوق المبدع، والذي يلعب دوراً بالغ الأهمية في التسويق وصولاً إلى حد التدخل في مضمون العمل الإبداعي، وتوقيت عرضه على المتلقي، والتمهيد لذلك بالعمل الإعلامي الملائم للرواج المتوقع لهذا العمل وغير ذلك مما يستحيل حصره.

والوكيل هو عموماً إداري، وحقوقي، ومحاسب، يهمه من خلال عمله البارد أن يؤمِّن أكبر رواج تجاري للعمل الإبداعي، لأنه يتقاضى شخصياً نسبة مئوية من هذه العوائد. ودور الوكيل في الترويج للأعمال الإبداعية سواءً أكانت أعمالاً أدبية أو عقود سينمائية أو إحياء حفلات موسيقية، أو حتى حفلات توقيع الكتب، لا يختلف في جوهره عما تقوم به أقسام العلاقات العامة في الشركات الصناعية. أي أن العمل الإبداعي يعامل في مرحلة ما من مراحل إنتاجه المعاملة نفسها التي تعامل بها أية سلعة استهلاكية يُبتغى ترويجها على أوسع نطاق ممكن لجني أكبر قدر ممكن من عوائدها المادية المحتملة. وما علينا





جاليري حوار

* كاتب وإعلامي من الأردن



هاتف جراد البحر، أهم أعمال دالي التي موَّلها الراعي الأسكتلندي للفنون إدوارد جايمز

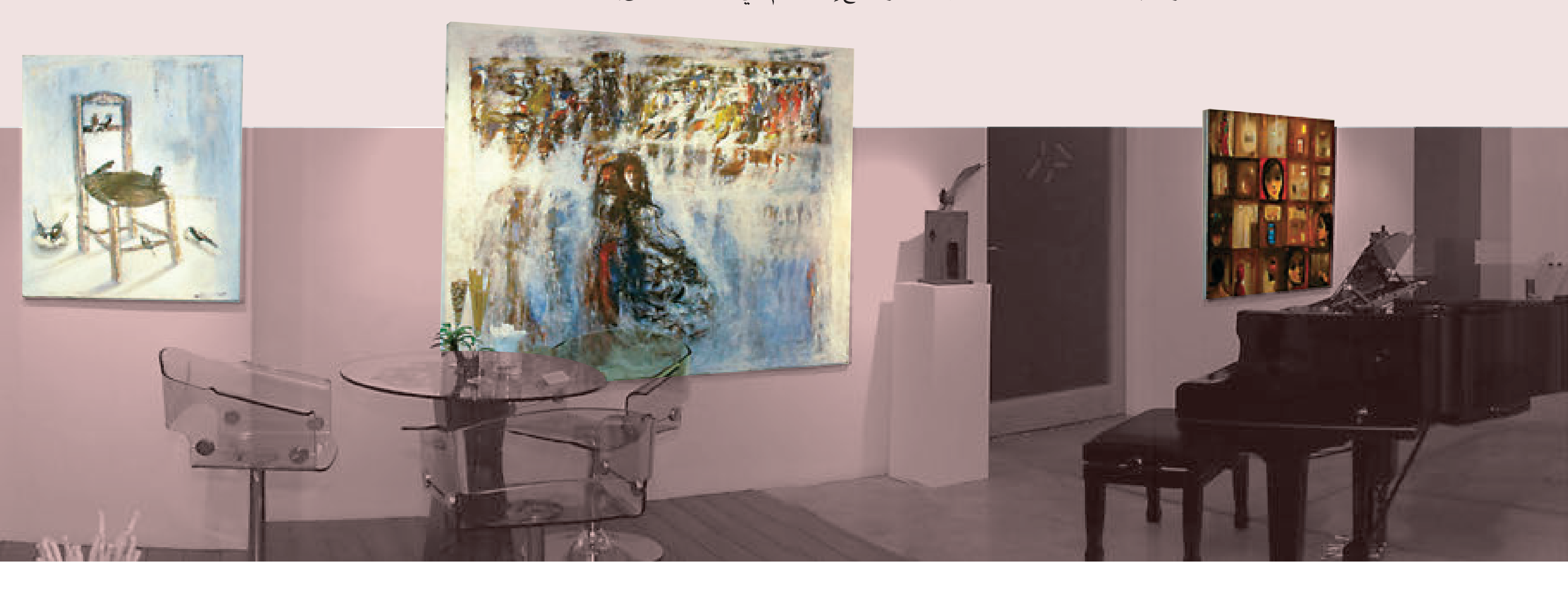
دالي.. رسام عاش حياة الملوك.. كيف؟

إلا أن نعود إلى الحملة الترويجية العملاقة التي رافقت قبل سنوات رواية هاري بوتر والتي شغلت عدداً كبيراً من دور العلاقات العامة دفعة واحدة في عواصم العالم الغربي، مما أدى إلى بيع عشرات ملايين النسخ من الكتاب منذ اليوم الأول لطرحه في الأسواق.

الرومنطيقية نقيض الإدارة

ولو نظرنا إلى المبدعين العرب الذين تمكنوا من العيش الكريم بفضل إنتاجهم، لوجدنا أنهم فقط أولئك الذين أتقنوا لعبة العلاقات العامة، وتعاملوا مع إنتاجهم في مرحلة نقله إلى الجمهور على أنه سلعة (من دون أن تنتقص كلمة سلعة من القيمة الفنية والإبداعية للعمل عندما تكون موجودة فيه).

فالرسامون الذين استطاعوا أن يسوِّقوا أعمالهم بأسعار وبكميات تسمح لهم بالعيش الكريم، هم فقط الذين نسجوا علاقات جيدة ولو مع صاحب صالة عرض فقط (شرط أن يكون صاحب الصالة ذا علاقات اجتماعية جيدة مع عدد كبير من هواة اقتناء اللوحات والمشترين المحتملين).





نجيب محفوظ
حالة عربية
استثنائية
بفضل جائزة
نوبل

يروي كاتب عربي ألَّف كتاباً أُقِرَّ كمادة تدريس في إحدى الجامعات، أنه ذهب ذات مرة إلى دار النشر للمطالبة بحقوق المادية، فوجد شقيق أحد كبار الأدباء العرب في القرن العشرين يتوسل إلى الناشر أن يدفع له ثلاثمائة دولار فقط، وهو القسط الشهري المتفق عليه بدل جمع الأعمال الكاملة لشقيقه. فما كان من الكاتب الذي تساءل في سره عما سيلقاه من الناشر طالما أن هذا الأخير يعامِل بمثل هذه الطريقة الأعمال الأدبية الكاملة لأديب عملاق، إلا أن اكتفى بشرب قهوة الضيافة والانصراف من مكتب الناشر من دون الإتيان على ذكر حقوقه، التي لم يحصل على قرش منها بعد عقدين من صدور كتابه.

فثمة خلل كبير وخطير في الوضع العام المحيط بالأعمال الإبداعية في البلاد العربية، يتعلق بالقوانين المرعية الإجراء وتطبيقها فعلاً على الأرض لحماية الملكية الفكرية، ومراقبة أداء دور النشر والمطابع مثلاً، وهذا ما يعرفه الجميع. تماماً كما نعرف ألاَّ تقاليد في المكتبات العامة (الهزيلة أصلاً) تقضي بشراء نسخة من كل كتاب يصدر كما هو الحال في أمريكا مثلاً.

ولكن المشكلة الأخطر من ذلك، والتي قلّما يدور الحديث عنها تكمن في نظرة المبدع العربي إلى إبداعه.

بشيء من الصراحة، على قسوتها، نقول إن نظرة المبدع العربي سواء أكان شاعراً أو رساماً أو روائياً أو غير ذلك، تتسم برومنطيقية ساذجة إلى حد مخيف. فهو غالباً ما يعتقد أن مجرد ظهور عمله الإبداعي إلى النور، سينتزع اعتراف بيئته بما يكفي ليؤمّن له النجاح المعنوي، وأن النجاح المادي لابد وأن يعقب النجاح المعنوي.

من المرجح أن هذه النظرة تعود إلى الانتماء الطبقي لمعظم المبدعين العرب. فالكل هو من جيل هو بدوره ابن الجيل الزراعي. ومهما كان العمل الإبداعي الذي ينتجه ابن الجيل الحالي متواضعاً، فإنه يشكّل بالفعل تطوراً كبيراً عما كان عليه حال الوالد والجد وبيئتهما الزراعية الريفية المتواضعة. ومن المرجح أن هذه النظرة المقارنة عند المبدع إلى اهتماماته ومستواه الشخصي بما كان يمكن أن يكون عليه لولا انهماكه في العمل الثقافي، هي ما يعطيه وهم الإشباع والرضا.. إلى أن يصطدم بالمتطلبات المادية للحياة اليومية.

التغير المطلوب في نظرة المبدع إلى إبداعه هو في أن يتطلع إليه كإنتاج يفترض فيه أن يلبّي حاجات صاحبه، كما هو مطلوب من أي منتج آخر. فالشعور بالإشباع أو الاكتفاء الذاتي بمجرد اعتراف بعض الأفراد بعبقرية المبدع لا يعني غير الجوع لاحقاً.

إن العمل الإبداعي إذا ما شئناه أن يكون عملاً يكفي صاحبه للعيش الكريم، يجب أن يعامل كباقي الأعمال، وأن يولى «الصورة الذهنية والبصرية للمبدع وإبداعه» الأهمية التي تولى لأي إنتاج أو منتج. وهذا ما هو غائب تماماً عن «سوق» الإبداع العربي.

الفردية وطاعون الستينيات

في العمق يمكننا أن نجمل الأسباب التي أبقت الإبداع في البلاد العربية بعيداً عن التحول إلى «صناعة حديثة». وحرمته من الحلقة المفقودة التي يمكنها أن تربطه بالعوائد المادية الكافية للعيش الكريم.

> ما الفرق بين فنان هزيل يجمع الملايين والأديب الموهوب الفقير؟ الجواب: الوكيل ومدير الأعمال

فلو انطلقنا من مثل محدد هو فن الرسم مثلاً، للاحظنا مرحلتين تاريخيتين تمكن فيهما الرسام الأوروبي من العيش الكريم جداً. فمقابل حالة فان غوخ الكاريكاتورية، عاش مئات الرسامين حياة مترفة، وبعضهم من ليوناردو دي فنشي إلى سلفادور دالي مروراً بروبنز وبيكاسو عاش حياة الملوك في قصور. فما بين عصر النهضة الأوروبية والربع الأخير من القرن التاسع عشر، كان الرسامون يرسمون بناءً على طلب، إما من كبار رجال الدين أو من الملك أو كبار الأثرياء والنبلاء. وعندما كان هؤلاء يتلقون طلبات معينة، لم تكن مهمتهم بسط عواطفهم الشخصية على اللوحة، بل تسخير عبقريتهم في تنفيذ الطلب المحدد، والنظر إلى هذا الطلب كمجال لتأكيد العبقرية. وهذا ما يؤكد وجود أمرين: حسن العلاقات الاجتماعية مع الزبائن المحتملين وكبار شخصيات المجتمع، وأيضاً التعامل مع الفن واللوحة كسلعة يعتمد على تبادلها تأمين مورد للعيش الكريم.

بدءاً من الربع الأخير من القرن التاسع عشر وظهور الانطباعية ونظرية الفن للفن، راح الرسامون يرسمون لوحات ينتظرون من يشتريها بعدما زعموا لأنفسهم القدرة على الاستقلال عن طلبات المجتمع والسلطات السياسية والاجتماعية. (وربما كانت مأساة فان غوخ تعود إلى ظهوره في تلك الفترة المفصلية بالذات). وإن تمكن «معظم» الرسامين بدءاً من تلك الفترة من تأمين عيشهم بشكل أو بآخر (غالباً بشكل جيد أو مقبول)، فذلك يعود إلى تنظيم سوق الفن وإدارته في أوروبا كما تدار سوق الأسهم. وتحول اللوحات الجيدة التي يتأكد إبداع صاحبها إلى ما يشبه سندات الخزينة، أكثر من كونها



علي أحمد

سوق الكتاب.. مهما هزلت لا تبرر شحها على الكتَّاب



ارنس تهمنغواي

خطابـاً أخلاقيـاً معيناً أو أداة زينة. وتولـى التجار تنظيم هذا السـوق وضـبطه بقوانين وتقاليد بالغة التعقيد، تقوم بالدرجـة الأولى على إدارة العلاقـات العامة. وهذا ما هو مفقود تماماً في البلاد العربية، وإن وجدت بعض صـالات العرض التـي يتمتـع أصـحابها بعلاقات جيـدة مع عدد كافٍ مـن الأثريـاء أو الهواة الذين يؤمّنـون بعض الموارد «للمحظوظين» من الفنانين.

غيـر أن أخطـر ما فـي فردية الفنـان التي اسـتوردها من أوروبـا مـا بعد الانطباعيـة، هو في سـوء تطبيقها الخطير عندنـا. وتغـذى سـوء التطبيق هذا خـلال المد اليسـاري الثقافي الذي شـهدته بعض البلدان العربية خلال ستينيات القرن الماضـي. ففيما يشبه تفشي الطاعون، تفشت صورة «المثقف الشـهيد» (ربما في استيحاء ساذج لصورة الثائر البوليفي الشهير تشـي غيفارا، وصور المثقفين الأوروبيين الذيـن التفوا حوله، كمـا لا يمكن إغفال الأثـر الذي تركته ثورة الهيبيين في هذا المجال). فأسقط المثقف المبدع من حسـاباته كل شيء غير ما يدور في ذهنه حول محتوى عمله الإبداعي المقبل. فتفشـت صـورة المثقـف البوهيمي، رث المنظر، الراضي بكل مصاعب الحياة، والزاعم (زوراً) ألاَّ شـيء يهمه في الدنيا غير محتـوى عمله الإبداعي. وعندما يرضى المبدع بمثل هذا الحال لنفسه، لا يمكننا أن نفترض أن الناشـر مثلاً سـيرجوه أن يقبل منه عوائد كتابه، ولا أن يسعى لترويج هذا الكتاب، طالما أن كل عائداته مهما كانت ضئيلة هي أرباح صافية.

باختصـار، إذا كان العمل الإبداعي فـي أمريكا يدر اليوم، كمـا الأمس، على المبدع أكثر ممـا يحتاجه للعيش الكريم، فذلـك يعود إلى أن المثقف الأمريكي هو من القلائل الذين



س كوفيت جالد

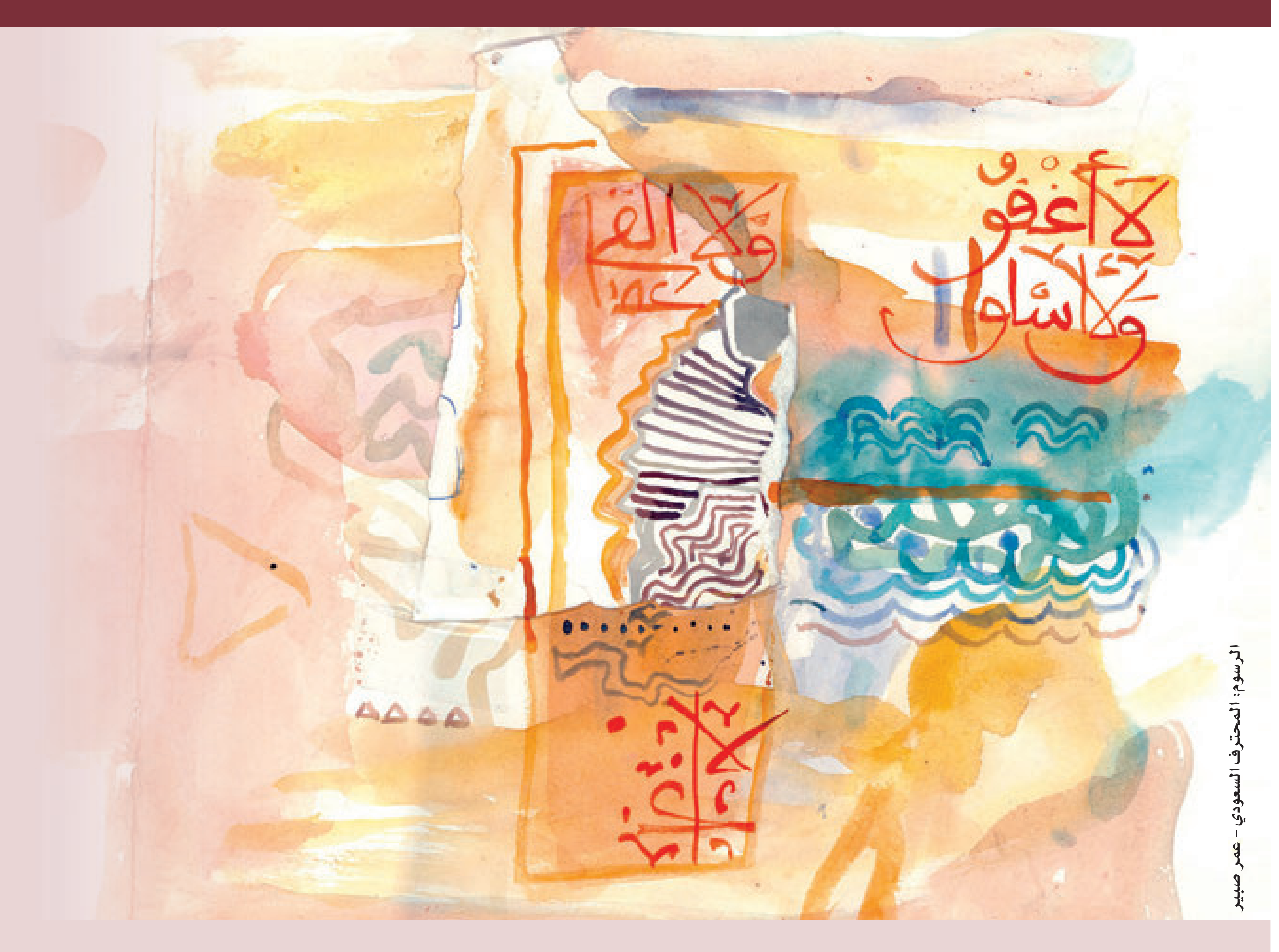
لم تصـبهم لوثة المثقـف الرومنطيقـي البوهيمي. بل بقي واعياً إلى واقعه اليومي، واضـعاً أمام عينيه هدف تحسـين هذا الواقع.

إن الدعـوة إلـى اعتبـار العمـل الإبداعي، ولو فـي جانب منـه، نوعاً من «البزنيس» قد تثيـر حفيظة المدافعين عن الإبداع «النبيل والسـامي» الحريصين على بقائه فوق قمة الاهتمامات الإنسانية. ولكن كيف يمكن لهؤلاء أن يفسروا لنـا (من دون أن يشـتموا الظروف العامـة، أو اللجوء إلى اجترار الكليشـيهات المعروفة التـي تكيل الاتهامات يميناً ويسـاراً) كيف أن فنانة واحدة (من ضـمن العشـرات من مثيلاتهـا)، ذات مسـتوى هابط حتـى القـاع، يمكنها أن تجمـع ثـروة تقاس بعشـرات ملاييـن الـدولارات، وتفوق ثـروات كل «اتحـاد الكتّـاب العرب»؟. هـل عندهم جواب غير العلاقات العامة التي تضـم جيشـاً من المحاسـبين والإدارييـن و«المزينيـن» الذيـن يسـتثمرون جهودهم في المسـاحة الفاصلـة ما بين هـذا الفن (مهـا كان مبتذلاً) والجمهور الذي يتلقاه؟.

ديوان الأمس

ديوان اليوم

يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.



الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير

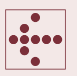


ضيف العدد

الشاعرة عبير محمد الحمد

محاضرة جامعية سعودية، شاعرةٌ وناثرة، من مواليد 1980م، حاصلة على البكالوريوس في الآداب تَخصُّص اللغة العربية، والماجستير في العلوم اللُّغويةِ تخصُّصِ النحو والصرف، وتُعِدُّ أطروحتَها لنيل درجة الدكتوراة.

الشِّعْر .. ومضُ الدَهشَةِ العبقريّةْ!



إن تكُن الذوائقُ -في تفضيلها ما يُلامسُ مسامعَها من ضُروبِ الكلام- على مذاهبَ شتّى تختلفُ معاييرُها باختلاف الأزمان والبيئات والثقافات ودرجة الحذْق والفَهْم؛ فإنّها تتفقُ على أنّ أحسنَ الكلام هو مالا يُحتاجُ معه إلى الكلام -كما قال بعضُ العرب- وذلك حين يَلُمُ شعْثَ الفكرة ويجمعُ أسبابَها. وكأنما هُم يُقرّون بأنّ الدهشَةَ -التي تَذهَلُ السامعَ عن الإتيان بفضْل من القول-معيارٌ مُتّفَقٌ عليه. ولقد جمعَتْ لنا كتبُ الأدب -من أمَال ومجالسَ وحماسات وغيرها- مالا يكادُ متناولوه يختلفون في حُسنه وعلوّ نَظْمه، بل في مواطن ذلك الحُسْنِ وأسراره مُفاضلين بين ما تشابَه من كلّ وجه يستطيعونَهُ دقّ أو جلّ، مُظهرين بذلك التفاوتَ الطبيعيَ بين الناس في التذوّق والتأمل.

وإنه ممّا لا شكّ فيه عند الذوّاقة أنّ سحرَ الشّعر كامنٌ فيما ينطوي عليه مما خفيَ ولَطُفَ سببُه من المعاني والتصاوير الآخذة بنواصي الأرواح، كما جاء عن أبي العيناء في (الإمتاع والمؤانسة) من قول أحدهم في صفَة البيان: حتى كأنّما بينه وبين القُلوب نَسَب، وبينه وبين الحياة سبَب.

فتأمَلْ سَعَةَ ما جمعَ لنا في عبارة! ثمّ انظر كيفَ اختلفَ النقّادُ لمّا اختلفَ الشعراء في التعبير عن الفكرة الواحدة فعلَ المصورينَ في المشهَد الواحد، يرونه بعيون شتّى؛ فيأتون بلوحات شتّى تجتمعُ في عُموم المُصوّر وتختلفُ في زوايا الالتقاط.

يقولُ جرير:

ولما التقى الحَيّان أُلقيَت العصا
ومات الهوى لمّا أُصيبت مَقاتلُهْ

جاعلاً من اللقاء مطفأةَ الهوى تحتَ وابل الدموع، حتى لكأنها أصابت أجيجَ الوجْد في مقتله فانطفأ، ولكنْ كيف تُراهُ طعمُ الدّموع ومن أينَ تندفق؟!

ويقول البُحتريُ من بعده:

وَإنّ بُكائي بالطُلولِ لَراحَةٌ
فَهَل مُسعِداتي بِالبُكاءِ طُلولُ

هكذا يتفق في الفكرة،سوى أن زاويةَ الالتقاط جعلَت الدمعَ راحةً لا مَقتلاً، وهي راحةُ وقتٍ لا تُورثُ سعادةً ولا تُبلّغُ منًى!

وقد صوّرَ الأحوصُ قبلَهُما هذا المعنى من زاوية أخرى حين قال:

إذا قلتُ إني مُشتَفٍ بلقائها
وحُمَّ التّلاقي بينَنا زادني سُقما

ولقد أجاد أيّما إجادة حين لم يَنَل باللقاء ما يُذكرُ من تَخفيف نار أو إخمادها!

قال ابنُ رشيق في عُمدته: والأحوص عندهم أغزلُهم؛ لزيادته سقماً إذا التقى المحبوب. واسمَعْ بعد استطالة الأزمنة عليّا الجارمَ إذ يقول:

وَمَنْ يَغْسِلْ بِأَدْمُعِهِ جَوَاهُ
أَرَادَ الْبُرْءَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءِ

وكأنما يصفع ببيت الأحوص وجهَ جرير والبُحتريّ حيثُ حقيقةٌ يُخفيها من بيتيهما سترٌ رقيقٌ لطيف وكأنما أرادا بألاّ ينزعا عن لحظة اللقاء أثرَها المُجذلَ (على نيّة مدح المحبوب) غيرَ أنّ الدموعَ داءٌ آخرُ مرير.

وهُنا مجنونُ ليلاه يصعَد بها عنان السماء فلا تسقُطُ ولا يمسُّها منهُ سوءٌ غيرُ طيب عفافه وشرفه وصَبْوَةِ شعرٍ عَذب رَصين، يقول:

كَأنّ على أنيابها الخمرَ شابهُ
بماء النّدى من آخرِ الليل غابقُ
وما ذقتُهُ إلا بعَيْنَيّ تفرُساً
كما شيمَ في أعلى السّحابة بارقُ

فتأمَلْ لُطفَ أنّها كالسحاب يُعرَفُ جَهامُهُ من مُمطره دونَ جَسّ ولا مَسّ، سوى أنّ الجمال لا يَخفى، وأجملُ مَن ذاك أن يَتذوّقَ لفَرْط التّيم طعمَ خمرها بعينيه .. فما أحْيَلى!

ويطالعُنا المصورُ الحاذقُ العبقريُ أبو تمام بزاوية التقاط أخرى لفكرة المجنون، يقول:

تُعطيكَ مَنطقَها فتعلمُ أنه
لِجَنَى عذوبته يَمُرُ بثغرها

ولا غرو إنْ بَرع؛ فهو الذي التقطَ بمُصوِّرته لامُتناهيَةَ الأبعاد ما يُذهلُ عُمقُه لَمّا قال:

مَطرٌ يذوبُ الصحْوُ منهُ وبَعدَهُ
صَحْوٌ يكادُ من النّضارَة يُمطرُ!

ولَئن كان قيسٌ يذوقُ الرُضابَ بعينيه، فهذا حبيبٌ يذوقُه بأذنيه، وكلاهُما ذائقٌ بطرافةٍ وفَنّ.

وليس أدهى من الشعراء حيـن يحتالونَ حيَلَهُم الدقيقةَ باقتناص مواطن الشبَه بيـن الأشياء حولَهُم وصَوْغ الصور منها على طرازٍ فلسفيٍّ رفيع. فهذا العبّاسُ ابنَ الأحنَف في أجزَل الرقّةِ يُخاتل فؤادَه ليقنعه باليأس من محبوبه، يقول:

هي الشمسُ مسكنُها في السّماء
فَعَزِّ الفُؤادَ عَزاءً جَميلا
فلَنْ تستطيعَ إليها الصُّعودَ
ولن تستطيعَ إليكَ النُّزولا

وفي اختيار الفعل (تستطيع) رفقٌ بفؤاد عاشق يتشوّق لنزولها إليه؛ حيـن يجعلُها تحاولُه فلا تستطيع، وفيه مـن العزاء ما لا يحتملُهُ فعلٌ يُفيدُ معنى الصّدّ والهجْر الذي اعتادَ الحديثَ عنهُ الشعراء.

ولالتقاط الصورة نفسها يَحْرفُ المُتنبّي زاويةَ التقاطه قليلاً ليَمنحَ المشهَدَ ظرافةً والعبارةَ طلاوةً ليسَ بعدَهُما، إذ يقول:

كأنّها الشّمسُ يُعيي كفَّ قابضه
شُعاعُها ويَراهُ الطّرْفُ مُقتربا

فتأمّل كيف حازَ صُورةً للتقلُّب في الكمَد والغبْن ليسَ أصعَبَ منها ولا أسهَل!

والشُعَراء بين التشوُّق والرثاء يتصبَّبُونَ صدقاً ويأتونَ بالأعاجيب اشتفاءً بالكلامِ، واشتكاءً مـنَ الأيامِ، إذ تَصْرِمهُم قَبلَمَا يصرمونَها و لا تدعُهم يعيشونَ بسلام.

فهذا الصِّمّةُ القُشَيري يمزِّقُ نفسهُ تَحسُّراً لا أظنّ قارئاً يقعُ عليه فلا تصيبهُ منه حرارةُ الزفرات، يقول:

وَأَذْكُرُ أَيّامَ الحمى ثُمّ أَنْثَني
عَلى كَبدي من خَشيَةٍ أن تَصَدّعا
فَرُحتُ ولو أسمعتُ مابي من الجَوى
رَذِيَّ قِطارٍ حَنّ شَوقاً وَرَجّعا

لَعَمري لَقَد نادى مُنادي فراقنا
بتَشتيتنا في كُلِّ وادٍ فَأَسمَعا
كَأَنّا خُلقنا للنَوى وَكَأَنّما
حَرامٌ عَلى الأَيّامِ أن نَتَجَمّعا

ويتناولُ الماهرُ الحلبيُّ فلسفته مع الدهر تناولاً مُغايرًا إذ يقول راثيًا:

بِرُغمي أن أعنّفَ فيكَ دهراً
قليلاً فكْرُه بِمُعَنِّفيهِ
وأنْ أرعى النُّجومَ ولسْتَ فيها
وأنْ أطأ التُّرابَ وأنتَ فيهِ

فانظُر لَعَمركَ كيفَ يَقلبُ الموتُ حالَ المشفوف من عتَبٍ على أيامه إلى زَهادة فيها وفي الدنيا جميعاً حين تخلو من حبيب، ولستَ تغفَلُ عمّا في البيت الأخيرِ من الوفاء للمرثيِّ وحُسنِ الرِّعاية!

أما ابن هانئ فيعلنُ حربَهُ متحفِّزاً مُصطخباً إذ يقول:

ومَن لي بِمثْل سِلاح الزّمان
فَأَسْطُو عليه إذا ما سَطا
يَجِدُّ بنا وهْو رَسْلُ العِنَان
ويُدركُنا وهْو داني الخُطا

وهو عامدٌ إلى الصورة المكبّرة حينَ يلتقطُها للأشياء المُلتبِسَة بطريقة بليغة موجَزَة، فيسوقُ نظرَتَهُ مستوحاةً من صورة جَدِّ السّير والُلحُوق والإدراك.

ومُنصفَةً تُطالعُنا فلسفةُ الشريف الرَّضيِّ لمُعضلَة الدّهر والإنسان، يقول:

وما الدّهرُ إلا نعمةٌ ومُصيبةٌ
وما الخلْقُ إلا آمنٌ وجَزُوعُ
ويومٌ رقيقُ الطُّرّتين مُصَفّقٌ
وخَطْبٌ جُرازُ المضْربين قَطُوعُ
عجِبتُ له يَسري بنا وهْوَ واقفٌ
ويأكُلُ مِن أعمارِنا ويَجُوعُ

رقيقةٌ حواشيه حين يُقبل، وسيفٌ قاطعٌ حين يُدبرُ، ثم هو يقضي علينا فنَفنى، وهو باقٍ لا ينقضي، وانظر لقوله : يسري، تتبيّنْ ما للـ(سُرى) دونَ (السّير) من فضْلٍ في إزهاق الطريق، حتى لكأنّ الأعمارَ ومضةُ برقٍ أو طرفةُ عينٍ!

(غَرِيمُ الفَجْرِ والشّفَـقِ)

عبير الحمد

حَمَلْتُ الحزنَ بينَ الفجرِ والشفقِ

وجُبْتُ به نواحيَ العالمِ القَلِقِ

فأبلانِي

وأضناني

وسجّرَ يمّ وجْدَانِي

كأنْ لم أقترفْ شِعْرًا

ولم أندُبْ رُؤَى الأُفُقِ

ولم أخْنُق بِكتمانِي صَدَى العَبَراتِ في سِرّي

وفي جَهْرِي

ولم أهرُبْ من الدُنْيا إلى الدُنْيا

لأنّي مِن رَسِيسِ البؤسِ لم أُفِقِ !

* * * * *

أيستطيعانِ تَسْرِيحي !؟

وأنّي هائمٌ مثلِي !؟

بـ تَطْوافِي بهاوُهُما

وسِرُّ السِّحْرِ والأَلَقِ

إخَالُ الحقَّ مَكذوبًا

يُخاتِلُ سُفْعَةَ الإمساء

يَستَحْيِي من الفَلَقِ

فيصبغُ باحمرارِ التَّرَفِ

قُبحَ بياضِ المشْنُوءِ للبَهَقِ !

ويَقْطَعُ وقتَهُ وَجِلاً

يُتَابعُ شَمسَ إفلاقِي تُجَرّرُ خَافِتَ الأَهْدَابِ

يَفزَعُ من تعثُّرِها

ويَشْتُمُها

لِ تُسْلِمَنِي إلى الغسَقِ !

* * * * *

وبَيْنَ تَمازُجِ الألْوانِ

لا أغفُو

ولا أسْلُو

ولا أُلْقِي عَصَا التَرْحَالِ أو أنْجُو من الغَرَقِ !

* * * * *

إلَهِي

هلْ سَـ تُجْدِينِي

مُعَانَاتِي

لأجْلِ هَياكِلِ الطّينِ ؟

وهلْ حسّي

وعاطِفَتِي

وَبَالاتٌ تُعَنِّينِي

وتَمضِي بِي إلى رَمَقي!

فَرُوحي ليس تُلْفِيها

سوى النّشواتِ والعَبَقِ

* * * * *

إلَهي

إنني سَكْرَى

بالآمِ الشّجى تَتْرَى

ونَفْسِي تَألفُ السُكْرَا

ولوْ خَارَتْ، ولم تُطِقِ!!

* * * * *

تُرَى

أَأُميتُ إحْسَاسي ؟

وأسْكبُ دونَمَا أسَفٍ سُلافَ الحبِّ مِن كَاسي؟

تُرَى

أَأُفيقُ في دُنيا تُجدّدُ قلبَها القَاسي؟

...

أأنسى رحلَة العِشْقِ ؟

وما كابَدْتُ مِن صدقِي

أأنسُجُ بعضَ أكفَانِي ؟

وأبْرُدُ مُدْيَةَ التّسليمِ للأوهَامِ وادْ مَذْقِ !

* * * * *

تُحاربُني قَناعاتِي

وَتَهزَأُ بالقِناعاتِ

فأغسِلُ فكرةَ التّخْذيلِ والتّمثيلِ والمسْرحْ

وأبْكِي حينما أبْكي

وأفرحُ حينما أفْرَحْ

أكونُ أنا بِلا غشٍ

فلا أسْعَى بأعْذارِي

وأنْبُذُ سُخْفَ أنْ أشْرحْ

تعادِيني على البلْوى مساءاتِي وأسْحَاري

فأصبِحُ لُقمَةَ الأرَقِ

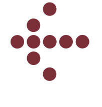
وأغْدُو

ـ يالَذِي الدنياـ

غريمَ الفَجْرِ والشّفَقِ !!

* * * * *

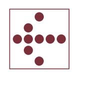
ديوان الأمس ديوان اليوم



يذهب البعض في التطلع إلى الوظيفة إلى حد وصفها بأنها «عبودية القرن العشرين»، في تقييدها لحرية الإنسان في التحكم بأمور عديدة، وحرمانه من مباهج الحياة. وفي رواية نجيب محفوظ «حضرة المحترم» التي صدرت في العام 1975م، وتقرؤها هناء الحمراني*، وصف لحياة الموظف البسيط منذ دخوله السلك الوظيفي، حتى خروجه منه.. محمولاً على الأكتاف.

«حضرة المحترم»

الوظيفة من وجهة نظر نجيب محفوظ



في مسارها العام، تبدو رواية «حضرة المحترم» أشبه بالمذكرات التي يرويها شخص آخر. فبطلها عثمان البيومي موجود في كل التفاصيل، ولكنه لا يروي الأحداث بنفسه.

واللغة التي يستخدمها نجيب محفوظ بسيطة جداً وسلسة ومشوقة. لا تضطرك إلى التثاؤب.. أو الوقوف إلى حين استعادة النشاط لفترة قادمة.. بل إنها تحملك على أن تقرأها دفعة واحدة.. وإن فصلك عنها أمر مهم، تعود إليها متلهفاً.. مترقباً نهاية عثمان في رحلته.

تبدأ الرواية بدخول عثمان بيومي بطل الرواية إلى مكتب المدير العام.. أو (القابع وراء المكتب الفخم).. فعثمان يرى في عمله داخل الوزارة رحلة مقدسة (لا نهائية)، وإن كان يطمح إلى أن تنتهي بجلوسه خلف المكتب الفخم. وبين الواقع والحلم تتجلى التفاصيل الحزينة البائسة لذلك الموظف المسكين الذي علقت له الحياة حلمه كجزرة يسعى للحصول عليها. فهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، ولا يفكر بالوقوف برهة ليتأمل كيف آلت به الأيام، وما الذي آل إليه حاله.

ابن حارة الحسيني

ولد عثمان بيومي لأبوين كادحين.. فالأب كان سائق كارو.. «كان في زمانه من رجال الحارة الأشداء. عاش حياة طويلة معتمداً على عضلات ذراعيه وساقيه، يعمل بلا انقطاع ويعاني على المدى شظف العيش والفقر. قوة مهدرة تتغذى على لا شيء ويقهقه في الملمات بلا معنى ولا سبب. ووجد ذات مساء ميتاً حيث يجلس على الفروة، فلم يدر أحد كيف حضره الموت ولا كيف تلقاه هو».

* كاتبة سعودية



رسوم الموضوع: المحترف السعودي - عمر صبير

أمــا أمــه.. فقــد عملت فــي كل مهنــة لتوفير لقمــة العيش لأبنائهــا. و«كانــت ميتتهــا أدعــى للدهشــة. كانــت تغســل فانطوت على نفســها حتى تقوســت وراحت تصرخ من شدة الألم. وجاءت الإســعاف فحملتها إلى القصر العيني وتقرر إجراء جراحة في الأعور قتلت أثناءها».

قبــل أن يمــوت والده قال له متحســراً لأنه زج به في ســلك التعليم:

«هأنذا أتركك تلميذاً لا حول له، فمن يسوق الكارو؟ ومن يحفظ البيت؟».

كان دخوله الحكومة بالنسبة للحارة إنجازاً لم يحرزه أحد من أبناء حارته.

قالت له (سـيدة) حلم صباه: «أنت الأفندي الوحيد».

فقال بهدوء: «لا قيمة لذلك خارج حارتنا».

«الخــارج لا يهــم، أمــا حارتنــا فهــي حارة الكارو».

قصة أي موظف صغير مسحوق، يأمل ويحلم، والواقع لا يخيِّب آماله، بل يزيد قدرته على الصبر

ولكن حلم عثمان يتعدى حارة الكارو.. ويتعداها.. ليحلِّق بعيــداً.. بعيــداً.. حيــث المكانــة العالية التــي تجتثه من الفقر.

قطار الزواج أم قطار الوظيفة

لم تأل أم حســني صــديقة والدته وخطّابة الحارة جهداً في محاولــة إقناعه بالــزواج. وكانت تعرض عليــه الواحدة تلو الأخرى. وكلما تقدَّم به السن، عرضت عليه زوجة تليق بسنه الذي وصــل إليه. ولكنه من أجل تحقيق حلمه بالوصول إلى منصــب المدير العام تخلّى عن حلمه بالزواج من «ســيدة» حبيبة الصــبا.. «لتدخل مملكة رجل آخر وتنطوي فترة من الشباب وتدفن».

ويرفض عرض مديره الأول سعفان بسيوني الذي استضافه فــي منزله لتناول العشــاء فــي خطة محبوكــة لتزويجه من ابنته. ولكن عثمــان جاهد في رفض العرض المموه، ودفعه دفعــاً بالتعلل بأن في عنقه «صــغاراً وأرامل» و«ما أنا إلا ثور معصــوب العينين يدور في ســاقية».. وهو بالفعل كما قال، ليس لأجل الصــغار والأرامل وإنما من أجل كرســي المدير العام!

فبالنسبة له، كان الزواج وسيلة توصله إلى مكانة اجتماعية مرموقة تتيح له القفز عالياً وتجاوز الســنوات للوصــول إلى مبتغاه، ولكنه ولنســبه الوضيع (ابن سائق الكارو) لم يوفق إلى مثل هذا الزواج المرموق.

ومضــى عثمان.. يتعلم ويقرأ.. ويســتزيد من كل مورد علم لكــي يرتفع درجــة فأخرى في ســلم الحكومة.. والســنوات تارة تختلس عمره وتنهبه تارات.. و«العمر أســرع من جميع حركات الترقيات».

وتمر الســنوات.. ليتجاوز عثمان سن الشباب.. ويفر قطار الزواج ولا يبقى منه إلا الغبار، ليتنبه جزءاً إلى هذا الفرار. «ومــن جنونــه راح يحــاول مغازلة النســوان فــي الطرقات والباصــات بلا خبرة وبلا نجاح، حتى اضطر إلى الكف عن ذلك وهو يقول متأوهاً: ما أضيع العمر!».

يستسلم عثمان، ويتزوج من قدرية المرأة البغي في مفارقة مضحكة مبكية، توضــح البون الشاسع بين ما كان يحلم به والعروض التي انهالت عليه سني شبابه.. والصورة البائسة التي تجلت فيها شــريكة العمــر! ولكن رحلة الزواج لا تنتهي إلى هذا الحد، فها هو يقترن بســكرتيرته (راضية) التي لو قالت له أبي لما أنكر عليها منكر ذلك!

أبو القروش

وفي ســبيل الحلم.. أصبــح عثمان بســيوني رجلاً بخيلاً، لا ينفق إلا بحســاب، ويتقطــع قلبه مع كل قرش يودِّعه. «إنه لا ينفــق القرش بغير ضــرورة ملحة، وفتح حســاباً في دفتر توفيــر البريد مع أول مرتب قبضــه، ولذلــك لم يخطر على باله أن يغيِّر مسكنه أو حارته أو طعامه».

نهاية الحكاية

تتداعى صــحة عثمان، وينطرح في فراشــه وما زال قلبه معلقاً بالدنيا.. بـ«راضــية» وبـ«المدير العام».. لتتكشــف لــه الدنيا عارية.. بغيضــة.. فعمة راضــية، تعاتبها على زواجهــا منــه قائلــة «هــا هــي ذي عقبــى الطمع وســوء التصــرف».

ووظيفــة المديــر العام تــزف إليــه أخيراً وهو علــى فراش المرض.. وكأنها تمد له لســانها ساخرة من حالته. «لعلهم وهبوني الترقية صدقة وهم يعلمون أن الوظيفة باقية لهم». ولــم يلامــس دفء الكرســي.. ولــم يذق حلاوة المنصــب الجديد.. بل فارق فراشه إلى الآخرة.



شخصية المواطن المكدود

فـي قراءة لروايـة نجيب محفوظ «حضـرة المحترم» تقول الكاتبة راندا رأفت «بالرغم من أن عثمان بيومي شخصـية سـيكوباتية إلا أنـه يعبِّـر عن شخصـية الموظف الصـغير بحرفية شـديدة في صـفات البخل أو الحرص الشديد على القرش، والتديـن فـي نفس الوقت، أيضـاً الغلبـة والحياة الصـعبة من جميـع النواحـي والصـراعات الداخلية التي تجعل الإنسان أكثر أنانية لأنه لا يصل إلى شيء ولا يجد أنه قد حقق شيئاً ذا بال، وفي نفس الوقت يقنع نفسه بأنه مهم (حضرة محترم).

وإن كانت صـفات عثمان تبدو شديدة الوضوح فلا بد وأنها ضرورة فنية لإبراز الصـفات، وكأنها خطوط حمراء تحت الكلمة المهمة في الصفحة.

روايـة حضـرة المحترم بوجه عـام تبدو جـادة، لكني أرى فيها كثيراً من السـخرية من الروتيـن الحكومي متمثلاً في شخصـية عثمان أفندي. ولعل محفوظ اختار للرواية اسماً وهـو (حضـرة المحتـرم) تعبيراً عن سـخريته. وخاصـة أن الموظـف كان يطلـق عليـه أفندي ويكتسـب من وظيفته الحكوميـة احترامـاً لـدى النـاس خاصـة البسـطاء منهم (هـؤلاء الذين يهتم بهم نجيب محفوظ في جميع أعماله)، وبـدا أنـه يقول للناس هذا هـو الأفندي المحتـرم بحياته الضنك وميتته البائسة.

شاعرية نجيب محفوظ

وتحدث الكاتب الفلسطيني محمود فهمي عامر عن شاعرية نجيـب محفوظ فـي روايته «حضـرة المحترم». فيـورد لنا نمـاذج متناثرة فـي هذه الرواية تدل على هذه الشـاعرية، ووصـف هذه النماذج بالقصـائد. والحـق أن تلك المقاطع مفعمة بالشـاعرية والصـور والأخيلة المترفـة.. وإن كانت تفتقـر إلى الوزن الـذي يفرق به بين القصـيدة والخاطرة. «ولا يخفـى علـى أحد اهتمـام نجيـب محفـوظ الأكاديمي للفلسـفة، والفلسـفة وإن كانت أم الفنون كما صنفها الكثير مـن المثقفيـن، إلا أنهـا باعتقـادي رفيقـة الشـعر خـلال مسـيرته التاريخية بشـواهدها الحية في نصوصنا القديمة والجديدة. وهذه الفلسـفة كانت المثير الفطري عند نجيب محفوظ لشاعريته الروائية، واعترافه من جانب آخر بريادة الشـعر ووجوده القسـري مع الأديب العربي أينما غرف من فنونـه الأدبية. إن هذه الإشـارات ليسـت وحدهـا التي تدل على شـاعرية نجيب محفوظ، ولكن الدليل المادي هو أقوى البراهين والحجج على تلك الشـاعرية، وهي شاعرية ليست مخفية أو تحتاج لخبير في كشفها، بل هي في رواية (حضرة المحترم) واضحة وضوح الشعر نفسه».

مقتطفات

«حضرة المحترم»..
مقتطفات من الرواية

(1)

كان حمزة السويفي مدير الإدارة يتقدَّم الموكب الصغير، فقال مخاطباً المدير العام:

-هؤلاء هم الموظفون الجدد يا صاحب السعادة..

مر ضوء عينيه على الوجوه، وعلى وجهه ضمناً، فجال بخاطره أنه دخل تاريخ الحكومة، وأنه يحظى بالمثول في الحضرة. وخيل إليه أنه يسمع همهمة من نوع عجيب، لعله يسمعها وحده.. ولما استوفت الفراسة امتحانها الوئيد تكلم صاحب السعادة. تكلم بصوت بطيء وهادئ ومنخفض فلم يكشف عن شيء يذكر من جوهره. قال متسائلاً:

-جميعهم من حملة البكالوريا؟

فأجاب حمزة السويفي: «بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة».

فقال صاحب السعادة بنبرة مشجعة: «العالم يتقدَّم، كل شيء يتغيَّر. ها هي ذي البكالوريا تحل محل الابتدائية».

اطمأنت القلوب ودارت فرحتها بمزيد من الخشوع، فقال الرجل: «حققوا المأمول منكم بالاجتهاد والاستقامة».

وراح يراجع بياناً بالأسماء حتى سأل عن غير توقع: من منكم عثمان بيومي؟

دق قلبه دقة قوية جداً. وقع نطق الرجل لاسمه من نفسه موقعاً مؤثراً عنيفاً. تقدَّم خطوة مطرقاً وهمس: أنا يا صاحب السعادة!

-ترتيبك ممتاز في البكالوريا فلم لم تكمل تعليمك؟

صمت.. اضطرب.. لم يدر في الواقع ماذا يقول بالرغم من حضور الجواب في وعيه طيلة الوقت. وعنه أجاب مدير الإدارة كالمعتذر:

-لعلها ظروف يا صاحب السعادة.

سمع الهمهمة مرة أخرى. ولأول مرة شعر بأن ثمة زرقة تخضب الجو، وأن رائحة طيبة غريبة تجول في المكان. ولم يحزنه أن يشار إلى «ظروفه» المعوقة بعد أن تشرف شخصه بعطف صاحب السعادة والتقدير. وقال لنفسه إنه يستطيع أن يحارب جيشاً بمفرده فينتصر عليه. والحق أنه ارتفع وارتفع حتى غاص رأسه في السحاب.. أما صاحب السعادة فنقر على حافة المكتب وقال مؤذناً بالختام: شكراً ومع السلامة.. وهو يغادر المكان قرأ في سره آية الكرسي».

(2)

النار ترعى روحه من جذورها حتى هامتها المحلقة في الأحلام. وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة كمجموعة من نور باهر، فاحتواها بقلبه وشد عليه بجنون.

كان دائماً يحلم ويرغب ويريد، ولكنه في هذه المرة اشتعل وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة. أما على الأرض فقد تقرر إلحاقه بالمحفوظات. لم يهمه كيف يبدأ.. وهبط إلى مقره الجديد وجناحاه يرفرفان، يشق طريقه إلى بدروم الوزارة. طالعته قتامة، ورائحة أوراق قديمة، ورأى سطح الأرض في الخارج عند مستوى رأسه من خلال نافذة مصفحة. وامتد البهو أمامه. تتلاصق على جانبيه دواليب شنن، وصف طويل منها يشقه شقاً طولياً. على حين استقرت مكاتب الموظفين في ثغرات بين الدواليب. ومضى وراء موظف إلى مكتب يستعرض تجويفاً كالمحراب في الصدر، جلس إليه رئيس المحفوظات. سار وراء الموظف بتشتته وذهوله وانفعالاته وهو يقول لنفسه: اللانهاية هي ما ينشد الإنسان.

وقدَّمه الموظف إلى الرئيس:

-عثمان أفندي بيومي الموظف الجديد.

ثم قدَّم الرئيس إليه قائلاً:

-رئيسنا سعفان أفندي بسيوني..

رأى في الوجه قرابة طبيعية كأنما كان في الأصل من مواليد حارته. وأحب عظام وجهه البارزة وجلده الغامق المشدود وشعر رأسه الأبيض المشعث، وأحب أكثر نظرة عينيه الأليفة الطيبة النزاعة لعكس معنى الرياسة بلا جدوى. ابتسم الرجل كاشفاً عن أقبح ما فيه، أسنان سود مثرمة، وقال:

- أهلاً بموظفنا الجديد، اجلس..

وراح يقلب في صور أوراق تعيينه ثم قال:

-أهلاً.. أهلاً.. الحياة يمكن تلخيصها في كلمتين، استقبال ثم توديع..

وقال عثمان في نفسه: ولكنها رغم ذلك لا نهائية.. وهفت عليه ريح خفيفة مجهولة مليئة بجميع الاحتمالات، فقال إنها لا نهائية ولكنها في حاجة إلى إرادة لا نهائية كذلك.



وأشار الرئيس إلى مكتب خالٍ متآكل جلده منجرد اللون ملطخ ببقع حبر باهت وقال:

- مكتبك، تفحص الكرسي بعناية فإن أحقر مسمار قد يهتك بذلة جديدة.

فقال عثمان:

- بذلتي قديمة جداً والحمد لله..

فواصل الرجل تحذيره:

- واقرأ الصمدية عندما تفتح دولاباً من دواليب شنن، فقبل العيد الماضي طلع علينا من أحد الدواليب ثعبان لا يقل طوله عن متر..

وضحك حتى سعل ثم استدرك:

- ولكنه لم يكن من نوع سام..

فتساءل عثمان بقلق:

- وكيف نفرق بين السام وغير السام؟

- عندك فرَّاش المحفوظات فهو أصلاً من أبو رواش وهي بلدة الثعابين..

وتناسى ذلك وعده مزاحاً.. وراح يلوم نفسه كيف فاته أن يرى بكل عناية حجرة صاحب السعادة المدير العام، كيف فاته أن يملأ عينيه من وجهه وشخصه؟ كيف لم يحاول أن يقف على سر السحر الذي يخضع به الجميع فيجعلهم طوع إشارة منه؟ هذه هي القوة وهي الجمال أيضاً. هي سر من أسرار الكون، على الأرض تُطرح أسرار لا حصر لها لمن له عين وبصيرة. إن الزمن قصير بين الاستقبال والتوديع ولكنه لا نهائي أيضاً. الويل للذي ينسى هذه الحقيقة. ثمة أناس لا يتحركون مثل سعفان بسيوني. الرجل الطيب التعس. إنه يترنم بحكمة لم يتعلم منها شيئاً. كذلك كان أبوه عم بيومي.

هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهي متألقة عند صاحب السعادة المدير العام. هذا هو المثل الأعلى المتاح لأبناء الشعب ولا مطمح لهم وراء ذلك. تلك هي سدرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الإلهية والكبرياء البشري.. ثامنة.. سابعة.. سادسة.. خامسة.. رابعة.. ثالثة.. ثانية.. أولى.. مدير عام. معجزتها تتحقق في اثنين وثلاثين عاماً، وربما تحققت في أكثر من ذلك. أما الساقطون في وسط الطريق فلا حصر لهم. إن النظام الفلكي لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفون منهم.. والزمن يستكين بين يديه كطفل وديع ولكن لأنه يشتعل، هذا كل ما هنالك. ويخيل إليه أن النار المتقدة في صدره هي التي تضيء النجوم في أفلاكها. نحن أسرار لا يطلع على خباياها إلا خالقها. وقال له سعفان أفندي بسيوني:

- ستُدرب أولاً على الوارد فهو أسهل.

ثم، وهو يضحك:

- على كاتب المحفوظات أن يخلع جاكتته وهو يعمل، أو أن يحيك لكوعه كمامة من القماش تقيه شر الغبار والإكلبسات.

كل ذلك يسير، أما العسير حقاً فهو كيف نتعامل مع الزمن.

(3)

في مسكنه حجرة وحيدة ومرافق. يرى نفسه، يتجسد له معنى حياته. إنه يعيش متفتح الحواس مرهف الوعي ليتزود بكل سلاح. ومن نافذته الصغيرة يرى وطنه -حارة الحسيني- كأنها امتداد لروحه وجسده، حارة طويلة ذات منحنى حاد، مشهورة بموقف للكارو ومسقى للحمير. البيت الذي ولد ونشأ فيه تهدم. وقامت موضعه باحة صغيرة لعربات اليد. قليل من مواليد الحارة من يبرحها بصفة نهائية إلا للقبر.

يعملون في مواقع كثيرة، في المبيضة.. الدرَّاسة.. السكة الجديدة.. أو فيما وراء ذلك، ولكنهم يرجعون إليها آخر النهار. ومن خواصها الحميمة أنها لا تعرف الهمس والنجوى، أصواتها مرتفعة جداً، متوترة بين الحكمة والبدائية، ومن بينها صوت قريب قوي خشن لم يخلخله الكبر، صوت أم حسني صاحبة البيت. إن أحلام الأبدية جد مرهقة، ولكن ماذا كان بالأمس؟ وماذا يكون اليوم؟ خليق بمثله ألا يعرف المستحيل. وخليق به ألا يترك نفسه للتيار بلا خطة. وخطة محكمة.

قول آخر

الشّعرُ بالتوصية.. بين المسابقات والجوائز

عبدالعزيز بخيت*

يعود مفهوم السباق في الفنون والرياضة إلى عصور قديمة جداً، وكانت عمليات السباق مصحوبة بطقوس تعطيها بعداً يتجاوز السباق نفسه، ليصل إلى ضرورة تنشيط مخيلة الإنسان، مشاركاً ومتفرجاً، بل لقد كانت السباقات هي بحد ذاتها طقوساً.

مع تقدّم وتطوّر عقل الإنسان وحساسيته، أصبح قادراً على تطوير سلوكه القديم وتحديثه حسب اللحظة المعرفية التي يعيشها، وضمن هذا المجال دخل مفهوم السباق فيما يتعلق بالشعر فضاءً جديداً لم يكن متاحاً له فيما مضى. خاصة مع انبثاق أدوات إعلامية حديثة استثمرها الإنسان على جميع الأصعدة. وبات الحديث منذ عقود وارداً عن جوائز في مضمار الشعر وغيره. وعلى الذي يستحق الجوائز أن يدخل ميدان المسابقات، التي صارت كنوع معاصر من إحياء مفهوم السباق القديم. فكيف يصل المتسابقون إلى مراتبهم؟ ومن يحدّد آلية الوصول؟ وهل تقدم العملية على أحسن وجه، أي هل يُعطى كل من يشارك في المسابقة جائزته التي يستحقها؟

تشكل هذه الأسئلة مشكلة لصيقة بآليات المسابقات التي تؤسّسُ لها لجان تحكيم مختلفة تقرر هي في النهاية من هم الفائزون... ومن المفترض أن تكون الجائزة على مقدار الجهد والنوع الذي يقدِّمه ويمارسه المتسابق، ومن المفترض أن ينظر التحكيم في القصائد والدواوين المقدَّمة على أنها نشاط شعري بحت، نظرة لا تشوبها شائبة، محتكمين في ذلك إلى ماهية الشعر وطبيعته وحدها، دون أي اعتبار آخر، لأن التنافس ينبغي أن يحقق غايته النبيلة في تقدير وإبراز أصحاب الطاقات والمواهب الشعرية الخلاقة العالية، ليقدِّمها للملأ. ولكن الأمر لا يتم على هذا النحو... وتدخل عوامل متعددة في تشكيل المسألة، عوامل تجعلُ من نفسها سلطةً وصية على الشعر ولا تسمح له أن يفرض وصايته هو على المشهد، لاسيما في الجوائز التي باتت تتكاثر منذ سنوات على فضائياتنا العربية.

إن غالبية الجوائز غير بريئة من خضوعها لمرجعيات تتكون من سلطة المال وسلطة الأخلاق أو سلطة الموقف السياسي. وكل من هذه السلطات يدلي بدلوه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في منح وتوزيع الجوائز. ومن النادر جداً إعطاء صك براءة لجائزة ما، فهذا الصك يحتاجُ إلى براهين وأدلة غير متوافرة لدى هذه الجوائز، التي تخضع للشروط المعلنة في نص إعلان الجائزة، كما تخضع «للشروط غير المعلنة»، وهنا تكمن المشكلة. وهي شروط لا يتقنها المتشاركون غالباً، مع أن الوضع الثقافي والإعلامي المعلن يمكن أن يشكّل مؤشراً على تلك الشروط غير المعلنة، فيتمكن عندها المتشاركون من «إتقان اللعبة على أصولها».

ثمّة جوائز تمنح لاعتبارات أيديولوجية، سياسية، أخلاقية. وهنا يبرز دور التحكيم في تسويق النصوص الفائزة وتبرير فوزها، انطلاقاً من الاعتبارات المشار إليها، وليس بالضرورة إعلان هذه الاعتبارات، لكنها متفق عليها ضمناً، ومتعاقد على وجودها سراً، ومأخوذة في الحسبان دائماً وراء الكواليس وعلى طاولات اجتماع لجان التحكيم. ونادراً ما تنجو جائزة من هذه الاعتبارات لأنه نادراً ما تولد جائزة من مصداقية مطلقة. وهنا يولد السؤال المستمر: هل يفوز الشعر في هذه الجوائز أم تفوز اعتبارات ومواقف، كتلٌ وعشائر؟ لقد أصيب الشعر والحالة هذه بسوء حقيقيّ، لأنه أصبح (أي الشعر) الشرطَ الثالث أو الخامسَ، أو لا وجود له ضمن الشروط التي يتنافس وفقها المتشاركون.

إن التحكيم عبارة عن عقليات وذهنيات ومرجعيات نقدية وأخلاقية تؤثر في سياق الجوائز الممنوحة ومستحقّيها، فكثيراً ما يتم إعطاء الجائزة، من قِبل عضو التحكيم، للنموذج الشعري القابع في ذهنه، والمتمثل له، وهو ليس بالضرورة نموذجٌ خلاّق ومبدعٌ، بل قد يكون تقليدياً ومتخلفاً، ومضاداً للعصر، وقد يكون النص الفائز منسجماً مع المنظومة الأخلاقية التي تمثل من يموّل الجائزة وأحياناً من ينظمها. أي أن كل من يمول وينظم ويحكم، يمارس وصايته الخاصة على الشعر، لينسحب الشعر الحقيقي في هذه الحالة.

إذاً ثمّة إقصاء متعمّد للشعر، حتى من قبل لجان تحكيم ترضى أن تكون صورة للشروط غير المعلنة وتمثل وصياً على تنفيذها إلى هذا الحد أو ذاك. وبذلك تضطرّ اللجان إلى خيانة مفهوم الشّعر لتحقيق مفهوم (الشّعر الجدير بالجائزة) نعم هناك شعرٌ للجائزة وشعر غير صالح للجائزة، بغض النظر عن الشعر نفسه خارج وصاية الجائزة. ولن يفوز بها إلا الشعر المخلص للشروط المكتوبة بالحبر السري في كل مسابقة.

* شاعر سعودي



القفل.. والمفتاح

المفتاح والقفل.. القفل والمفتاح، أيّهما أولاً؟ أم أنّ كلاهما معاً؟ أم لعلّ الحكاية أشبه بالجدَل إياه: البيضة والدجاجة، من سبق من؟

أيّاً ما يكون عليه الأمر، فإن الثابت هو أن المفتاح والقفل يُشكِّلان ثنائية متكاملة، متناغمة ومندغمة، كما أن مفتاحاً واحداً بعينه يتوافق والهندسة الدقيقة في متاهة القفل الميكانيكية ومتواليته السريّة.

حزامة حبايب* تحكي حكاية القفل والمفتاح، وهي حكاية قرون طويلة من سعي البشرية، منذ صوغ وعيها الأولي، إلى التماس الأمن والأمان والحماية والإغلاق على ما يخصّنا، ما نريده لنا وحدنا، والضنّ به بعيداً عن عيون وأيدي الآخرين..

* روائية فلسطينية

عادل القريشي


Corbis

اكتُشفت الأقفال والمفاتيح منذ أن اكتَشف الإنسان قيمة «الأداة» في حياته، قاطعاً بفكره الفطري البدائي الخطوة الجوهرية الأولى نحو مفهوم الكائن البشري «المتحضّر». لقد عرف الإنسان القفل قبل أن يَبدأ التاريخ المدوّن، واستقرّت أشكاله الدالة عليه في رسوم الإنسان على الجدران، كمستند توثيقي مهم، قبل أن تُورد في الصحف وسجلات الكتابة.

طالما افتتن الإنسان بمفهوم «الخصوصية»، حتى قبل أن يُبلور صيغة هذا المفهوم نظرياً، كما تجذَّرت قيمٌ مثل «الملكية» و«الفردية» و«المادية» -رغم ما يشوب هذه القيم في أحيانٍ كثيرة من مغالاة وإفراط حتى حد التشوُّه- في المذهب الإنساني الميَّال إلى الاختلاف والتميّز والتفرّد والاستحواذ. والمفتاح، بوصفه قيمة مادية ومعنوية، إنما هو من علامات تميّزنا، يصون فرديتنا، ويحدّد إطارها ويقفل عليها.

رمز السطوة والنفوذ

لقرون عديدة، كان المفتاح رمزاً للأمن والسلطة والقوة، كما ترسّخ في الأساطير في أيدي أصحاب القدرة، وبه تزداد قدرتهم وتتعزز. فتبنّى الملوك والأباطرة ورجال الدولة والفرسان والنّبلاء المفتاح رمزاً جلياً في راياتهم وفي شعارات النبالة، التي تعكس هويّتهم وإنجازاتهم ومحتدهم الذي يعتزّون به وفي أختامهم الرسمية. وكان تسليم مفاتيح قلعة أو حصن أو مدينة في الأزمنة الآفلة يُعد حدثاً احتفالياً، ترشّح لنا عبر مصفاة التاريخ من خلال احتفالية «مفتاح المدينة» التي تحتضنها في الوقت الراهن مدن عالمية عدة، وذلك لتكريم شخصيات مشهود لها بعطاءاتها الإنسانية والاجتماعية والثقافية أو خدماتها... ويقال إن منبع هذه العادة يعود إلى العصور الوسطى، حين كان اللوردات الإقطاعيون يحمون مدنهم بأسوار عالية وبوابات موصدة بإحكام، تفتح في النهار وتُغلق في الليل، فلا تستقبل الغرباء إلا بشهادات وأوراق قانونية، أشبه بتصاريح دخول مختومة. فكان مفتاح المدينة يُقدّم للتجار الذين تربطهم بقاطنيها مصالح متبادلة، أو للشخصيات الاعتبارية وكبار الزوار، كنوع من ائتمانهم على «حرمة» المدينة، والإعراب لهم عن ثقتها بهم ومنحهم حرية دخولها ومغادرتها متى يشاؤون، إذ يُعهد لهم بمفتاح البوابة: رمز أمن المدينة وأمانها!

واليوم، العديد من المدن العالمية تقدِّم مفتاحها لشخصيات بارزة، من نجوم الفن والمجتمع، أو لمنظمات ذات نشاط إنساني نبيل، أو حتى لمواطنين «صالحين» (من ذلك حين قدَّمت مدينة نيويورك في العام 2004م مفتاح مدينتها لسائق سيارة أجرة أمين قام بإرجاع حقيبة تحتوي على لآلئ بقيمة عشرات الآلاف من الدولارات)، وذلك كنوع من التكريم الرفيع، علماً بأن المدينة لا تحيطها أسوار أو بوابات بمفاتيح، وبالتالي فإن المفتاح، المصنوع من معدن عادي -قد يطاله الصدأ والبهتان مع الوقت- وبتصميم قد يبدو مُبتذلاً ونقشٍ يحمل اسم المدينة، ليس سوى مفتاح رمزي، لا يفتح باباً ولا حتى علبة سردين!

لكن تسليم مفتاح المدينة ليس بالخبر السار دائماً؛ فحتى القرن الثامن عشر، كان المفتاح رمزاً لاستقلالية الأفراد ومنعة المدن، وحين تستسلم مدينة ما لجيش غازٍ فإن هذا يُرمز له من خلال تسليم مفاتيح المدينة للغزاة! ففي لوحة «استسلام بريدا» (1652م) للرسام الإسباني الشهير دييغو فيلاسكيز، المعروضة في متحف برادو في مدريد، يصور الرسَّام حاكم مدينة بريدا الهولندية، جاستن دي ناسو، وهو يسلِّم مفتاح المدينة خاضعاً للجنرال الإسباني أمبروسيو دي سبينولا. أما لوحة «بيوس تابيستري» المطرّزة التي يعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر (وهي قماشة مطرَّزة طولها 70 متراً وعرضها نصف متر، تصوِّر الأحداث التي قادت إلى الغزو النورماندي لإنجلترا عام 1066م وأحداث الغزو نفسه)، فتضم مشهداً لكونان الثاني، دوق


Corbis

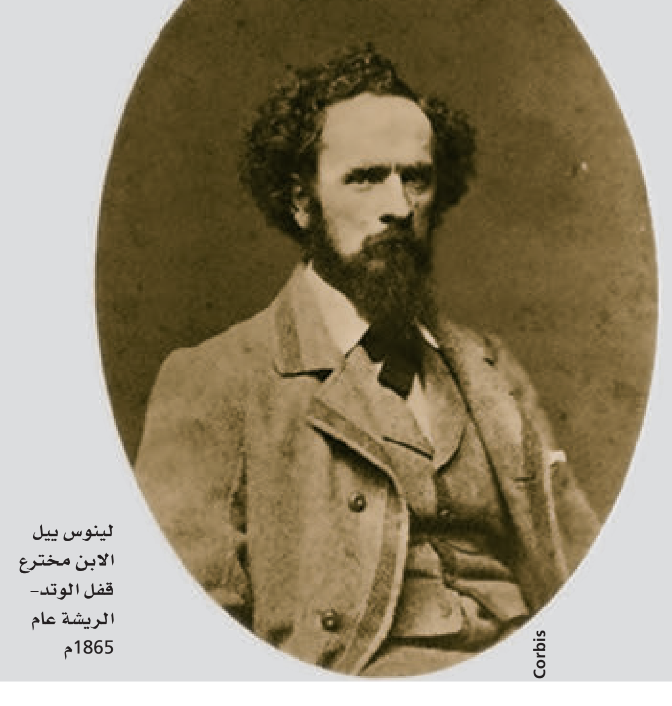
مفاتيح من العصر الروماني

Corbis

لوحة «استسلام بريدا» للإسباني فيلاسيكيز

بريتاني في فرنسا، يسلِّم مفتاح مدينته مكرهاً لوليام دوق نورماندي، قائـد القوات النورمانديـة، الملقَّب بوليام الغازي، والذي أصبح ملك إنجلتـرا منذ أواخـر العام 1066م وحتـى وفاته. وحتـى لحظة ما قبل الاستســلام، يبـدو كونان متمنِّعاً، إذ يسـلِّم المفتاح للغـازي على رأس رمحه المدبَّب فيما يتقبَّل وليام استسلامه، مستلماً المفتاح، هو الآخر، على رأس رمحه كأنه يوصل له رسالة: إذا كنت تريد الموت على تسليم المفتـاح أسـتطيع أن أعطيـه لك برمحـي، وفي جميع الأحوال سـآخذ المفتاح!

لقد كان المفتاح عنوان السـطوة والمكانة والنفوذ. في مصر القديمة، كانت أهميـة «رأس البيت» يحدّدها عدد المفاتيـح التي يمتلكها؛ حيث كانت ضخمة يحملها العبيد على أكتافهم، سائرين وراء صاحب البيت. وكلمـا كثُـر عبيد ربّ الدار أو حاملو مفاتيحـه كلما دلَّ ذلك على درجة ثرائـه ومكانتـه. لكن الحظوة في البيت الاسـكندينافي كانـت للمرأة. ففي حقبة الفايكنغ، التي امتدّت من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشـر ميلادية، احتلـت المـرأة المتزوجة مكانـة بارزة فـي التراتبية



Corbis

لينوس ييل الابن مخترع قفل الوتد- الريشة عام 1865م

فنّ «سرقة الخزينة» في الشاشة..
لصوص الأقفال

على غرار الممنوع مرغوب، فإن «المقفول» يحفّز الرغبة لفتحه، ويثير الشهية لافتضاض مكنوناته. في ثنيات التاريخ الواقعي والمُتخيَّل، أغوت الأبواب الموصدة اللصوص الذين لم يتورّعوا عن استنباط كافة الأساليب لـ «هتك» الأقفال وفك شفرة الخزينة البنكية المعقدة أو حتى تفجيرها، إذا لزم الأمر.



فتح الأقفال في الأفلام.. سهل

البدايةُ بدائية كانت، أو هكذا قدّمتها بعض الأفلام في السينما العربية؛ فثقب الباب العريض، الذي نتلصّص منه على ما يدور خلف الباب، كان سهل الاقتحام، بصورة كاريكاتورية! إذ كان يكفي أن ندسّ ورقة تحت الباب، ثم بدبوس أو مشبك صغير ندفع المفتاح من الثقب في الجهة المقابلة فيسقط على الورقة، ومن ثم نسحب الورقة من تحت الباب إلينا ليصبح المفتاح بحوزتنا! إذ تضاءل تالياً حجم ثقب الباب ولم تعد العين ترى ما خلفه، لذا اعتمد اللصوص تقنية بسيطة في فتح الباب، قوامها نسخ المفتاح، بعد طبعه على لوح من الصابون أو الشمع، وذلك منذ اختراع أول آلة لقص و«خراطة» المفاتيح في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1917م، أو ببساطة شديدة الاستعانة بأداة مدببة، كدبوس أو مبرد مستدق الرأس، للتلاعب بالنوابض أو تحريك المسننات داخل القفل لفتحه دون حاجة لمفتاح، في مشهد متكرر في السينما العالمية.

والإثارة تتصاعد، على الأقل في السينما، بعدما شكّل السطو على الخزائن المصرفية سيناريو متكرراً، مشحوناً بالإثارة التي تعلو معها ضربات القلوب، وهو ما يتوافق وتطور التقنيات الأمنية في صناعة الخزينة، في المصارف والكازينوهات والمتاحف. لعل المشهد الدارج في المخيلة السينمائية قيام أحدهم بالتنصت إلى صوت حركة القفل التوافقي، الذي يعمل بتوليفة رقمية، بالاعتماد على أذنه أو بالاستعانة بسماعة طبية لاقتناص حركة القفل إذ يصيب الرقم الصحيح مكانه المخصص في القرص المدرج، محدثاً صوت طقطقة لا تخطئها الأذن الخبيرة! ومع تطوير تقنية الأقفال التوافقية في الخزائن، لجأ اللصوص إلى خيار يائس عبر تفجير الخزينة، ثم في مرحلة لاحقة من لعبة «القط والفأر» بين اللصوص والقيِّمين على الخزائن، اعتمدت مصارف العالم الكبرى خزائن ذات أبواب مصفحة، مضادة لأقوى أنواع التفجيرات الأمر الذي عنى سعي اللصوص إلى البحث عن وسائل أكثر دهاءً للاحتيال عليها.

من أشهر الأفلام العالمية التي صورت عملية الاستيلاء على المصارف أو الخزائن، بطريقة عمدت بعضها إلى «تبجيل» اللصوص، فلم «غابة الإسفلت» (1950م)، والفلم الفرنسي «ريفيفي» (1955م)، وسلسلة الأفلام الدنماركية «عصابة أولسن» (1968 - 1998م)، والفلم الأمريكي «اللص» (1981م)، والجزء الأول من سلسلة أفلام الآكشن الأمريكية «الموت بصعوبة» (1988م)، وفلم «قتل زو» (1994م)، وفلم «حرارة» (1995م) وفلم «الأشقاء نيوتن» (1998م)، و«أوشن 11» (2001م) وعشرات الأفلام التي تظهر حنكة اللص في مواجهة المؤسسة الأمنية!

لكن الخيال التصويري يتخطى الواقع بكثير؛ ففي تنافس محموم بين الواقع الأمني والرواية السينمائية، يتحول «الجسد البشري» إلى مفتاح يقهر أكثر أنواع الأقفال غير القابلة للكسر أو التحطيم! في فلم «المصيدة» (1999م)، تتمكن النجمة كاترين زيتا جونز، مستعينة برشاقة استثنائية، من الاحتيال على قفل قوامه شبكة أمنية متقاطعة من أشعة الليزر، عبر القفز فيما بين الأشعة، حيث تنجح في تجنب أي احتكاك معها قد يؤدي إلى إطلاق دوي صفارات الإنذار، وهو مشهد يتكرر في فلم «أوشن 12» (2004م)، الجزء الثاني من «أوشن 11»، حين ينجح لص رشيق جداً، يجسّد دوره النجم الفرنسي فينسنت كاسيل، في تخطّي شبكة الإنذار الليزيرية، عبر أداء جمبازي بهلواني يصعب تصديقه!



Corbis

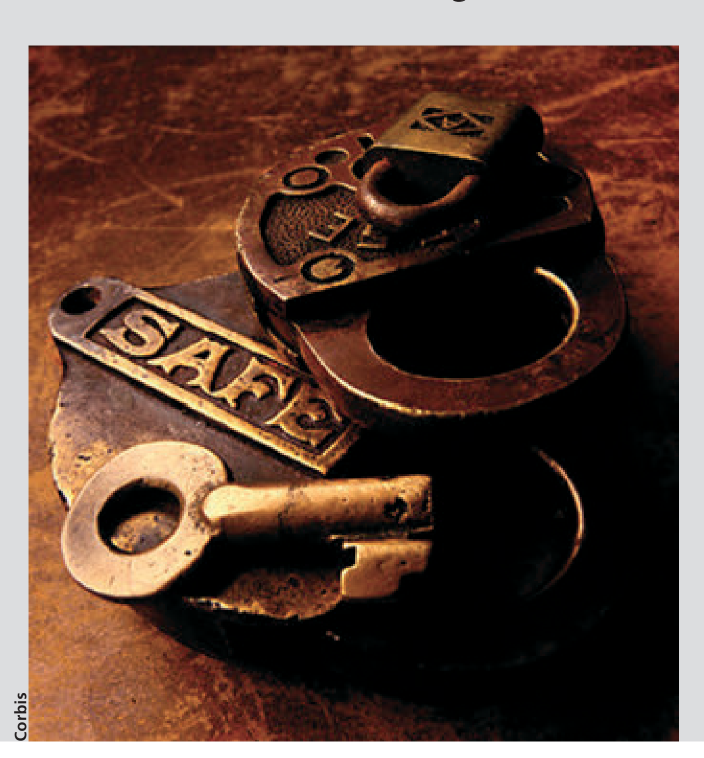
«مفتاح المدينة» لا يفتح شيئاً.. إنه مجرد تقدير

الاجتماعيـة، وكانت المفاتيح رمـز هذه المكانة. فعنـد الزواج، كانت عروس الفايكنـغ تُمنـح مجموعة مـن المفاتيح، للدلالة علـى مكانتها الجديدة، والمسـؤوليات التي باتت تتولاها بوصـفها ربّة البيت، وكانت المفاتيح البرونزية تتدلّى من ملابسها، أمام العيان، إلى جانب سكين صـغيرة أو مقص كي يعرف الجميع -أينما حلّت- أنها متزوجة. ليس هذا فحسـب، بل كانت امـرأة الفايكنغ تحمل معهـا مفتاحها حتى إلى قبرها، إذ جرت العادة في ذاك الزمان على أن تُدفن مع قطعة أو أكثر مـن مقتنياتهـا، أهمّهـا المفتاح وإلى جانبـه مقصّ أو إبـرة خياطة أو قطعة مجوهرات أو أي شيء آخر.

تطوره عبر التاريخ

لعـلّ حرص الإنسـان على أمنِه وسـعيه إلـى حماية ملكيّتـه ووجوده وُلـد منـذ أن دبّ على الأرض، ويمكننا القول في هذا السـياق إنّ أوّل «مفتاح» طوّعته البشـرية كان عبارة عن غصـن شـجرة، وذلك حين كان رجـل الكهف -أو «الإنسـان الصـياد» كمـا يُلقّـب آركيولوجياً- يسـتخدمه كعتلة لتحريك الحجـر الجلمودي الضـخم الذي يحرس فتحة كهفه. ولم يكن الخيال الإنسـاني يتورّع عن المضـي قُدُماً بغية التماس الخصوصية وحماية الغالي والأغلى. في الهند القديمة، كان يتمّ الاحتفـاظ بالممتلـكات القيّمة لأهل الحكم والمـال في حاويات محكمـة الإغلاق، ومن ثم تُغمر في البحيرات التي تحيط بالقصـور، يحميها «حرس خاص» قوامه مجموعة من التماسـيح الشرسة، التي يتـمّ إطعامهـا كميـات قليلة من الطعـام، بحيث تظـل جائعة معظم الوقت، حتى إذا ما تجرأ أحدهم وغاص في البحيرة، التهمه تمسـاح فـي لحظات. كانت هـذه أمتن الأقفال العصـية على النسـخ. فلبلوغ الكنوز الدفينة في الماء، كان يتعيّن قتل المفاتيح، أي التماسـيح، أو تخديرها!

تاريخياً، يمكن تتبّع أول نظام للقفل والمفتاح، بالمفهوم التقليدي الذي شـكّل الأسـاس لتطور نظام الأقفال والمفاتيـح الحديث، حتى قبل نحو أربعـة آلاف عـام. وبحسـب الموسـوعة الأمريكية والموسـوعة العربية الشـاملة فإن أقدم قفل في العالم طوّره المصريون في العام 2000 كان قبل الميلاد. أما الموسوعة البريطانية، فتشير إلى أن أقدم نظام للقفل هو الذي عُثر عليه في أطلال قصر خور ساباد في مدينة نينوى العراقية ويعـود إلى ما قبل نحو أربعة آلاف عام. وبسـبب اسـتخدامه على نطاق واسـع في مصر في الفترة ذاتها بات يُعرف بالقفل المصري، وهو لقب ظـل يشـكِّل المرجع لتطوير آلية عمـل الأقفال والمفاتيـح لقرون طويلة لاحقـة. يعرف هذا النوع مـن الأقفال بقفل الوتد/الريشـة، ومنه تطوّر



Corbis

مفاتيح الخزنات.. كانت دائماً الأمتن في حماية الملكية الثمينة

عندما كان لباب المدينة مفتاحه

نظام القفل الحديث واسع الاستخدام في القرن التاسع عشر، حيث لا يزال يشكِّل الأساس النظري لآلية عمل نظام الأقفال عموماً.

يتكون القفل المصري أو الآشوري من مزلاج خشبي كبير يؤمِّن الباب، تتخلله عدة ثقوب على سطحه الخارجي. ثمة قطعة مثبتة على الباب تحتوي على العديد من الخوابير الخشبية مصمّمة في وضعية بحيث تنزلق في هذه الثقوب، بفعل الجاذبية الأرضية، وتثبت المزلاج، فتمنعه من التحرك وبالتالي لا يمكن فتح الباب. أما المفتاح فعبارة عن قضيب خشبي كبير، يشبه فرشاة الأسنان، ذي أوتاد بأطوال مختلفة في وضع عمودي تطابق الثقوب والخوابير. عند وضع المفتاح في ثقب المفتاح الكبير تحت الخوابير العمودية، يرتفع ببساطة بحيث يعمل على رفع الخوابير، مُفسحاً المجال للمزلاج والمفتاح في داخله كي ينزلق ثانية. ولقد عُثر على نماذج مشابهة لهذا القفل في حضارات قديمة عدة في شمال أوروبا وفي الهند والصين واليابان.

وفي تقنية أكثر بدائية اعتمدها اليونانيون، كان يتم تحريك المزلاج بواسطة مفتاح من الحديد على هيئة منجل بمقبض

Corbis

Corbis

Corbis

Corbis



خشبي. وكان يُمرَّر المفتاح المنجلي الشكل في ثقب في الباب ثم يُدار، بحيث يشتبك رأس المنجل بالمزلاج المثبت داخل الباب ويرفعه أو يسحبه إلى الخلف. على أن هذه التقنية لم توفر أماناً كبيراً. هنا، جاء دور الرومان الذين قطعوا بصناعة الأقفال والمفاتيح خطوات نوعية. فحتى آنذاك، كانت الأقفال تُصنع من الخشب، في حين كانت المفاتيح من الخشب أو البرونز أو الحديد، فكانت المفاتيح المعدنية تعمل على اهتراء الأقفال الخشبية بسرعة. فطوّر الرومان أول أقفال معدنية قابلة للصمود زمنياً، حيث كانت الأقفال مصنوعة من الحديد الصلب بينما كانت المفاتيح في الغالب من البرونز. ولقد جمع الرومان بين خصائص النموذجين المصري واليوناني في صنع الأقفال، مطورين تقنية أقفال ميكانيكية مبتكرة تم تثبيتها داخل الباب، بحيث تعمل بمفتاح من الخارج عبر ثقب مخصص له. علماً بأن ابتكار ثقب المفتاح التقليدي ينسب إلى اليونانيين، في حين أن الرومان هم الذين حسّنوه وشذّبوه.

Corbis

وصمّم الرومان أقفالاً بخوابير وأوتاد ذات أشكال عدّة مع مفاتيح تناسبها وثقوب مفاتيح غير مألوفة، الأمر الذي قلّل من إمكانية قيام أحدهم بنسخ المفتاح. كما صاغوا الأقفال بنقوش وزخرفات ورسومات تمويهية، فجعلوها على شكل حيوانات وأزهار وطيور. كذلك، نالت المفاتيح نصيبها من الزخرفة، فدلت غزارة النقش وطبيعته وتعقيداته على مكانة صاحبها، بل إن بعض المفاتيح كانت ذات تشكيل جمالي موشّى بالذهب أو الفضة فجاز معه التباهي بها إذ تدلّت من القلائد حول الأعناق وفوق الصدور.

ويُنسب للرومان أيضاً أنهم اخترعوا الأقفال المسنّنة، حيث لا يزال المبدأ الذي تقوم عليه معتمداً في أقفال اليوم. كما يشير الاسم، توجد الأسنان أو النتوءات، داخل القفل حيث تمنع المفتاح من الدوران إلا إذا كان وجه المفتاح المسطح، أي لسانه، فيه شقوق صغيرة بطريقة يمكن للنتوءات أن تتخللها؛ فقط المفتاح ذو الشقوق المناسبة يمكن أن يفتح القفل المسنّن. ولما كانت الأسنان تُنحت من أجزاء معدنية صغيرة، فقد كان الرومان أول من صنعوا الأقفال والمفاتيح الصغيرة، بل إن بعض المفاتيح كانت من الصغر بحيث

مفاتيح لا تشبه المفاتيح

إن المفتاح في منشئه هو الأداة التي تحرِّك وتدير وتشغِّل، وهو في المبتدأ الأساس الذي تعمل به الأشياء، لذا فإنه كفكرة يمكن قولبته في أكثر من مصطلح وفي أكثر من هيئة. وبالتالي، لا يتعيَّن أن يكون المفتاح -من حيث الشكل- هو المفتاح التقليدي إياه، بالهيكل المعدني ذي المقبض والطرف المسنَّن أو المشرشر! فثمة مفاتيح لا تشبه المفاتيح، تقوم بمهمَّة الفتح والتشغيل، أو قد تلعب دور الموجِّه والمحدِّد.

فالموسيقى لها مفتاح، وهو مصطلح مجازي، لا أداة، يُستخدم للدلالة على الأساس الذي كتبت به مقطوعة موسيقية بعينها، كأن تُكتب مثلاً بالمفتاح C، وهو ما يعني أن مركز النغم فيها هو المقياس C، حيث يضم المفتاح الموسيقي نغمات المقياس وكل الأوتار التي تصوغ هذه النغمات. في الموسيقى أيضاً، تستخدم كلمة «مفاتيح» للإشارة إلى الأصابع الصغيرة، باللونين الأبيض والأسود، التي تَفتَح وتُغلق فتحات الصوت الهوائية الموجودة على الآلات الموسيقية، مثل الكلارينيت. وهناك آلات كالبيانو والأرغن لها روافع تُسمَّى مفاتيح، حيث يضغط العازف عليها لإخراج الصوت. تُعرف مفاتيح البيانو والأرغن وغيرهما من الآلات الموسيقية بالـ «كيبورد» Keyboard أي «لوحة المفاتيح».



Corbis

ونستخدم لوحة المفاتيح أيضاً في الكمبيوتر، وهي عبارة عن لوحة أو أداة لإدخال البيانات، مصممة على نمط الآلة الطابعة، بترتيب معيَّن من المفاتيح أو الأزرار، تحمل أحرف وأرقاماً ورموزاً، تعمل بمثابة رافعات ميكانيكية أو مفاتيح إلكترونية. ويحمل كل مفتاح على لوحة المفاتيح نقشاً لحرف أو رمز أو رقم، بحيث يتم إدخاله في الكمبيوتر من خلال الضغط عليه، أو الضغط على أكثر من مفتاح في الوقت نفسه.

ولا يصح أن نغفل «مفتاحاً» توضيحياً حيوياً في الخرائط والرسوم البيانية يُطلق عليه «مفتاح الخريطة»، وهو عبارة عن مقياس يضم قائمة من الكلمات والتعبيرات والألوان، عادة ما يوجد في إطار صغير داخل الخريطة، بحيث يشرح معنى الرموز والإشارات الموجودة في الخريطة.

قلبي ومفتاحه

إن القلوبَ مستودعُ الأسرار ومُحتضنُ الهمس ومأوى العواطف الشجيّة. وقد لا يكون من الحكمة أن نفتح باب القلب لكل من هب ودبّ. علينا أن نوصد على نبض الفؤاد، نضنّ بفرحه كما نُغلق على حزنه، فلا نأتمن غير الحبيب على مفتاحه، ألم يُغنِّ فريد الأطرش: «قلبي ومفتاحه، دول ملك إيديك، ومساه وصباحه، يسألني عليك»؟

وثمة طقس عالمي لما يعرف بـ «أقفال المحبة»، كعادة مستحدثة ضمن بدع عالمية «شعبوية» -لا تنفع كما لا تضر- يقوم فيها الأحبة الشغوفون بتثبيت أقفال على سياج أو عمود أو جدار في سلسلة معدنية، كرمز للحبّ الأبدي، بحيث تُحفر أسماء الأحبّة أو الأحرف الأولى منها على القفل، ثم يُرمى المفتاح بعيداً، ويا حبذا في قاع نهر أو بحر لضمان ألا يستعيده أحد. بذلك، يُقفل على الحب إلى الأبد، ولا يتسنّى لكائن من يكون أن يفتح القفل الموصد على القلوب.

لا توجد مرجعية أكيدة لجهة أصل هذه البدعة، أو للجغرافيا الأم التي ولدتها قبل أن تستشري في جغرافيات متعددة، وإن كان يُعتقد على نطاق عريض أن هذا التقليد وُلد في الصين، حيث يُمكن لمح أقفال المحبة، من مختلف الأحجام والأشكال بنقوش وكتابات منمنمة، مثبتة في مواقع عدة على طول سور الصين العظيم، متراصّة بالآلاف في صفوف لا تنتهي من السلاسل الحديدية المتشابكة. وعادةً ما تشكّل أبراج المراقبة الموزّعة في نقاط استراتيجية بعينها في سور الصين مواقع منتخبة لعقد الزيجات، حيث يتبادل العروسان نذور الزواج، أمام الأقرباء والأصدقاء، بينما يعلّقان قفلاً محكم الإغلاق في سلسلة الأقفال، ثم يقذفان المفتاح بعيداً على أمل أن يبقى حبهما ويعمّر، كما عمّر سور بلدهما الأعظم.

ولقد انتشر تقليد أقفال الحب وراج في أماكن عدة في مختلف أنحاء العالم مثل مدن روما وفلورنسا وتورين في إيطاليا ومدينة بيكس في هنغاريا وريغا في لاتفيا، ومونتيفيديو في الأرغواي، وسيئول في كوريا الجنوبية وطوكيو في اليابان، وكولون بألمانيا، وكييف في أوكرانيا، وإشبيلية في إسبانيا، واستوكهولم في السويد وموسكو في روسيا وغيرها. الطريف أن تقليد أقفال المحبة، وإن كان يوحي بطقس موروث عتيق وخرافة غابرة، يُعد مستحدثاً جداً؛ ففي هنغاريا ذاعت هذه الأقفال في ثمانينيات القرن الماضي، أما في إيطاليا، فإن عمرها لا يزيد على سنوات أربع، في تمثيل عجيب للواقع إذ يُحاكي الأدب والفن. ذلك أن البدعة اختلقتها بنات أفكار الكاتب الإيطالي فيدريكو موتشيا في روايته الرومانسية «أريدك»، التي نشرت في العام 2006م والتي تحوّلت إلى فلم سينمائي في العام 2007م لقي نجاحاً شعبياً. فبحسب وقائع الحكاية/الفلم، يحاول شاب أن يظفر بقلب فتاة، زاعماً أن هناك تقليداً يقوم فيه الحبيبان بموجبه بتثبيت قفل في سلسلة حول عمود إنارة على جسر بونتي ميليفيو القديم في روما، ثم يلقيان بمفتاح القفل في نهر التيبر ليظل قفلهما بمنأى عن أن يفتحه أحد، وبالتالي يظل الحب قائماً وصامداً إلى الأبد. ولقد عمل الفلم على تأجيج حمى أقفال الحب لتصيب القاصي والداني، ابن البلد والسائح الوافد إلى مدينة الرومانسية، يتدفقون على الجسر بالعشرات يومياً، معلقّين أقفالاً تحمل نقوش أسمائهم ورسومات لقلوبهم في سلاسل مثبتة حول أعمدة الجسر، حتى لم يعد ثمة عمود بلا سلاسل وأقفال، وقد فاض النهر بالمفاتيح وغصت بها الأسماك المسكينة التي تدفع ثمن تهور مجانين الحب، الأمر الذي دفع مسؤولو المدينة (حماية للجسر وأعمدته التاريخية من أن يلحقها تشوه أو ضرر وليس دفاعاً عن الحب) إلى نصب أعمدة من الفولاذ مخصصة رسمياً لأقفال الحب. وسرعان ما امتدت سلاسل الأقفال إلى مدن إيطالية أخرى.

FEDERICO MOCCIA
HO VOGLIA DI T...

Corbis



Corbis

كان بالإمكان ارتداؤها كخواتم، فيما استحال موضة رائجة في الحقب البعيدة. ومن جديد، يستثمر الرومان خبرتهم، التي صقلتها المعرفة، في ابتكار الأقفال المحمولة، وإن كانت مراجع عدة تشير إلى أن الصين هي الموطن الذي شهد ولادة الأقفال المحمولة، أسلاف الأقفال الأسطوانية المحمولة حالياً، في حين عمل الرومان على ترويجها وتوسيع قاعدة استخداماتها. إذ راجت هذه الأقفال تحديداً وسط التجار والرحالة، ممن كانوا يسافرون بالصناديق التي تحمل بضائعهم في طرق التجارة البرية والبحرية، دون أن تردع هذه الأقفال، التي عرفت بـ «أقفال السفر»، قطّاع الطرقات ولصوص القوافل وقراصنة البحار من السطو على الصناديق!

مجدُ «القفّالين»

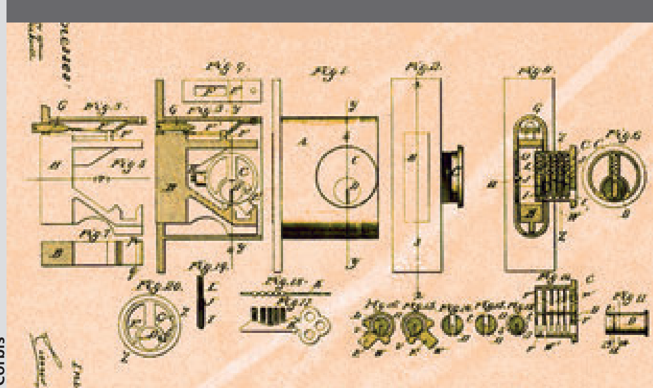
من المفارقة القول إن العصور الوسطى في أوروبا، المعروفة تاريخياً بعصر الظلام، أضاءتها الأقفال، وربما الأقفال فقط، التي شهدت أوج تطورها وإبداعيتها. وبلغت حرفة صانعي الأقفال أو «القفّالين» الذرى، فبنوا مجدهم الخاص في صناعة استحالت فناً، بعد أن كانت علماً، مع سيادة ذائقة مترفة ومبهرجة. كانت العصور الوسطى بحق ساحة سجال فنّي تبارى فيها القفّالون في استعراض ابتكاراتهم. فقد تحولت الأقفال من الخارج إلى ما يشبه «اللوحة»، مستوعبة من النقوش والرسوم ما أحالها إلى لوحات فنية. على أن تطور شكل القفل خارجياً لم يُضف كثيراً إلى عمل آليته. ومن التحسينات التي شهدتها تلك الحقبة إخفاء ثقب المفتاح في القفل من خلال مصاريع أو أغطية سرية، كما تم تصميم بعض الأقفال بحيث تطلق دبابيس أو سهاماً صغيرة مسمومة أو سكاكين متناهية في الصغر حين كان يتم إدخال مفتاح غريب في القفل، وهو ما خاطب الخيال «القرن أوسطي» المفتون بالخرافة والغموض!

متحف الأقفال

يظل لأقفال الأمس ومفاتيحها وهجها وصدى خشخشة المعدن البارد عبر التاريخ، فيثير ذكريات ينتفض معها عصب الروح. لهذه الذكريات مساحة حية في متاحف عالمية مختصة، لعل أشهرها متحف الأقفال في سيئول في كوريا الجنوبية، الذي يضم تشكيلة غنية من الأقفال وميداليات المفاتيح ومزاليج البوابات وسقّاطات الأبواب.

وتحظى الأقفال والمفاتيح بأهمية خاصة في كوريا، فالأقفال ليست مصمَّمة لتكون أداة أمنية فقط، وإنما تنطوي على سمات جمالية بحيث يمكن استخدامها كزينة داخلية أو تحفة فنية. ومن خلال الجمع بين أشكال وأنماط رمزية، تحوّلت الأقفال إلى مظهر حيوي من مظاهر الثقافة الكورية عبر الأزمان. وغالباً ما شملت التصاميم المستخدمة في تزيين الأقفال وزخرفتها على موتيفات نباتية وحيوانية للتعبير عن آمال صاحبها وأمنياته للمستقبل. وإلى جانب الأقفال، يؤوي المتحف تشكيلة بالغة التنوع من ميداليات وعلاّقات المفاتيح، كإكسسوارات شخصية غنية بالنقوش، حيث تورثها الأمهات الكوريات لبناتهن لتذكيرهن بواجباتهن إزاء تدبير شؤون بيوتهن وأسرهن. وفي العديد من المناطق الكورية، كان إهداء حديثي الزواج ميداليات مفاتيح تتدلّى منها قطع نقدية تذكارية هدية أثيرة، وكانت هذه الميداليات تُستخدم لتزيين الجدران أو الأثاث في بيت العروسين، لعلّها تكون مفتاحاً للسعادة والحياة المديدة.

وهناك أيضاً متحف أمريكا للأقفال الكائن في بلدة تيريفيل بولاية كونيكتيكت الأمريكية، حيث يضم ثماني قاعات عرض، تحتضن كل أنواع الأقفال والمفاتيح التي تغطي حقباً تاريخية عدة، من بينها قاعة مخصصة لأقفال خزائن البنوك وقاعة لـ «أقفال ييل»، التي صنعتها شركة ييل (نسبة إلى لينوس ييل الأب والابن) في الفترة الممتدة من 1860 وحتى 1950م، من بينها نموذج الاختراع الأصلي لـ «قفل الوتد/الريشة» الذي ابتكره لينوس ييل (الابن) عام 1865م، الذي يُعد أعظم اختراع في تاريخ صنع الأقفال.



Corbis

في الحكايات والأدب

منذ الأزل، دخل المفتاح في التجربة البشرية من بوابة الواقع كما بوابة الخيال والحكايات، في معانٍ عديدة كشفت الرغبة الإنسانية المتحرِّقة أبداً إلى كشف المستور وفضّ المغاليق، والوقوع على الغريب والغامض والآسر والمستجدّ والمثير والخطير. وطالما شكّلت المفاتيح مادة محفِّزة للخيال في التراث الحكائي العالمي، تفتح الصناديق الملغزة والحجرات السرية، وتفضّ الأحاجي المعقّدة، فتتكشّف عن سرّ عظيم وقدر مبيّت يرتقي إلى درجة السحر أحياناً.

إن المفتاح هو الفتح والكشف، هو الجلاء والتبدي للعيان، هو الإقليد والإغْليق، وهو المغلاق ونقيض الإغلاق، هو مادي جداً كما أنه رمزي ودلالي. أو ليس «الصبر مفتاح الفرج»؟ هو رمز الانتقال من فضاء إلى فضاء، من عالم إلى آخر، ومن قناعة إلى أخرى. قد يقودنا إلى أفق طلق حر كما قد يوصد علينا زنازين الأسر؛ قد يُدخلنا حجرة مضاءة بالأمل، وقد يدفعنا إلى حجرة معتمة غارقة في ظلمات الوحشة؛ قد يفتح لنا صندوق علم مغلق ومعرفة مبهمة، كما قد يشرع لنا صندوق «باندورا» المَليء بالشرور! وباندورا في الأسطورة الإغريقية، هي المرأة التي أعطاها زيوس، ملك الملوك وحاكم جبل أوليمبوس، جرة كبيرة وأمرها بألا تفتحها مهما كانت المغريات، لكن فضول باندورا تخطى أوامر زيوس، وفي النهاية لم تستطع مقاومة غواية الأسرار المستكينة في الجرة، فما إن فتحتها حتى خرجت منها كل الشرور والأمراض والبلايا والرزايا التي لم يعرفها الإنسان. على أن الأساطير اليونانية بما تحمله من رمزية لم تشأ أن تكون النهاية مأساوية تماماً، ذلك أنه في قاع الجرّة كمن الأمل، الأمل بأن يتخطّى الإنسان ما يصيبه من بلوى وبلاء، وبالتالي قد لا يكون فتح الجرة/الصندوق بالأمر السيئ بالمطلق.

قد لا يكون المفتاح الحكائي مفتاحاً بالمفهوم التقليدي، فـ «افتح يا سمسم» ليس مفتاحاً مصنوعاً من معدن وإنما مصبوبٌ من «كلمات»! في قصة «علي بابا والأربعين حرامي»، إحدى قصص «ألف ليلة وليلة» التي افتتن بها العالم، فإن مفتاح مغارة الكنز هي «افتح يا سمسم»، إنها الكلمات المفتاح الذي يقع عليه علي بابا البغدادي فتقوده إلى الكنز الذي يحتفظ به اللصوص في مغارتهم. يا له من مفتاح سحري، يوشك أن يقود علي بابا إلى التهلكة إذ اكتشف اللصوص أمره. لكن من جديد، نحتاج إلى امرأة مثل مرجانة، زوجة علي بابا، التي تكون «مفتاح» نجاة زوجها، فتنقذه من عاقبة وشاية جار حسود به! ونساء «ألف ليلة وليلة» قادرات، يتخطين الإغلاق حتى وإن أُقفل عليهن بسبعة أقفال.

لعلنا نتذكر قصة العروس، التي يشهدها الملك شهريار في مستهل كتاب الحكايات، والتي اختطفها عفريت ليلة عرسها، ثم وضعها في علبة وجعل العلبة داخل الصندوق ورمى على الصندوق سبعة أقفال وجعلها في قاع البحر «العجاج المتلاطم بالأمواج». ومع ذلك، فإن العروس البهية استطاعت في غفلة من الجني أن تفعل الأفاعيل، في حكمة خَلُصتْ إليها حكايا الليالي وهي أن «المرأة منّا إذا أرادت أمراً لم يغلبها شيء»، كما جاء على لسان العروس حبيسة الصندوق.

في الخيال الحكائي العالمي، نستعين بقصّة «القلعة التي وقفتْ على أعمدة ذهبية» للدلالة على قيمة المفتاح في صورته غير التقليدية؛ ففي الحكاية التي تندرج في الفولكلور

Book Three in The Guardians of Time Trilogy
the Key
An ancient evil. A battle for

George M. Cohan
"Seven Keys to Baldpate"

Brilliance Audio UNABRIDGED
A Novel of Suspense by the New York Times Bestselling Author
PERRI O'SHAUGHNESS
KEEPER OF THE KEYS

Bestselling author of THE DA VINCI CODE
DAN BROWN
The Lost SYMBOL



السويدي تقوم قطة بتحويل نفسها إلى رغيف خبز في ثقب مفتاح قلعة عملاق، لتمنع العملاق من دخول قلعته. «افتحي الباب!» صرخ العملاق غاضباً، لكن القطة ظلت تقصّ له مغامراتها الكثيرة إلى أن طلعت الشمس وانهار العملاق. إذ تقطع حكايا المفاتيح قروناً من التداول البشري، فإن المغزى لا يغيب عن الأدب الراهن، المفتون بالأحاجي والألغاز، تماماً كما هو مفتون بالبحث عن «المفتاح» الذي يفضّ مغاليق الأسرار، ويقود إلى الكشف النهائي، أياً كانت عواقب هذا الكشف. قد يكون المفتاح بمثابة «الشفرة» التي تفك أحجية معقدة، كما هو الحال في رواية «شفرة دافنشي» (2003م) ذائعة الصيت للكاتب الأمريكي الشهير دان براون أو روايته الأحدث «الرمز المفقود»، التي نالت حظها من الترويج حتى قبل أن تصدر في سبتمبر (أيلول) الماضي تحت عنوان «مفتاح سليمان»، كعنوان تقصدّت الدعاية الإعلامية من ورائه وعْد القراء المنتظرين برواية ملغزة، تتخطى الإثارة التي توافرت في «شفرة دافنشي». ولا يبدو غريباً أن يقترن المفتاح بالقصص والروايات البوليسية، من ذلك روايتي «سبعة مفاتيح لبالدبيت» (1913م)، و«حارس المفاتيح» (1932م) للروائي والمسرحي الأمريكي إيرل دير بيغرز، علماً بأن «سبعة مفاتيح لبالدبيت» نُقلت إلى الشاشة الفضية في تسع نسخ سينمائية على الأقل، سبعة منها بالعنوان نفسه! كما اقترن المفتاح بالفانتازيا الروائية من خلال رواية «المفتاح» للكاتبة الأسترالية ماريان كيرلي ضمن ثلاثيتها الروائية المعروفة «حراس الزمن». على أنه من بين الروايات العالمية التي تناولت المفتاح كـ «تيمة» أدبية تتوسّم بوْحاً واستراقاً للمشاعر رواية «المفتاح» (1956م) للكاتب الياباني جونيشيرو تانيزاكي، حيث يكون مفتاح الدرج الذي يؤوي يوميات يدونها زوج محبط -يفترض أنها سرية- كشفاً للحياة، والأهم كشفاً للذات.

وبدأ بعض القفَّالين المهرة يحققون شهرة عالمية، فكانوا يُدعون لصنع أقفال تحت الطلب لنبلاء أوروبا تضم شعارات النبالة وأشكالاً رمزية، مع اعتماد نقوش تتناسب والبناء المعماري المصمّم له القفل.

وحين شارفت العصور الوسطى على الانتهاء، شهدت صناعة الأقفال المزيد من التفنن، إذ اكتسبت أوروبا بعضاً من عافية حضارية فحفّزتْ القلاع والقصور والمعابد التي تجلَّت فيها كل أشكال البذخ الهندسي حدّ الصلف والتكلّف أحياناً، من القوطي إلى النهضوي فالباروك، الإبداع الأجمل للقفّالين البارعين. فأثناء النهضة تمت إضافة الرافعة إلى الأقفال المسننة لمزيد من الأمن؛ وإلى جانب مروره من خلال النتوءات الثابتة، بات يتعين على المفتاح رفع شريط -بمثابة رافعة- ليحرك المزلاج في القفل. وبحلول القرن السادس عشر، دُشّنت في أوروبا ما يعرف بـ«الأقفال التوافقية» أو أقفال بلا مفاتيح، التي استعارت مفهومها وآلية عملها من الصين القديمة. وللقفل التوافقي قرص مدرج تحيط به مجموعة أرقام، ولفتح القفل يتعين تحريك القفل إلى اليمين وإلى اليسار في تتابع أرقام بعينها، حتى إذا ما تطابقت الأرقام مع الشقوق في القرص فُتح القفل. ولقد استُخدمت هذه الأقفال في الخزائن وصناديق المجوهرات.

هواية الملوك

استحوذت فتنة الأقفال على الألباب، وشكّل اقتناؤها غايةً ورجاءً لمن استطاع إلى الجمال والفن وثمنهما سبيلاً. وكانت كاترين الثانية إمبراطورة روسيا القيصرية -التي حكمت البلاد من العام 1762م حتى وفاتها عام 1796م- تملك واحدة من أجمل وأغلى مجموعات الأقفال في عصرها. ولم تخف الإمبراطورة إعجابها بحرفية وفنيّة صانعي الأقفال الذين كانوا يتبارون في ترجمة خيالهم في لوحات آسرة حملتها أسطح الأقفال، مبدعين أقفالاً محمولة ذات أشكال مبتكرة ومثيرة. يُقال إن صانع أقفال روسياً مشهوراً نال حريته بفضل حرفيته! فقد قام بصنع سلسلة من الأقفال والمفاتيح المزخرفة للإمبراطورة التي بلغ انبهارها بمهارته حدّ إصدارها قراراً بالعفو عنه بعدما كان على وشك



كاثرين الثانية، إمبراطورة روسيا، المعجبة بحرفية وفنية صانعي الأقفال..



والملك لويس السادس عشر ملك فرنسا، وهواية صنع الأقفال بنفسه

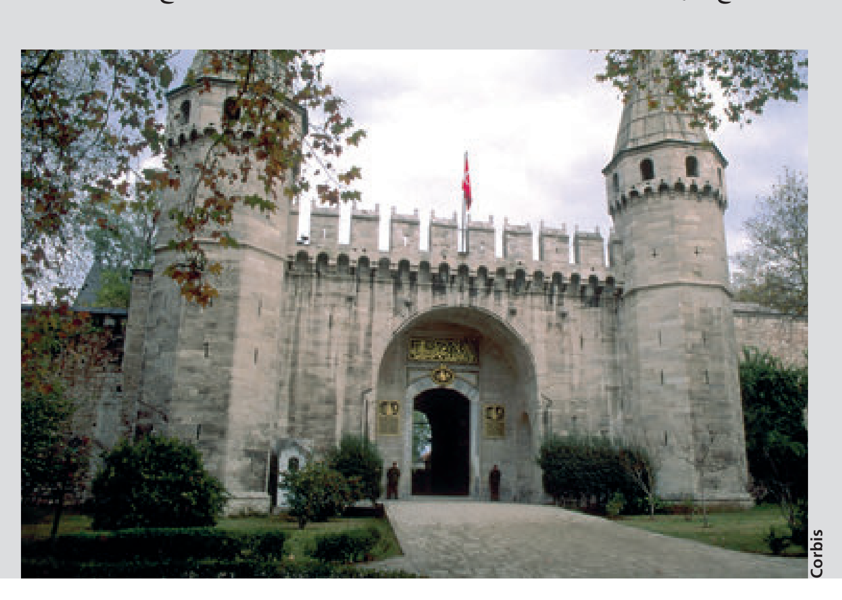
ترحيله إلى سيبيريا لقضاء عقوبة بالسجن هناك، غالباً ما تنتهي إلى موت محتوم. وكما تقول القصة، فإن هذه الواقعة وراء المثل القائل: «يستلزم الأمر 89 مفتاحاً لفتح قفل سجن»، كناية عن عدد مفاتيح الأقفال التي صممها الحرفي للإمبراطورة كاترين.

ولم يكتف النبلاء وسادة الأقوام باقتناء الأقفال والمفاتيح، بل بلغ الشغف بها حد تورط الملك لويس السادس عشر بصنعها! نعم.. فالملك الفرنسي الشاب، الذي أطاحت به الثورة الفرنسية في العام 1792م، لم ينشغل بأمور الحكم كثيراً، وكانت أحب الأوقات إليه عندما يخلو إلى ورشته في القصر يصنع الأقفال المعدنية، هو الذي تعلّم الصنعة على يد قفّال فرنسي يدعى غامين. وكان لويس فخوراً على وجه التحديد بخزنة حديد سرية، احتفظ فيها بأوراقه الشخصية ومقتنياته الخاصة جداً، كان يخبّئها في أحد جدران قصره. لكن الثوار -بمساعدة غامين- تمكنوا من معرفة موقع الخزنة. ويا ليت لويس، كما يقول الفرنسيون، «حكم البلاد بمستوى كفاءته في صنع الأقفال»..

على عتبة العصر الحديث

يمكن الزعم بأن أول محاولة جادة لتعزيز مستوى الأمان للقفل وتطوير آليته تحققت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على يد صانعي الأقفال الإنجليز، أمثال روبرت بارون وجوزيف براماه وجيريمايا تشاب. وقد واصلت صناعة الأقفال ومعها المفاتيح تطورها حيث بلغت أوجها في منتصف القرن الثامن عشر، مع صانع الأقفال الأمريكي لينوس ييل الأب، الذي سعى إلى إدخال تحديثات جوهرية على الأقفال. لكن القفزة النوعية تحققت على يد لينوس ييل الابن، الذي اخترع «قفل الوتد/الريشة» الحديث في العام 1865م، منطلقاً في فكرته من فكرة القفل الآشوري أو المصري القديم؛ وهو قفل ذو مفتاح صغير مسطّح، بحافة مُشرشرة، حيث كان أول قفل يُنتج بكميات كبيرة، كما يُعدّ حالياً الأكثر أماناً والأكثر استخداماً للأبواب في العالم.

ومع اتخاذ التقنية منحنىً تصاعدياً في القرن العشرين، وتطور طرائق التصنيع بموازاة استشراء عصر الآلات، شهدت الأقفال والمفاتيح


Corbis

«افتح يا سمسم» من البلاستيك


Corbis

إذا كان مفتاح «ييل» قد أحدث ثورةً في صناعة المفاتيح، فإن المفتاح البلاستيكي المصمّم على هيئة بطاقة أو كرت من البلاستيك جاء بمثابة «افتح يا سمسم» عصرية، سحرية، تنشق على أثرها أعتى الأبواب و«المغارات» الموصدة. بالإنجليزية، يُشار إلى هذا المفتاح بـ «Keycard»، وهو ليس مفتاحاً بالمفهوم المتعارف عليه، وإنما عبارة عن بطاقة تشبه بطاقة الهوية، مسطحة، مستطيلة الشكل، تخزن معلومات رقمية تستخدم مع الأقفال الإلكترونية. ولقد بلغ من شيوع هذه البطاقة أن معظم فنادق العالم اليوم باتت تستخدمها في فتح غرف الضيوف. ولم يعد ثمة قلق من أن يقوم الضيف بالمغادرة دون أن يرجع المفتاح البلاستيكي؛ ذلك أنه بعملية كمبيوترية سهلة بالإمكان تغيير صيغة المعادلة الرقمية في القفل الإلكتروني للباب، واستخراج بطاقة بلاستيكية جديدة له في لحظات! وهناك العديد من أنواع البطاقات البلاستيكية التي تعمل كمفاتيح، من بينها البطاقة الآلية المثقبة، والبطاقة الممغنطة، أي المزوَّدة بشريط مغناطيسي، و«البطاقة الذكية» المزوَّدة برقاقة إلكترونية لقراءة وكتابة البيانات، حيث تعمل هذه البطاقات إما من خلال إدخالها في قفل خاص بها وسحبها في حركة سريعة، أو تعريضها لمجس أو مسبار لقراءة البيانات المدونة فيها والتعرف إلى صاحبها. وكان العالم النرويجي المولد تور سورنيس أول من دشّن قفل البطاقة البلاستيكية، تحت اسم «فينغ كارد» VingCard، مستخدماً في فتحه بطاقة بلاستيكية تعمل آلياً فيها 32 ثقباً. كان ذلك في العام 1975م، حيث لا تزال فنادق العالم تعتمد هذه البطاقة. ولقد أعطت الثقوب الـ 32 في المفتاح/البطاقة 4.2 مليار توليفة أو تركيبة مختلفة، وهو ما كان يساوي تعداد سكان العالم على كوكب الأرض في ذلك الوقت، الأمر الذي وفّر لكل نزيل في الفندق بطاقته البلاستيكية الفريدة التي تتألف من 32 ثقباً بترتيب معين لكل منها. ولا يزال هذا النوع من المفاتيح البلاستيكية هو المعتمد في معظم فنادق العالم. وفي العامين 1992 – 1993م، ابتكر سورنيس القفل الإلكتروني الذي يعمل بالبطاقة البلاستيكية ذات الشريط الممغنط، التي تحمل بيانات «مشفرة». ويمكن تغيير بيانات البطاقة عبر تعديل ترتيب الجزئيات في الشريط المغناطيسي الخاص بها. وتلقى هذه البطاقة رواجاً عالمياً، من خلال استخدامها كهوية، تتيح لصاحبها دخول مؤسسة أو مرفق ما، كما تُستخدم في أجهزة الصراف الآلي، وفي تذاكر المواصلات في وسائط النقل العام في أجزاء عدة من العالم، كقطارات الأنفاق في بريطانيا.

مفاتيح القدس


Corbis
رسم متخيَّل لصلاح الدين الأيوبي

للقدس مكانةٌ غالية في القلب والتاريخ، ومفاتيح المدينة هي الأغلى ذلك أن من يملكها يملك المدينة، وقد تكون واقعة تسليم مفاتيح مدينة القدس للخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هي الأشهر في التاريخ، كونها أرستْ ما قد يكون أول ميثاق تفاهم دولي من نوعه تحت ما عرف بـ «العهدة العمرية» يحكم شروط العلاقة بين الأمم والأديان. وكان المسلمون قد تمكنوا من فتح العديد من أجزاء بلاد الشام إثر معركة اليرموك عام 636 ميلادية، ودانت لهم مدن ودويلات، إلى أن بلغوا بيت المقدس في فلسطين، حيث خيّر أبو عبيدة بن الجراح، الذي كان يقود جيش المسلمين، أهل إيلياء، أي القدس، بين إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فرضوا بالجزية، حيث اشترط بطريرك القدس صفرونيوس أن يسلّم مفاتيح بيت المقدس إلى الخليفة بنفسه، فأتى عمر، رضي اللَه عنه، إلى القدس مسافراً يرافقه خادمه ومعهما ناقة واحدة، يركبها كل من الخليفة والخادم بالتناوب. حين بلغ عمر مشارف المدينة، صعد صفرونيوس وبطارقته إلى أسوار القدس وأبصروا الرجليْن القادميْن، دون أن يميزوا أيهما الخليفة وأيهما خادمه، إذ كان عمر، رضي الله عنه، يمسك بزمام الناقة ويخوض في الماء والوحل، فأدرك البطارقة حينئذ أن مدينتهم ستكون آمنة، ففتحوا أبواب القدس وسلّموا مفاتيحها للخليفة الذي أبرم معهم «العهدة العمرية» التي منح بموجبها الأمان لأهل القدس؛ لأنفسهم وأموالهم ومعتقداتهم وما تمثله لهم.

تجدر الإشارة إلى أن مسيحيي القدس يأتمنون حتى اليوم المسلمين على مفاتيح كنيسة القيامة، قبلة المسيحيين في مشارق الأرض ومغاربها، إذ تتولى عائلتان فلسطينيتان مسلمتان، هما عائلة نسيبة وعائلة جودة، حمل هذه المفاتيح، في تقليد متوارث منذ مئات السنين، حيث يقوم أبناء العائلتين بفتح الكنيسة وإغلاقها وحراستها وصيانتها. وتذكر بعض المراجع التاريخية أن الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أعطى مفتاح الكنيسة لعبدالله بن نسيبة المازنية، وهي عائلة عربية خزرجية من المدينة المنورة، بعدما تسلمه من البطريرك صفرنيوس، وذلك عام 638م، إضافة إلى مفاتيح القدس. وثمة مراجع أخرى تفيد بأن صلاح الدين الأيوبي عهد بمفتاح كنيسة القيامة إلى عائلة نسيبة حين دخلها محرراً عام 1187م، وذلك حين لاحظ وجود خلافات بين الطوائف المسيحية في المدينة حول شؤون الكنيسة، فارتأى أن يقوم المسلمون بدور توفيقي بينهم. ثم تقاسمت عائلة جودة مع عائلة نسيبة مهمة حمل المفتاح إبان الحكم العثماني.

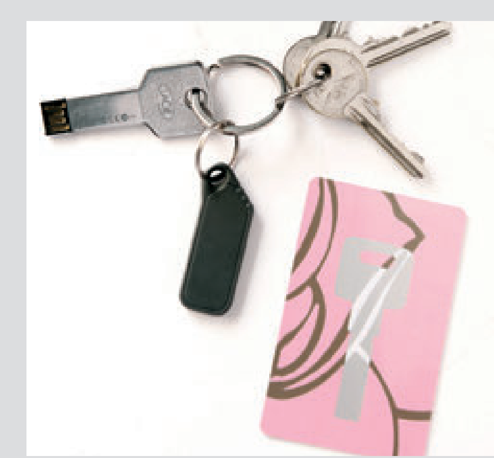




Corbis



Corbis

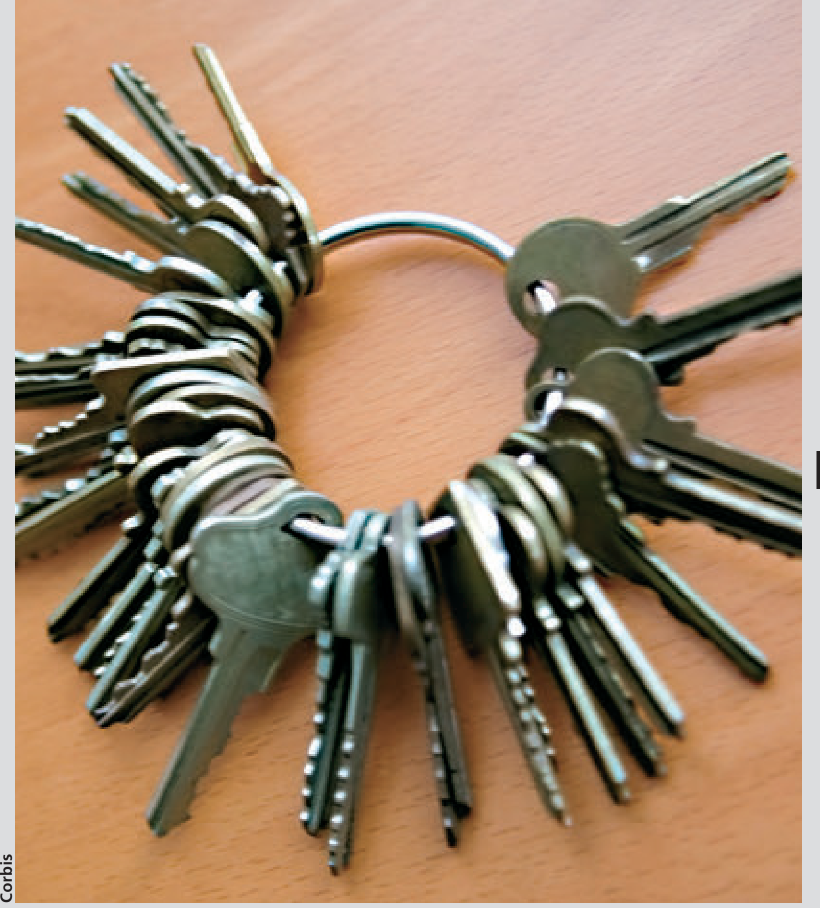




Corbis



Corbis



Corbis

تحسينات مطردة مع إنتاجها بدقة أكبر لجهة آلية عملها وتشذيبها وتعزيز خصائصها الأمنية على نحو قلّص من احتمالات فتحها عُنوة. وشهد القرن الفائت ظهور العديد من الأقفال والمفاتيح متنوعة التقنيات، متعددة الاستخدامات، لا نهائية المزايا. فتم تطوير الأقفال الإلكترونية، التي تستخدم مفتاحاً لتشغيل دائرة كهربائية، كمفاتيح السيارات والطائرات، وهناك الأقفال الموقوتة، كنوع من الأقفال التوافقية، حيث تستخدم في خزائن المصارف والمؤسسات المالية، وهي ذات مزاليج إغلاق آلية تعمل بجهاز توقيت. وقد يكون من الصعب حصر أنواع المفاتيح والأقفال، التي تعكس كثرتها وبنيتها المعقدة نتيجة لتراكم الخبرة البشرية، هوس الإنسان بمفهوم الأمان، وهوسه الأكبر -بالمقابل- لسلب هذا الأمان.

من مفتاح الباب الخشبي الضخم الشبيه بعتلة مدجّجة بالأوتاد إلى مفتاح البيت المعدني الصغير، فمفتاح تشغيل السيارة ومفتاح تشغيل الطائرة، إلى المفتاح الكهربائي، الذي يتحكم في سريان التيار الكهربائي في دائرة كهربائية، كمفتاح تشغيل المصابيح أو تشغيل الأجهزة الكهربائية، فمفتاح التحكم عن بعد ومفتاح «كرت» أو بطاقة بلاستيكية، يا له من بون شاسع بين مفتاح ومفتاح، حافل بالفروقات والتمايزات. بعد أن كان يتطلب الأمر شخصاً ذا بأس -أو عدة أشخاص- لحمل المفاتيح، باتت مفاتيح البيت والمكتب والسيارة والريموت كونترول الخاص بفتح السيارة عن بعد، ومفاتيح أخرى تتدلى من سلسلة واحدة، تخشخش بخفة في اليد!

مفاتيح وطن

لا يوجد مفتاح يثير شجناً ويستحثّ حنيناً كمفتاح البيت في فلسطين ما قبل نكبة عام 1948م، بالنسبة لمئات الآلاف من الفلسطينيين ممَّن غادروا قراهم وبلداتهم كلاجئين. فقد ترك الفلسطيني وراءه البيت والأرض والوطن، وحمل معه مفتاح الدار، يعلقه حرزاً على حوائط غربته القسرية أو يخبِّئه في صندوق مقتنياته، مع أوراق «الطابو» الصفراء التي تؤكد ملكيّته لأرض نُهبت منه. وكلما رأى المفتاح، لمح فيه صورة وطن ينتظر عودة أبنائه، وبيوتاً لم تُسقَ كرومها وزيتوناتها منذ زمن. قد لا يورث أبناءه مالاً أو عقاراً، لكنه يأتمنهم على المفتاح؛ فالمفتاح توْقٌ مورَّث وباقٍ عبر الأجيال.

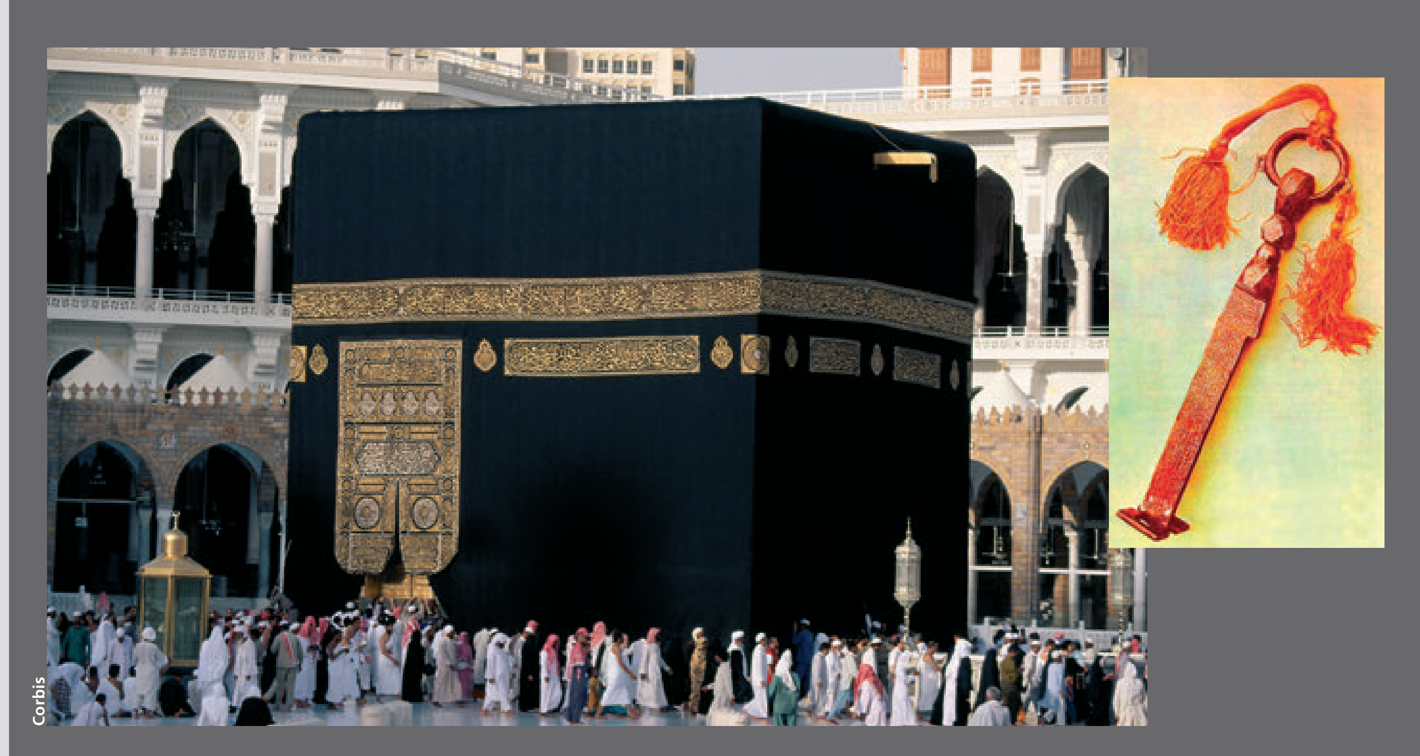
لقد زخر الأدب الفلسطيني، بكل أشكاله، بالمفتاح كرمز، وتم استغلال دلالاته سردياً ونثرياً وشعرياً في إرساء «قماشة» تعبيرية تستقرئ الشرط الفلسطيني في الشتات، ذلك أن المفتاح يُلخِّص الوطن المحتَضَن في تضاعيف الذاكرة ويختصر الأمل بالعودة. من أبرز الأدباء الفلسطينيين الذين تعاملوا مع المفتاح، كتيمة قابلة لأن يتماهى فيها الوجود الفلسطيني بالغ الخصوصية أو «الذاتية»، المبدع الراحل غسان كنفاني. في لوحة «الصغير يكتشف أن المفتاح يشبه الفأس» (1967م) المشهدية ضمن مجموعته القصصية «عن الرجال والبنادق»، يستعيد الراوي مفتاح بيت أبيه في القرية، قبل أن يتركها ليدرس في القدس، وكيف أن المفتاح -كما يتذكره- كان يشبه الفأس، وهو تشبيه ينطوي على مغزى خاص، ثم إن المفتاح، الذي لم يغادر حزام أبيه، كان «المفتاح» بـ «ال» التعريف التي لازمته ما أحالته من شيء إلى فكرة حية في أكثر من وجه وأكثر من معنى، بل كان مجرد ذكره ولفظه يشيع إحساساً بالدفء. لم يكن مجرد مفتاح، بل كان هو المفتاح الذي يعرفه الجميع، كائناً علماً، غير قابل للضياع: «فهو المفتاح الوحيد الذي لم يستطع الزمن أن يضيعه، لقد كان كل رجل في القرية، كل طفل، كل امرأة، يعرفون أن هذا المفتاح هو مفتاح دار جابر، بل كان ثمة أناس في القرى المجاورة يعرفون ذلك أيضاً، فإذا ما ضاع أو سقط يعود إلى الدار كأنما من تلقاء نفسه».

راح البيت وظل المفتاح، تركه له أبوه الذي دافع عن الأرض ببسالة في مواجهة الاحتلال الصهيوني. لقد مر عشرون أياراً، أي منذ النكبة، وظل المفتاح معلقاً كلوحة في بيته في جغرافيا اللجوء، مثبتاً عرضياً بمسمارين. ظل الكاتب -الذي لم يعد طفلاً- حريصاً على أن يُلحق «ال» التعريف الدافئة بالمفتاح، مع أن مفتاحه لم يعد يذكره بفأس. لكن ابنه الصغير، ينتبه ذات يوم إلى أن المفتاح يشبه فأس، بعدما سقط أحد المسمارين اللذين يثبتانه على الحائط، ليتدلى جسد المفتاح طولياً، مستعيداً تاريخه البعيد، حين كان فأساً مهاباً ومعروفاً، في صدقة ليست صدفة، كأنه يستبشر بوعد قريب.



Corbis

مفتاح الكعبة



Corbis

لمفاتيح الكعبة المشرفة تاريخ خاص يختزل سجلاً عريقاً من تاريخ الكعبة، ويستأثر باهتمام فريد من نوعه في العالم الإسلامي، بل في العالم أجمع، ففي أبريل من عام 2008م، عرض أحد مفاتيح الكعبة في قاعة سوذبي للمزادات في لندن بمزاد «فنون من العالم الاسلامي»، فحصد أكثر من ثمانية عشر مليون دولار.

وهذا المفتاح، الذى يعود للعصر العباسي، مصنوع من الحديد وطوله 37 سنتيمتراً ونقشت عليه عبارة تقول: «إن هذا ما تم عمله لبيت الله الحرام خلال حكم الإمام ابن الإمام المقتدي أبو جعفر المستنصر أبو العباس عام 573»، وقد اشتراه شخص مجهول بثلاثة أضعاف ثمن أي عمل فني إسلامي آخر.

وقد تم حصر 59 مفتاحاً صنع بعضها من النحاس المطعم بالفضة ونقشت عليها آيات من القرآن الكريم، وتوجد 54 من تلك المفاتيح في متحف توباكابي في اسطنبول بتركيا، واثنان ضمن مجموعة شخصية، ونسخة في متحف اللوفر بباريس، وأخرى في متحف الفنون الإسلامية في القاهرة.

وقد كان دخول هذه الأقفال والمفاتيح لأول مرة إلى القصر العثماني في أيام السلطان سليم الأول، أي منذ دخلت مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت الحكم العثماني عقب دخول السلطان سليم الأول مصر عام 923هـ/1617م وقضائه على دولة المماليك.

وقد رصد المؤرخون القدامى معلومات مفصلة عن بناء الكعبة وتاريخها وعمل الأبواب والأقفال لها والاهتمام بها في العصور السابقة للإسلام وفي عصر صدر الإسلام والعصر الأموي ومنهم الطبري والأزرقي وابن اسحاق وابن هشام وغيرهم.

أما حملة مفاتيح الكعبة فهم سدنتها، ويرجع تاريخ سدانة الكعبة إلى تاريخ بنائها، وتعني القيام بجميع أمورها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها، وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت واستقبال زوارها وكل ما يتعلق بذلك، وكان يقوم بأمر السدانة النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثم من بعده ذريته، غير أن خزاعة، وهي قبيلة هاجرت من اليمن بعد انفجار سد مأرب واتجهت إلى مكة وأقامت بها، استولت على السدانة بالقوة مدة، إلى أن كان عهد قصي بن كلاب وتمكن من استعادتها منهم، وبعد وفاته انحصرت السدانة في عبد الدار بن قصي وأبنائه حتى كان منهم آل الشيبي، سدنة الكعبة المشرفة الحاليين وينتهي نسبهم إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة. وجميع آل الشيبي الموجودون في هذا العصر هم من أبناء الشيخ محمد بن زين العابدين، وينقسمون إلى أبناء الشيخ عبد القادر بن علي وهم عائلة عبد الله، وحسن آل الشيبي، وأبناء عبد الرحمن بن عبد الله الشيبي.

أما كبير سدنة بيت الله الحرام حالياً فهو الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الشيبي، وهو الذي يوجد لديه مفتاح الكعبة، حيث تفتح مرتين في كل عام لغسلها، وحينها يسمح بدخولها لبعض ضيوف الدولة وبعض العلماء والمشايخ، وهو الذي يتسلم كسوة الكعبة الجديدة في حفل سنوي، يقام في منتصف شهر ذي القعدة تقريباً، من الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، حيث تبدأ عقب صلاة العصر من ذلك اليوم مراسم تغيير الكسوة فيقوم المشاركون في عملية استبدال الكسوة بتثبيت قطع الثوب الجديد، ثم حل الثوب القديم.



تطلّ «القافلة» على قرّائها عبر موقعها على شبكة الإنترنت.. محققةً
بذلك أمنية الكثيرين منهم في متابعة جديدها والاطلاع على
أعدادها السابقة التي بدأت منذ أكثر من نصف قرن.
فأهلا بكم في رحاب
www.qafilah.com
القافلة
الهدر.. بين البيئة والجوع
بيكاسو والمسرح..
البطل
طاقة واقتصاد
بيئة وعلوم
الحياة اليومية
الثقافة والأدب
قضية العدد
وقف الهدر
الملف
البطل
ديوان اليوم
سلطان محمد السبهان
بيئة وعلوم
معدل الأعمار
الفاصل المصور
عامر الهلابي
الرحلة معاً
قول في مقال
أطلب العلم
حياتنا اليوم
قول آخر
ارامكو السعودية
Saudi Aramco
طاقة للعالم.. للوطن طاقات

القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يناير - فبراير **2010**
المجلد **59** العدد **1**

ص . ب **1389** الظهران **31311**
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com

